

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

القطار .. إلى منزل هانا

رواية

سعد محمد رحيم

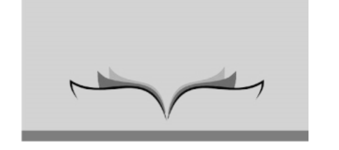
THE TRAIN TO HANA'S HOUSE

NOVEL

SAAD MOHAMMED RAHIM

القطار .. إلى منزل هانا

سعد محمد رحيم



منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

القطار .. الى منزل هانا

رواية

سعد محمد رحيم



إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

الطبعة الاولى 2018



القطار .. الى منزل هانا

سعد محمد رحيم

رقم الايداع:

الطبعة الاولى 2018

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق – بغداد

First Edition 2018

Published by the Union of Iraqi Writers – Baghdad - Iraq

طباعة : دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع

Printing : Dar Al-Rowad for Publishing and Distribution

لوحة الغلاف للفنان الهندي : لوكسيما كود

الذاتي والموضوعي

واشكالية التجنيس في الرواية

فاضل ثامر

منذ الصفحات الاولى لرواية " القطار ... إلى مترل هانا" للروائي الراحل سعد محمد رحيم ، يحاول بطل الرواية ، وراويها المركزي " رمزي" ان يبرم عقداً أو ميثاقاً (بروتوكولاً) قرائياً وسردياً مع القارئ الافتراضي الذي سيقرأ روايته، كاشفاً عن الطبيعة الميتا سردية لهذه الكتابة الروائية. فهو يخاطب القارئ او القارئة بصورة مباشرة: "أما لماذا اخبرك أنت ، فلأنك لاتعرفني ،ولن نتاكد أبداً أن كنت وجدت حقاً في الأزمنة والأمكنة التي أدعيها ."(ص3) ولكي لا يفقد ثقة القارئ بقدم له نفسه :" انا رمزي عبد الصمد،في رواية . شخصية من

كلمات .أما أنت عزيزي القارئ (وعزيزتي القارئة) الباحث عن متعة في القراءة ، فانك قد تتعاطف معي ، وتفهمني الى حدٍ." (ص 3)

ويواصل الراوي حديثه عن حياته وتجاربه بين زمنين ومكانين متباعدين :بغداد 1966 ولندن 2005 ، موحياً لقارئه ان هذه الرواية " نص عماده التخييل ليس الا. " (ص4)

وعندما جلس رمزي في قاعة مكتبة المتحف البريطاني بلندن ليستكمل فصول روايته راح يتساءل مع نفسه" هل ما سأكتبه يدخل في خانة السيرة الذاتية ام الرواية ، أم الرواية – السيرة، كما يحلو لبعض النقاد ان يسميها ، صنفاً من الروايات تمزج بين الوقائع الحاصلة والتخييل . " (ص 105) وبهذا التساؤل يفجر الرواي قضية إشكالية كبيرة تتعلق بتوصيف هذه الرواية اجناسيا بين فضاءات روائية متجاورة ومتداخلة هي السيرة الذاتية ، والرواية ، والرواية ـــ السيرة. " (205).

بل هو يدرك إنه يقف على حافة توصيف إجناسي أخر لكتابته هذه قد يربطها بالرواية البوليسية بالطريقة التي كانت تكتب بها أغاثا كريستي رواياتها البوليسية الثمانين :

" تخطر لي فكرة أن يكون مشهد الاستهلال مع حلقة المستر ديفيد المفقودة .. غير أنني لا أريده كتاب ألغاز بقالب بوليسي ، وانما كتاب حب ... ترنيمة شجية عن الحب فهو كتاب عن هانا وحسب .. "(105)

ولكن هل استطاع الروائي سعد محمد رحيم حقاً أن يبتعد في عمله هذا عن حس الرواية البوليسية ، وان يتخلص من هيمنة أجواء أغاثا كريستي وعوالمها السرية الغامضة ، التي كان يقيم معها تناصات عديدة هيمنت على روح العمل الروائي الذي كتبه،هذا الحس الذي تجلى بوضوح في روايته السابقة " مقتل بائع الكتب"، كما سنلاحظ لاحقاً ، وهل أستطاع حقاً ان يحول روايته هذه الى " كتاب حب وترنيمة شجية عن الحب"، بالطريقة التي فعلها ماركيز في روايته " الحب في زمن الكوليرا " عندما إلتقى (فلوريننا أرثيا) بمعشوقته (فرمينا واثا) التي أحبها من طرف واحد ، لمدة تزيد على الخمسين عاماً ، حيث قرر ان يقضي بقية عمره معها في رحلة نهرية ذهاباً وإياباً في قارب تجاري يرفع علم الإصابة بالكوليرا في نشوة حب مجنونة نادرة.

ربما نجح الروائي سعد محمد رحيم جزئياً في روايته هذه ان يحولها الى " ترنيمة حب لحبيبته التي وهب عمره لها ، وانتظرها لمدة اربعين عاماً ، ذلك ان شبح الموت والمأساة والخوف ، والمطاردات البوليسية الغامضة من العصابة التي تريد الوصول الى سر "الحلقة المفقودة" التي يعتقد انها مدونة ضمن مخطوطات عالم الآثار ديفيد ،والد هانا . كما ان شبح موت هانا بسرطان المبيض لايمكن الهرب منه ، لأنه قدرها ، مثلما كان قدر والدتها جاكلين كاتبة القصص البوليسية ـــ والتي كما أرى هي مجرد كناية عن اغاثا كريستي نفسها .

ولدينا ما يجعلنا نذهب الى أن رواية " الحب في زمن الكوليرا" لماركيز تمثل النص الغائب او الموازي لرواية الراحل سعد محمد رحيم هذه، فهناك الكثير من التماثلات بين الروايتين ، فكلتاهما تدوران حول حب في زمن الشيخوخة. في رواية سعد محمد رحيم كان عمر رمزي خمسة وسبعين عاماً ، بينما كان عمر (هانا) واحداً وستين عاماً . وفي رواية ماركيز كان عمر (فلورونينا أرثيا) اكثر من سبعين عاماً وكانت حبيبته التي انتظرها خمسين عاماً (فرمينا أرثيا) في الستين من عمرها .

ومن الجانب الاخر كان الحب، في بداياته، في كلا الروايتين من طرف واحد هو الرجل ، بينما ظلت المراة تجهل هذا الحب او لاتكترث به .

وقد بقي رمزي على حبه لــــــ (هانا) أربعين عاماً قبل ان يلتقي بها ، بينما بقي بطل ماركيز ينتظر اكثر من خمسين عاماً ومن هنا يحق لنا القول ان رواية سعد محمد رحيم " حمّالة" تأويلات وقراءات وتجنيسات مختلفة فهي تنطوي على بنية رواية سيرية ذاتية " Autobiographical " فيها هيمنة عالية لمقومات السرد الذاتي المبأر، بما فيها من نزعة ذاتية، واعترافات ونرجسية وعشق جامح يتجاوز الجنس أحياناً ، الى فضاءات روحية وصوفية نادرة. كما تتحول الرواية في بعض فصولها الى سيرة ذاتية لبطلها وراويها المركزي " رمزي" الذي كان يترلق أحيانا الى كتابة يوميات ذاتية عن سيرته وتجاربه بالحدود التي تقترحها السيرة الذاتية Autobiography . ومن الجانب الآخر، هناك الملامح القوية لحبكة الرواية البوليسية وتحديداً على طريقة أجاثا كرستي. لكن القارئ المتأمل سيكتشف إنه أمام عمل روائي متكامل ومتقن الصنع : فهناك دائما راوٍ او سارد مركزي، يؤشر له المؤلف غالباً بوضع أسمه في مستهل كل فصل او مشهد روائي ، وهناك عملية متقنة للتعبير السردي ، الذي يعتبر

ذاتياً، لا يسقط في فخاخ الراوي العليم لأنه يقدم من منظور Perspective الشخصية الروائية المبأر. وهناك قارئ يستحضره المؤلف بين آونة وأخرى ، وثمة حركة سردية تتشكل على مستويين زمكانيين (زمان ومكان) بتعبير ميخائيل باختين الكرونوتوبي. Chronotope فمن جهة نجد زمن عام 1966 والسنوات التي تلته، وهو زمن عراقي يكون فيه (رمزي) راوياً وشاهداً ومشاركاً . فهو استاذ جامعي ، وعالم آثار مرموق ، كلف بمساعدة عالم الأثار البريطاني المستر ديفيد وزوجته الروائية البوليسية المسز جاكلين ،وستكتشف إثناء القراءة ان هاتين الشخصيتين هما قناعان لشخصيتي عالم الاثار (ماكس مالوان، وزوجته الروائية البوليسية (أغاثا كريستي) ، اللذين شاركا فعلاً باعمال تنقيب آثارية في العراق.

أما الزمن الأخر فهو لندن عام 2005 والتي وصلها بطل الرواية (رمزي) هارباً ، كما يبدو ، من مخاطر العنف الطائفي ، ليبحث ، بعد أن اتم علاجه في احدى مشافي لندن ، عن (هانا) ابنه عالم الاثار المستر ديفيد والتي عشقها منذ ان التقاها عام 1966 في بغداد. وفضلا عن توافر عناصر الرواية الحديثة في رواية سعد محمد رحيم ، فهي أيضا تكشف، كما أشرنا سابقاً، عن تأثرٍ غير مباشر بروايات أغاثا كريستي البوليسية ، حيث يهيمن على الرواية حس بوليسي ،

وعمليات ملاحقة ومطاردة واستجوابات ، بل ان المحقق الذي أستجوب (رمزي) في لندن كان يحمل إسم (المستر واتسون) وهو أسم المحقق المفضل لدى كاتب القصص البوليسي (آرثر كونان دويل) الذي ابتكر شخصية شرلوك هولمز ، فضلاً عن الكثير من الأسرار التي بقيت غامضة و لم يتم الكشف عنها ومنها وسر " الحلقة المفقودة " التي يفترض ان المستر ديفيد قد توصل إليها، وربما تركها بين اوراقه ، وان كان رمزي قد توصل الى استنتاج شخصي يرى فيه ان لكل إنسان " حلقته المفقودة " ، وان حلقته المفقودة تتمثل في هانا ، والكتابة ، كما بقي سر العصابة او المنظمة السرية غامضاً ، وهل حاولت حقاً سرقة مخطوطات عالم الآثار المستر ديفيد . ومن الجانب الأخر أصبح مرض السرطان الذي كان يسري في مبيض (هانا) كابوساً آخر خيم على أجمل ساعات صفاء الحبيبين .

ويخيل لي ان هناك الكثير من القرائن التي تشد هذه الرواية بعالم اجاثا كرستي البوليسي. فعنوان الرواية "القطار.. الى منزل هانا" يذكرنا بعنوان رواية اجاثا كرستي" قطار 4:50 من بادنغتن" حيث يشغل القطار مكانة خاصة في روايات أجاثا كرستي. ومن جهة اخرى نجد حضوراً متواتراً لشخصية اجاثا كرستي ورواياتها البوليسية وخاصةً عند مقارنتها بالمسز جاكلين التي كانت بدورها كاتبة قصص بوليسية.

فعندما يقارن رمزي بين مسز جاكلين واجاثا كرستي يقول:" كنا نعرف ،انا والمستر ديفيد، ان مسز جاكلين لا تتفوق على اجاثا كرستي الا في شئ واحد هو جمال وجهها. "(ص41) ونجد المسز جاكلين غالباً ما تقرأ قصص اجاثا كرستي وتبدي ملاحظاتها الخاصة على كتابة القصص البوليسي.

وفي إحدى المرات فاجأت المسز جاكلين بطل الرواية رمزي بانها قد ادخلته في إحدى رواياتها التي كانت تكتبها آنذاك ، وانها ستجعله يواجه ظروفاً معقدة تدفعه لارتكاب جريمة، وتساءلت بارتياب فيما اذا كانت قادرة على إنقاذه (ص75). وأظن ان الإشارة هنا تذهب الى بعض روايات اجاثا كريستي عن العراق ، ومنها رواية " جريمة في الميسوبوتيميا Murder in Mesopotemia ورواية "جاءوا الى بغداد " التي ترجمت الى العربية تحت عنوان " لقاء في بغداد "Baghdad They Came to، وتشاهد في احد المشاهد المسز جاكلين ، وهي ترمي كتاباً عن فن الرواية البوليسية من يدها بغضب على المائدة قائلة:

" هذه القمامة لاتفيد بشيء. لو كان يعرف كيف تكتب الرواية، كتبها بدلا من هذا الهراء."(ص34).

كما نجد المسز جاكلين في مشهد آخر منشغلة بكتابة رواية بوليسية ، لكنها عجزت عن إيجاد حل معقول لها ، ورفضت مقترحاً تقدم به رمزي ان تبدأ القصة من طريق آخر، لكنها رفضت ذلك مؤكدة انها لاتريد ان تلقى بستة أشهر من العمل في سلة المهملات . " (34).

ونلمس في رواية سعد محمد رحيم استلهاماً للسيرة الذاتية لاجاثا كرستي ، من خلال تماثل طقوس الكتابة وأوقاتها المبكرة التي تبدأ منذ السادسة صباحاً ، وتناول الإفطار الساعة التاسعة صباحاً ، بعد ان يكون الزوج قد ذهب إلى موقع العمل ، وتبقى هي في الغرفة الصغيرة المخصصة لها للكتابة. كما نجد ان المسز جاكلين كما اعترفت مرة وفي احدى المرات بانها سبق لها وان حاولت الانتحار ، وهو ما سبق وان فعلته أجاثا كريستي مرتين.(ص49)

وبشكل عام نجد حس القصة البوليسية المقترن بالتوتر والغوص والمطاردة مهيمناً على أجواء الرواية ، وعلى حياة بطلها رمزي الذي راح يشعر بانه يسير داخل غابة من الأسرار الغامضة ومنها اختطافه من العصابة الغامضة والتي طلبت منه مقابل مكافاة مجزية ، ان يسرق مذكرات المستر ديفيد لاكتشاف سر الحلقة المفقودة . وشخصياً لا

اری غرابة في انهماك الروائي الراحل سعد محمد رحيم بمحاولة الإفادة من الحبكة السردية للرواية البوليسية، فقد سبق له وان فعلها في روايته " مقتل بائع الكتاب " التي كانت هي الجوهر بمثابة قصة بحث بوليسي عن سبب مقتل بائع الكتب محمود المرزوق، وهذا المنحى البوليسي مغرٍ وجذاب ومهم راحت توظفه الرواية العالمية الحديثة في العقود الأخيرة، كما وجدنا ذلك في رواية " اسم الوردة " للناقد والروائي الايطالي امبرتو ايكو ، وفي معظم روايات الروائي دان براون و بشكل خاص " شفرة دافنشي ".

ورواية مقتل بائع الكتب " هي عملية استقصاء صحفي وبوليسي معاً يقوم بها الصحفي (ماجد بغدادي) ، العامل في احدى الصحف البغدادية الذي يوكل اليه أمر اكتشاف سر مقتل محمود الرزوق، بائع الكتب ،في مدينة بعقوبة. ومع ان رواية "مقتل بائع الكتب " تنطوي على اكثر من ثيمة وحبكة فانها ظلت منشغلة ،في الجوهر ، ومنذ بدايتها وحتى نهايتها بالبحث والاستقصاء الصحفي والبوليسي معاً للكشف عن مداخلات هذه الجريمة الغامضة ، وربما هذا مايفسر صعود هذا المنحى البوليسي في رواية سعد محمد رحيم هذه ، التي تركها بين اوراقه مركونة لدى اسرته .

ومن الناحية السردية تبدو الرواية مظهرياً بمثابة رواية سيرية ذاتية اوتو بيوغرافية مكتوبة بضمير المتكلم ، يرويها في الغالب ، بطلها وراويها المركزي رمزي عبد الصمد ، عالم الآثار العراقي والأكاديمي المرموق، حيث يتحول السرد أحيانا الى لون من " اليوميات" و" المذكرات " ولكن الرواية تخرج تدريجياً من هذا الإطار وتتحول الى رواية بوليفونية، متعددة الأصوات من خلال إفساح المجال أمام أصوات غيرية، بشكل خاص صوت بطلة الرواية "هانا" التي تتحدث احيانا بصوتها الخاص. كما نجد اهتماماً ببناء المشاهد الروائية التي هي من سمات القص البوليسي. وفضلاً عن ذلك نجد اهتمامًا كبيراً بالحوارات والذهنية والفكرية بين ابطال الرواية حتى لتتحول بعض فصول الرواية الى ما يسمى بـــــ" المسرواية ، اي المسرحية ـــــ الرواية "

ويمكن ان يلاحظ القارئ وجود زمنين ومكانين متباعدين : الاول العراق عام 1966 والثاني لندن عام 2005 ، حيث وجدنا بعض الفصول التي يرويها رمزي بطل الرواية معنونة باسمه لكننا وجدنا ايضاً بعض الفصول التي ترويها بطلة الرواية " هانا" كما وجدنا احد الفصول ، الذي يحمل عنوان " بين زمنين " (106) يمثل استثناءً حيث يكشف عن اوركسترا أصوات سردية متعددة منها

صوت المستر ديفيد وهو يسترجع ذكرى موقع التنقيب في العراق .ثم ندخل داخل مشهد يجمع بين رمزي وهانا وهما يقرآن معاً صفحات من رواية " الكبرياء والهوى " لجين اوستين " (107)، ثم نجد في هذا الفصل عودة الى مشهد الموقع الاثري العراقي حيث يسترجع المستر ديفيد مشهد تقوم "نعيمه" الخادمة فيه بقراءة فناجين القهوة. ويختتم هذا الفصل بالانتقال الى حديقة (هانا) في لندن حيث تقطع الخادمة الهندية (كامرا) الأغصان ، بينما تراقبها هانا ، ليطل بعد ذلك، فجاة، رمزي ليشارك (هانا) جلستها تلك. وهذا الفصل مثالي في قدرته على التناوب السريع بين المشاهد والأماكن والازمنة والاصوات السردية. ويمكن القول ان السمة الأساسية للرواية هي عملية التناوب بين مكانين وزمنين متباعدين ، من خلال بؤرة سرد يديرها وينظمها بطل الرواية " رمزي " الذي يوظف ، في الغالب ، ضمير المتكلم الاوتوبيوغرافي، لكنه يتحول احيانا الى ضمير الغائب ،الذي هو صورة مموهة لانا الراوي ذاته ،والذي يسميه تودوروف بـــــ " أنا الراوي الغائب".

والرواية هذه ، من جهة اخرى، تحتشد بعوالم فنية رفيعة لها علاقة بالموسيقى والغناء والكتابة والرواية والثقافة. اذ نجد اشارات مهمة الى موسيقيين عالميين مثل موزارت واحالة الى بعض الافلام

العالمية والروايات الاجنبية ، فضلا عن وجود اشارات الى لوحات للفنان بول كلي وخاصة تلك اللوحة التي لاحظها رمزي اثناء التحقيق معه من قبل العصابة الغامضة والتي تخيل الها تشع بشفرات تهديد غامضة.

ونخلص الى ان رواية " القطار ... الى مترل هانا" هي رواية ممتلئة بالرموز والإحالات والمرجعيات والأزمنة والأمكنة ، مما يجعلها قابلة لقراءات وتأويلات واستنطاقات لا نهاية لها خاصة وألها تظل مفتوحة النهاية ، حتى ليخامرني الشك في ان الرواية، بمعنى من المعاني ، يمكن ان تكون ناقصة او غير مكتملة، وان المؤلف نفسه تمنى في السطور التي تصدرت الرواية والتي تعد بمثابة عتبة نصية دالة ، ان تكتمل ذكرى هذه الارتحالات والحكايات المرممة بالخيال والتي يستدعيها عن طريق الكتابة " كي يكتمل النص المجنون .. لعله يكتمل". (ص 2)

ولذا فأتساءل أحيانا مع نفسي فيما إذا كانت هذه الرواية هي سيمفونية سعد محمد رحيم الناقصة التي لم يمهله الموت ليكملها.

فالرواية هذه كما نرى هنا ، هي نص مفتوح النهاية ، ذلك إلها تحتمل تعدد القراءات ، ولا تنغلق على قراءة واحدة او مدلول واحد ، وهي بمعنى آخر بمصطلحات رولان بارت، نص كتابي قابل للتأويل

اللامتناهي ، في مقابل النص القرائي ،الذي يغلق دائرة التأويل أمام أفق القارئ من خلال تحديد مدلول واحد ثابت لا يتغير .

هذه الرواية الحداثية ، كما نرى هي نص كتابي مفتوح اجناسياً إستطاعت ان "تلتهم" بشهية مفتوحة الكثير من عناصر ومقومات أجناس أدبية وفنية مجاورة او متقاربة داخل " معدتها " وتمثلتها إبداعياً من خلال عملية تناص معقدة مع عشرات النصوص والشخصيات الروائية لتتحول الى " نص مفتوح" يحمل الكثير من المقومات التي أشرها الناقد والروائي الايطالي (امبرتو ايكو) عن النص المفتوح.

" رواية القطار. ..الى منزل هانا" تمثل إضافة مهمة للمتن الروائي الذي خلفه الراحل سعد محمد رحيم وللرواية العراقية.

”

هانا؛ ألفظها كأنني أرتشف الفجر.

أحسُها قطعة حلوى تتلاشى في الريق.

هانا؛ مفتتح ترنيمة قدّاس، وأول شهقة فرح،

والنَفَسُ اللاهث لعصفورٍ يمارسُ الحب.

ها؛ فيرتعشُ الهواءُ بالتذاذٍ في فراغ الفم.

نا؛ فيتساقط في روحي الندى إذ يلمس اللسانُ

بخفةٍ عذبةٍ سقف الحلق.

هانا؛ ذكرى ارتحالات قديمة، وحكايات

مرمّمة بالخيال، أستدعيها الآن بقوة الكلمة،

كي يكتمل النص المجنون.. لعله يكتمل..

”



(رمزي:
مستشفى بلندن)

الحب.. لا أقول إنه أكذوبة، ولكن ما هو؟ إنه كأشياء أخرى مثل الألم، مثل الرعب، مثل القسوة، مثل الحنان، لا يمكن تفسيره، لا يمكن الكشف عن مغزاه، وهي ظاهرة كأخريات، كفصول السنة، يأتي ويذهب. هو جزء من تلك الدورة السخية التي تصنع الحياة، ويبقى غامضاً كالحياة تماماً. تعيش معه وبه ولا تمسك بجوهره النقي بالكلمات، فاللغة قاصرة. ثم من قال لك إن ثمة جوهراً نقياً للحب.. لكن سأعلمك عن إشارة، سمِّها قصة، وأنا أعني في هذا المقام امرأة بعينها اسمها هانا، فارقتها و لم ألتق بها لما يقرب من الأربعين سنة.. انشغالي حول طبيعة العلاقة ونوعها إن كانت حباً أو لم تكن هو سؤال أول صعب، ربما ليس بالمقدور أبداً الإجابة عليه.. وأسئلة كثيرة

أخرى طالما راودتني وأنا بصدد ذلك السؤال المبتدأ، وهي من قبيل: وأنت تفكِّر بها بعد هذا الزمن الطويل هل تدير أحاديث في رأسك معها، أم أنك تكتفي باستعادة صورتها، شكل قوام جسدها، حركاتها إذ تمشي وإذ تأكل وإذ تغني وترقص، وإذ تتأمل أو تغضب.. وحين تجادلها، في رأسك، أتتآلف وتتشاجر معها أم أنك تشتهيها ليس إلا.. إن كنت ترغب بصورتها وتشتهيها فقط فذلك ليس هو الحب. وإذن أنا أعرف ما ليس هو الحب، ولكني أعجز عن تحديد ماهية الحب.

ستسألني: وماذا عن الأحلام؟ وتقصد أحلام المنام إن كنت تراها مرات كثيرة لأنك تفكِّر بها.. حسناً سأسرُّ لكَ بشيء، ما كنت لأتصور أن أحكي عنه لأي أحد، لكن هذا اليوم، ليس كأيِّ يوم.. اليوم أخرجني أولادي من مشفى (ROYAL FREE LONDON)، وأين؟ في المدينة التي لها علاقة بحكايتي. ولماذا تكون للندن ميزتها في حكايتي؟ سأخبرك حتماً لاسيما أنني في فترة نقاهة تعديت أزمة قلبية أخرى وبعدما أكد الطبيب أن لا حاجة لاستبدال الشرايين التاجية، ويكفي بعد إجراء عملية القسطرة الثانية الالتزام بالدواء ونوعية الغذاء.. أما لماذا أخبرك أنت؟ فلأنك لا تعرفني، ولن تتأكد أبداً إن كنتُ وُجدتُ حقاً في الأزمنة والأمكنة التي أدعيها.

لو جاءت هانا الآن، إذن لأغنتني عن حكاية قصتي لك، لكنها لم تجئ.. لن تجيء.

أنا رمزي عبد الصمد، شخصية في رواية.. شخصية من كلمات، أما أنت عزيزي القارئ (وعزيزتي القارئة) الباحث عن متعةٍ في القراءة فإنك قد تتعاطف معي وتفهمني إلى حد، وإذا ما خالفتك الرأي فقد تتلاسن معي، وقد لا تصدِّق كل ما سأقول، وهذا الأمر حسنٌ لكلينا. لي، لأنني أؤمن بأن الذاكرة ليست حيادية وصافية ومبذولة كما نبع ماءٍ في كتف جبل وإنما مضللة وخداعة أحياناً كغيمة دكناء تعبر ولا تمطر.

ولك، لأنك مهما أعجبتك قصتي ستسترخي وتقول: هي رواية، نص عماده التخييل ليس إلا.

لأعد إلى ما أردت أن أخبرك به بشأن الأحلام.

على الرغم من انشغال تفكيري بهانا على مدار الأيام والسنين إلا أنني لم أرها إلا في حلمين سخيفين يجعلانني كلما تذكرتهما أضحك.: في الأول نقف أنا وهي في محطة فكتوريا للسكك الحديد لنستقبل أبويها المستر والمسز ماير، وفي بالنا أنهما سيصلان من العراق سباحة عبر بحر المانش، والغريب أن خط رحلة إيابهما يعاكس خط رحلة ذهاب ماكس مالوان وأجاثا كريستي، في العام 19 إلى الشرق الأوسط.

في الحلم الثاني كنا أنا وهي على متن سفينة صغيرة في بحر ما يوشك على الهيجان، وكنا نتشاجر حول ما إذا كانت اللقالق تأكل من عسل التمر الذي تصنعه ربات البيوت في وسط العراق وجنوبه ويعرضنه فوق السطوح، في الشمس.. كانت تقول لي بحدة: اللقالق لا تسرق إلا الصوابين.

ها أنت تفتح فمك ذاهلاً من غرابة هذين الحلمين التافهين.. ها أنت تضحك.. حسناً، ما كنت أتوقع منك ردّ فعل آخر على أية حال.



لندن خريف 2005
الحنينة خريف 1966

يتولاه في وحشة مسائه اللندني صدعٌ مفاجئ.. لعلها لعبة الذاكرة المنخسفة بعد الستين، بعد الخامسة والستين.. يألف نفسه واقفاً في شرفة معلّقة بلا عمد، كما لو أنها محمولة بأيدي ملائكة أو مردة، ثابتة تحت سماء أول الخريف، وما زالت نجمة الصباح تلهب أنفاس فجرٍ ناعس.

الآن يهبط الغروب وتومض المصابيح على مدِّ النظر.. يحدِّق بحياد بارد إلى ما يجري تحت، حيث المكان مختلف والزمن آخر.

عرض المقعد الخلفي شجعه لينحرف بجسمه قليلاً ويمد ساقيه سانداً جذعه بذراعه الضاغط على جلد المقعد.. كان يتراخى إزاء سطوة التثاؤب فيتزلق إلى هوّة النوم ثواني فتوقظه حركة استدارة سريعة مباغتة.. الطريق مفروشة بالحصباء وعلى جانبيها تترامى خارج نافذته حقول القمح، تختلج في أفقها الظلمة والأشباح.

قالت جاكلين: "لم تشرق الشمس بعد، والحر خانق".

لم يجبها أيٌّ من الرجلين.. أردفت:

"ستذوب هانا، هنا، كقطعة شوكولاتة.. أتساءل كيف قضت صيفها في بورما والهند".

ردَّ ديفيد: "هي أقوى مما تتوقعين.. أقوى منّا نحن الاثنين".

وكأنها لم تسمع تعليقه قالت: "والأدهى مع ذلك الوغد الذي يشبه قصبة مجوفة".

ضرب ديفيد بكفه على المقود وقال:

" هي حرّة.. فلا تحاولي تسميم الأجواء.. دعينا نستمتع بوجودها معنا".

وهي تنظر إلى الجزء من الطريق الذي تضيئه مصابيح السيارة قالت:

"لا أتوقع لهذه العلاقة الاستمرار".

"تتمنين فقط".

"أخشى أن تحمل منه، عندها لن نستطيع أن نفعل شيئاً ذا بال".

انتاب ديفيد شعور بالسخط لأن امرأته تحكي أسراراً عائلية على مسمع من رجل غريب.. أدار رأسه قليلاً وخاطب الشاب الجالس في الخلف:

"مستر رمزي.. أنمت؟".

"كلا، كلا.. أنا على ما يرام".

"آسف لأننا أيقظناك مبكراً".

"لا بأس مستر ديفيد".

صوت احتكاك إطارات سيارة بالأسفلت اضطرت للتوقف كي لا تصدم دراجة يقوم سائقها ذو اللحية الكثة بأداء حركات بهلوانية في الشارع أسفل شرفة شقته حيث يجلس أعادهُ إلى صوت احتكاك عجلة الفولكس واكن الصغيرة على الحصباء لأن خنزيراً برياً عجوزاً عبر في مسقط الضوء الأصفر الراكض لمصابيح السيارة بين حقلين محروثين لأجل موسم القمح.

كاد رأس جاكلين يقرع الزجاج الأمامي لولا أنها أمسكت الدشبول بيدها في اللحظة الأخيرة، وراحت تشتم.. وحين صاحت: "هذه علامة شؤم مصدرها ذلك المعتوه سام" ضحك المستر ديفيد بصوت عالٍ وزاد من ضغطه على دواسة البنزين، فتطايرت الحصى من

تحت العجلات وامتد وراء السيارة المنطلقة ذيل سميك من الغبار.. اعتدل رمزي في جلسته، وهو يشعر بالحنق على جاكلين التي أصرت أن يرافقهما، ربما لأنها تخيلت أشياء سيئة يمكن أن يحدث في الليل ورمزي ضمان للتفاهم مع الأشقياء من المحليين إن اعترضوا سبيلهم.. و لم تقتنع بجدوى المسدس (بيريتا إم 9 ملم) الذي يحمله زوجها تحت حزامه. اعترض رمزي في البدء مقترحاً أن يصطحبا أحد الحارسين الخاصين بالموقع، لكنهما رفضا بعنادٍ لم يقع على علة له. ربما يثقان به أكثر من أي شخص آخر في هذه البلاد.

لاحت أضواء المحطة من بعيد.. قال ديفيد: "خمس دقائق ونصل". قالت جاكلين شيئاً عن الحر، وعن النوافذ التي لا يستطيعون فتحها كي يدور الهواء.. الغبار سيعميهم بسبب الطريق اللعين الذي لم يبلط بالأسفلت.

ركن ديفيد سيارته تحت أغصان شجرة توت عتيقة.. لم تلمس وجوههم نسمة هواء واحدة.. جلسوا على مقعد خشبي عريض يعلوه مظلة من الاسبست.. قالت جاكلين:

"هذا القطار لم يصل في موعده قط".

قال ديفيد وهو يمسح وجهه ورقبته بمنديل أبيض:

"وهذا الصيف لا يريد أن ينتهي.. سيكون نهاراً حاراً لعيناً آخر".

بقي رمزي يتأمل خطوط السكك المتشابكة، وخطر له أنهما ربما ينتظران منه الإدلاء بأي تعليق. ولما لم يفه بكلمة خاطبته جاكلين بنبرة نصف مازحة ونصف مستاءة:

"ألا تقول شيئاً؟".

قال، وآثار النعاس تتسلل إلى كلماته:

"عن ماذا؟".

"عن القطار الذي لا يأتي، والصيف الذي لا يرحل".

وضحكت فوقف ديفيد وقال:

"على المرء ألا يتوقع ما هو خارج طبيعة الأشياء".

رفع رمزي رأسه متطلعاً إلى بطن مظلة الاسبست فوقه وقد دار في خلده أن ديفيد ربما قصده في عبارته الأخيرة، وكان يشم رائحة غبار ونباتات متفسخة. وبعد دقيقة استبعد هذا الخاطر لأن ديفيد كان دوماً طيباً معه، يحترم فطرته وخبرته في العمل.. قال:

"أتعلمان أن أبي عمل في مد هذه السكك وبناء محطات ربما تكون هذه واحدة منها".

لم يأبها لكلامه.. لم يجدا فيه ما يثير، أو لأن الحر والترقب حالا دون أن يتعاطفا معه، أو أنهما كانا يفكران بشيء آخر.. بالقطار الذي ينبغي أن يكون على وشك الوصول.. بابنتهما هانا التي رأى بعض

صورها ولا يكاد يتذكر ملامحها، أو ربما بخطيبها الذي استشف من كلامهما الموارب الليلة بأنهما لا يودانه كثيراً، لا سيما المسز جاكلين، فهي لا ترى مستقبلاً لائقاً لابنتهما مع شاب أخرق مثله كما وصفته الأم مراراً.

مشوا.. الثلاثة معاً.. في جهة من الليل هدير قطار بعيد، وعواء بنات آوى ونباح كلاب.. النجوم تتوامض كعيون حيوانات جائعة، والقمر غاب.. الهواء ساكن.

رمزي

يأتي القطار الأول بها من قلب ليلٍ كل ما فيه ساكنٌ فاتر

لم أكن متحمساً حين طلب مني المستر ديفيد، بما يشبه الأمر، مرافقتهما هو وزوجته إلى المحطة.. كانا منذ أيام يتحدثان بلا انقطاع عن هانا وصديقها اللذين سيأتي بهما قطار الساعة الرابعة فجراً.. جاب الشابان الهند وسيلان وإيران طوال أشهر الصيف قبل أن تبرق هانا لوالديها بأنها مع صديقها ينويان قضاء بضعة أيام هنا.. لم أعترض ولم أقل شيئاً.. فقط لعنت في سري نزوة المستر ديفيد في أن أكون معه وزوجته جاكلين في استقبال العاشقين، إذ ما شأني أنا بهما.. وما الذي يمكن أن يتغير إن اعتذرت وأكملت نومي.. المستر ديفيد يحمل

مسدساً كلما خرج من المنطقة ولا يخاف قطاع الطرق، ولا يقلقه أن يذهب ليلاً، في أية ساعة، وحده أو بصحبة جاكلين إلى المحطة أو إلى أي مكان آخر.. فكرت أنه ربما كان يريد من وجودي تجنب أمرٍ ما، سخيف ومحرج مع صديق ابنته، لا يريده أن يحدث.. وقطعاً لم يخطر على باله أن يفضي هذا اللقاء العابر إلى انعطاف حاد في عواطفي وطريقة تفكيري وحياتي.

لم أعشق هانا من النظرة الأولى.. ولم يثر جسمها النحيل فيّ أية رغبة لمّا قدّمني المستر ديفيد إليها.. صافحتني ونظرها إلى أمها كأنني شيء لا لزوم له.. كانت كفها في كفي فاترة.. تحت عمود النور بدت ملامحها مرهقة شاحبة وخالية من أية مسحة جمال.. والامتلاء الخفيف لمؤخرتها وساقيها لم يجعلها تبدو امرأة شهوانية.. حتى أنني رثيت لحال صديقها الطويل ذي النظارات الطبية. وفي طريق العودة انحشرتْ في المقعد الخلفي الضيق للفولكس واكن بيني وبين صديقها.. كان جزء من سمانة فخذها وردفها يلامس فخذي وردفي.. كنت نعساناً ولم أشعر بشرارات تلهب جزئي الحميم على إثر هذا التلامس الواهن القسري. وحالما وصلنا الموقع انسحبت من دون أن أنطق بحرف إلى غرفتي وفراشي، وسرعان ما غططت في نوم عميق.

تركهما السفر المضني الطويل عبر مدن قائظة على خلاف ظاهر.. كانت هانا ببشرتها التي أحرقتها الشمس غاضبة، فيما سام بجسمه الرياضي الباسق كان يضطجع في الظل ملولاً بلا همّة لفعل أي شيء حتى الكلام. ومرّة واحدة لعبنا الشطرنج، حين قتلت له قلعة وحصانا قلب القاعدة الخشبية، وقال: أنت الفائز، قبل أن يردد: "أنا آسف" مرتين أو ثلاثاً. لكنه لم ينحنِ ليلتقط معي القطع التي تناثرت على الأرضية المتربة.



رمزي
لندن خريف 2006

فينا شيء آخر بفضل قدرتنا على الحب. هذا ما أستطيع تأكيده، ولكن ما هو؟.

في القطار إلى منزل هانا كنت مفعماً بمشاعر مبهجة وغامضة على الرغم من أنني لم أكن أعرف ما الذي سيحصل حقاً حين ألتقي بها؟.

هانا فكرة، بيد أنها ليست فكرة مجردة.. ليست أية فكرة.. هانا جمال يحلق منذ تسع وثلاثين سنة في إهابي.. هانا لغز فيما سؤال الحب يهدهدني مع الإيقاع الرتيب لحركة القطار.

لا أكاد أصدّق أن هذا القطار المزدحم يأخذني أخيراً إلى هانا.. يحمل ما تبقى مني إليها.. لم أبحث في دليل الهاتف عن رقم منزلها.. أردت

أن يكون اللقاء مباشراً، من غير موعد مسبق. أراها وتراني، ومن ثم ليجري الأمر على أي نحوٍ بعد ذلك.. الحكاية التي طالما نسجتها بخيالاتي، وسقتها في مسارات درامية لا تحصى، أريد لها نهاية ما.. نهاية على أرض الواقع الصلب القاسي.. أن أخرجها من زمن السرد المتخيل وأدعها للزمن المعيش يفعل بها ما تستحق.. إذ ذاك فقط قد تصبح لدي فرصة للتحرر.. فحقاً أريد الانعتاق من سطوة هانا، من شغفي المرضي اليائس بها، من لعنتها.

سنة بعد سنة كنت أنى وجّهتُ تفكيري انحرف إلى حيث هي؛ هي التي سكنت في ظنوني كل مكان.. وعلى الرغم من وجودها على بعد آلاف الأميال افترضتُ، دوماً، أنها قريبة مني.. ولطالما تهيأ لي أنها ستترل من عربة الـــ FIRST CLAS في القطار القادم ضاحكة، أو أن أصادفها وأنا أتسكع في شارع الرشيد، أو في شارع السعدون ببغداد.. وفي كل مرة يُطرق باب مترلي كان يخيّل لي أنها جاءت أخيراً. وكلما رأيت ساعي البريد قلت في سرّي لعله يحمل الآن الرسالة المنتظرة.. كنت في حالة عصية يصعب معها أن أفهم نفسي.. أردد: أنت على ضلال يا صاح. لكن كائناً آخر فيّ، ذاك المسمّم بالوهم، يخذلني ويعود لينشغل بها.. كنت أكثر من رجل، موزعاً بين

عالم آثار وأستاذ جامعي صارم في علميته، وزوج محب حريص على سلام أسرته، وعاشق ممسوس يصارع يأسه بالأحلام.

تخالجني مشاعر غريبة لكنها سارّة.. فهانا حبيبتي منذ زمن سحيق.. لست واثقاً من أنها أحبتني في أي يوم.. أو خطرتُ على بالها بعد آخر لقاء.. غير أنني عشقتها بخبل، وبقيت أفكر بها طوال تسع وثلاثين سنة.. لم تمر ليلة واحدة إلا وهي تسرح في أحلام يقظتي.. وعلى الرغم من ذلك لم أحلم بها في منامي سوى مرتين.. حلمان سأحكي، في ما بعد، عمّا علق منهما في ذاكرتي.

قصتي مع هانا هي قصتي مع الحياة ذاتها، مع نفسي ومع الآخرين ومع العالم.. قد تعتقدون أنني أمضيت معها سنين طويلة.. لا يا سيداتي ويا سادتي.. تلك الفاصلة القدرية لم تتجاوز الأسبوعين، ولم يستغرق وجودي وحدي معها، لو أحصيت مددها المبعثرة، إلا يوماً أو يوما وبضع ساعات. غير أن القطارات الذاهبة والآيبة بيني وبينها لم تتوقف قط، في غضون السنين الثقيلة تلك.. وكنت مهما هاجت العواصف واندلعت الحروب وانقطعت السبل بين سكان هذا الطرف وذاك، الموزعين على خريطة القارات، أستقل قطاراً افتراضياً إليها، أو استقبل آخر، يحملها إليّ.

أنى لي أن أعلم أنها هناك، ما تزال حيّة ترزق، ما تزال تسكن بيت العائلة القديم؟. وإن وجدتها فأملي الوحيد هو أن تتذكر.. أن تقول: أووووه أنت.. ولا يهم ما سيحصل بعد ذلك.. ليس من الكياسة أن ترد الباب وتصرخ في وجهي: اذهب.. ربما تبادلت معي بضع كلماتٍ مجاملةً.. وإن حصل، هل ستدعني أدخل ونمضي نصف ساعة معاً نشرب الشاي ونستعيد ذكريات قليلة، قبل أن أحترم نفسي وأستأذن للمغادرة.. وماذا لو كانت ذاكرتها ممسوحة، وليس في زاوية منها أي مكان ولو جدّ ضئيل لي.. ماذا لو كنت اخترت ساعة سيئة للزيارة؟ ماذا لو كانت مريضة، أو تواجه مشكلات، أو متزوجة ولديها أبناء؟ ماذا، وماذا؟

أفكِّر أحياناً أن تعلقي الحالم الطويل بهانا أنقذني نوعاً ما من احتمالات الكآبة واليأس والجنون وحال بيني وبين الانتحار.. كانت هانا بطريقة ما رقية سحرية، ترياقاً، وسيلة نفسية دفاعية، قوة توازن يمكن الاستعانة بها في أي وقت بقدرة المخيّلة.

أقطع الطريق من المحطة مشياً على الأقدام.. ما زلت أذكر ملاحظة المستر ديفيد: "منزلنا يبعد عن المحطة مئتي متر".. أعبر شارعاً، أمرُّ بمنازل متشابهة، ذات طابقين، بُنيت في ثلاثينات القرن الماضي، لها حدائق بأسيجة واطئة.. صف طويل من أعمدة قصيرة من الخشب

المضلع، ذات نهايات مدببة، تقطعها أسلاك معدنية. صفوف من نبات الآس وأشجار فاكهة وشجيرات ورد.. مقصدي المترل الذي يحمل الرقم 9.. أصله.. أدفع باب الحديقة الخشبي وأمشي باتجاه باب الكليدور.. أقرع الجرس ونبضي يتسارع.. الأفكار في رأسي تتلاحق بلا ضابط.. تخرج امرأة سمراء هندية في عقدها الثالث.. أسألها إن كان أحد من عائلة المستر ديفيد ماير ما يزال يسكن هنا.. تقول "نعم، أجئت تقابل المسز هانا؟ أهناك موعد؟".. "لا، أبداً، لكني أعرفهم منذ زمن بعيد".

تخرج هانا.. يكاد قلبي يتوقف.

طائرة ورقية معينية الشكل بذيل أبيض طويل تلوح مهتزة من بين أغصان شجرة الكرز، والهواء رخي، بارد قليلاً، يحمل رائحة خشب محروق خفيفة، ويداعب شعرها المصبوغ الأشقر جاعلاً عينيها ترمشان. وبدا أنه يبحث عن بقايا السحر القديم في وجهها ونظرتها. عن آثار ذلك الجمال الغابر الذي سكن أحلامه طوال أربعة عقود، وشعر بأن معدته تتقبض، وتغمره كآبة شفيفة من ذلك النوع الذي يستدعي البكاء.. إنها هي؛ هانا.

منذ خمسة شهور وهو متردد بشأن هذه الزيارة.. جاء من غير موعد لأنه لا يمتلك رقم هاتف الشخص الساكن في هذا المترل.. ما معه فقط هو عنوان مترل ديفيد القديم في ضاحية من لندن، والذي يحفظه عن ظهر قلب.

وقفت في الباب تنظر إليه بعينيها الزرقاوين اللتين خفت بريقهما وعلى محياها إمارات دهشة، قال و لم يخف عليها تلعثم صوته:

"أنا رمزي عبد الصمد".

"نعم".

"أتذكرين في الحُنينة، في موقع الآثار مع والدكِ ووالدتكِ.. جئتما أنتِ وسام".

"ذلك زمن بعيد.. والداي توفيا".

"أعرف، أنا آسف.. كنت مساعد المستر ديفيد".

"نعم، اعذرني، لم تعد الذاكرة كما كانت".

"وخرجنا ذات ظهيرة أنا وأنتِ".

"أنت لا تدري ما الذي حصل طوال أربعين عاماً".

"أعرف أشياء قليلة، لكنه كان يوماً خريفياً حاراً".

"أحسدك على ذاكرتك يا صاح، أظنني نسيت كل شيء".

"لم يمر يوم واحد من غير أن أتذكر تلك الظهيرة.. أنا من أوصلك من ثم بالقطار إلى بغداد، وودعتكِ في المطار".

"أجئت من أجل أن تقول لي هذا؟. ماذا حصل في تلك الظهيرة اللعينة؟".

سرى في عموده الفقري تيار بارد.. بلع ريقه.. نطقها وهو يحدق في عينيها.

"نعم".

لم تشح عينيها عن عينيه، وبدا وكأنها ستغلق الباب بوجهه.. لكنها دعته للدخول:

"أترغب بكأس شاي؟".

"أرجوكِ.. شكراً جزيلاً".

جلسا في الصالة.. شعر بالبرد.. كان الموقد خامداً.. جاءت خادمة هندية في الأربعين بصينية عليها إبريق خزفي مورد وكوبان فارغان وإناء زجاجي مملوء بالسكر. سرّ لأن الشاي سيبعث الدفء في جسمه.

قالت هانا وهي تدير الشاي في الكوبين:

"أعذرني، تلك فاصلة من العمر أُلغيت تماماً من ذاكرتي.. تبين أنني لا أجيد شيئاً أكثر من النسيان.. كم ملعقة سكر؟".

"بلا سكّر".

وهو يأخذ الكوب من يدها، قال:

"شكراً.. أما أنا فلم أنس قط".

أخذت رشفة صغيرة من كوبها وقالت:

"لا أدري إن كان عليّ أن أغبطك أم أرثي لحالك مستر.. آه.. قلتَ ما اسمك؟".

"رمزي".



الحُنينة خريف 1966

الظهيرة، ساعة الغداء.. للتو وصل ديفيد ورمزي وهما يتصببان عرقاً.. منذ اللحظة الأولى عرفا أن الجو بين الأشخاص الثلاثة في المترل محتقن.. جلسوا إلى مائدة الطعام التي أعدهّا نعيمة الخدامة.. المروحة الثقيلة تصدر أنيناً رتيباً.. قرّب ديفيد فمه من أذن جاكلين وقال بما يشبه الهمس: "ماذا حصل؟".. لم تجب جاكلين.. قالت هانا هازئة: "الشمس تتسبب في جنون بعضهم".. صاح سام: "هانا، أرجوكِ". بدأوا ألأكل.. لم يكونوا قد انتهوا حين قالت هانا: "السفر اختبار".. قال سام ببرود: "اختبار عظيم.. حاسم".. أطلقت هانا ضحكة مغيظة

وقربت وجهها من وجه سام وقالت: "كان يجب أن تطير من نيودلهي إلى لندن وتتركني وحدي"..

"كي تثبتي أن الحق معكِ".

"ما زال الحق معي".

قالت جاكلين: "دعونا نكمل طعامنا، سيصيبني جنونكما بعسر الهضم".

لم يفهم رمزي سبب هذه المماحكة الحادة بين الشابين، ورجح أن تكون جاكلين عاملاً محرضاً.. وعجب من نفسه لأنه في قرارته كان يشعر بالارتياح، فهو لم يطق سام مذ شاهده للمرة الأولى يهبط من القطار، لم يرتح له، فيما أسرته هانا بأزهار ثوبها ألأبيض القصير، وفخذيها اللتين منحتهما شمس الشرق بريقاً برونزياً جذاباً، وشعرها الأشقر المتموج، المرسل على كتفيها، وضحكتها الصافية وقد جعلته يتساءل لم تذكِّره هذه الشابة بمارلين مونرو في فيلم (بعضها يفضلها ساخنة) على الرغم من أنها لا تشبهها سوى بغمازتها المثيرة.. صافحته بشيء من البرود، وكذلك فعل سام.. لم يهتما بوجوده يوم وصلا وما زالا يتجاهلانه كأنه قطعة مهملة، بلا جاذبية في المكان.

قال ديفيد: "حلا مشكلتكما معا، بمفردكما".

قالت هانا: "سام مغرم بالفضائح".

أوحى ما قالته هانا ووالدها لرمزي بأنه لا ينبغي أن يكون هنا، شاهداً على الفضيحة التي لا يعرف ماهيتها وسببها.. قام معتذراً وقال إنه شبع وعليه أن يستحم وينام القيلولة.. لم يعترض أحد على خروجه.

الحر يثير غباراً خفيفاً ويتلف الأعصاب.. أجال ناظريه في السماء الباهتة الزرقة وسار باتجاه كوخه. ولم يكن قد اجتاز أكثر من عشرين متراً حين لحقت به هانا.. كانت تشتم، وقالت إنها لو بقيت في المترل فلربما ارتكبت جريمة قتل، وسألت لماذا لا يوجد مقهى تقدم البيرة في هذا الموقع الحار اللعين. احتار رمزي بم يجيب، وما التصرف الصحيح الذي عليه أن يقدم عليه.. هو لا يريد أن يكون طرفاً في هذه المسألة كي لا يفقد رضا رئيسه المستر ديفيد عنه.. قال: "سيكون مشروعا خاسرا افتتاح مقهى هنا.. القرية صغيرة والناس قليلون". وأحس أن كلامه كان ساذجاً، لكنها في غمرة حالتها الانفعالية لم تعره أهمية.. وكانت تمشي شمالاً بخطوات سريعة مبتعدة عن المترل وموقع التنقيب والقرية والمزارع، بين الأشواك والشجيرات البرية باتجاه التلال. ووجد نفسه يجاريها في مشيها، ينقل خطواته إلى جانبها بالسرعة ذاتها، ولم تكن معترضة. قال لها "اهدئي، وارجعي.. الشمس في هذه الساعة مؤذية". "لا شيء أكثر أذى من ذلك الأحمق المقرف".

"لا يمكنني أن أتركك تذهبين بهذا الاتجاه وحدكِ.. هناك الأفاعي أيضاً، وربما الذئاب، وقد يعتدي عليك شخص عابر".. قالت وصوتها يصدر من حنجرة جافة: "ألست معي؟ أم أنك تريد أن ترجع". أُسقط في يده.. كأن شيئاً قدرياً عجيباً يحدث ولا قوة لديه للحيلولة دون وقوعه.. كأنه مقود إلى مصير غامض لعله في لا شعوره راغب فيه.. كأنه يحلم.

ألفاها كينونة لا معقولة في هذا الصقع الوحشي الغريب.. مع وصولها قبل أيام أغوته لا أباليتها وشوّشته، وكان يدرك أنها من غير عالمه، خارج مداره وإلى الأبد، ليس من المحتمل أن ينتميا إلى الشيء نفسه.. لكنها استحوذت على تفكيره تماماً، وفي خضم هوسه اليائس هذا رأى كيف أن برودتها العذبة تزيد من حرارة الأجزاء السريّة الحميمة في بدنه، حتى أنه استحضرها في الجو المعتم الخانق للحمام مرتين باحتفال لذائذي لم يخبر كمذاقها من قبل. وها هي الآن معه.. شيء مؤكد.. أهو مؤكد حقاً؟. تقف، تخزره بعينيها الفيروزيتين لتصيب مخه بالاضطراب.. وتعضعض شفتيها فيلمع احمرارهما في طوفان الضياء.. بدت مثل نمر جائع يتلمظ قبل الافتراس.. عرقه يتز وعرقها، ولهاثه يحتدم ولهاثها.. لا أحد هناك على مرمى النظر.. تقرِّب وجهها من وجهه.. تلفحه أنفاسها المهتاجة.. يتدفق دمه حاراً أسفل

بطنه كعصفٍ يضرب سطح البحر ويقلبه.. تنتفخ أوردته فتذهب أصابعها إلى حمالة بنطاله، تفكها.. تقعي على ركبتيها.. تفتح أزرار بنطاله واحداً واحداً وهي تفح.. تتزل البنطال واللباس الداخلي دفعة واحدة كاشفة شيئه المنتعظ المنتفخ بالرغبة والخبل، تحيطه بكفها وتضغط عليه..

تجره بين الشجيرات البرية القزمة.. تدفع صدره وهو مستسلم مأسور.. تجعله يتمدد على ظهره فوق الرمل الحارق.. تنحني، تبرك فوقه، تخلع ثوبها.. لا شيء آخر تحته..

"ما اسمك.. نسيت"

"رمزي"

"ذُق رمزي".

وبحركة سحرية راقصة تأتيها يجد نفسه وقد انزلق فيها.. وإذ يروح جذعها يهتز صاعداً نازلاً عليه كفارسة منطلقة على حصانها في الريح يألف روحه والجة في المتعة واللامعقول، فيما تموجات نهديها الأبلقين وكما تتراءى له خلل الغشاوة على عينيه تسلبه حس الواقع وتقذفه إلى سحابة غبطة مشعة، غير آبه بسخونة الرمل الذي يحرق جلد الجزء الخلفي من جسمه.. غير أنها لم تدعه يمسك نهديها ليداعبهما.. لم تدعه يسحبها نحو صدره ليقبلها في فمها.. ولما أحاط ردفيها الصلبين

الصغيرين بكفّيه قالت له: اسحب يديك فوضعهما على صدره.. شعر بها تغتصبه وكان راضياً مستسلماً حتى إذا تأوها معاً بصرختين متناغمتين تصادت في الظهيرة اللاسعة طلبت منه أن يمكث كما هو، أما هي فراحت تتشرب عصارته بكيانها كله حتى آخر قطرة.. وكان جسمها محمراً مغسولا بالعرق وجسمه أيضاً، وكلاهما مضمخ برائحة حيوانية لاذعة.. قامت وأخذت فستانها.. نفضته ولبسته. وارتدى هو بنطاله وتبعها.. كانت تسير بقوة غاضبة، عائدة إلى المترل.

في الليلة نفسها حمل سام حقيبته وغادر الحُنينة.. أوصله رمزي بسيارة الفوكس والكن إلى المحطة.. لم يتكلما تقريباً طوال الطريق.. وحين قال رمزي ماداً يده لسام قبل صعوده القطار: "حظاً سعيداً" لم يجبه سام ولم يصافحه. فتمتم "وغد" ورجع مفعماً بالأمل والارتياح وفي رأسه هانا، يفكر بفرصة تمتين علاقته بها في الأيام التالية.

أول الصباح حين دخل المترل ليصطحب المستر ديفيد إلى موقع العمل قال بانشراح: "صباح الخير".. كانوا جالسين إلى مائدة الفطور.. لم تجبه هانا، ولم تنظر إليه فانتابه شعور بالإحباط.. علل جفوتها بأنها ما زالت مصدومة مما جرى في الساعات الماضية.. وازداد حنقه وهو يلمس سلوكها اللاأبالي البارد معه في غضون أيام الأسبوع اللاحق.. كانت مهمومة، لا تخرج أبداً.. لعلها ندمت على فعلتها..

لعلها تحب سام وتفتقده.. وشعر بالغيرة، ومن ثم بالخيانة والخذلان والعجز.. دخن ضعف المعدل الذي اعتاد عليه من سجائر الروثمن، وشرب الكحول في كل ليلة حتى نفدت الزجاجات الثلاث، مؤونته لشهر من العرق. ولم يفهم ما المشكلة.. لم يحك له المستر ديفيد.. إنها مسألة عائلية لا تخصه.

سيسأله المستر ديفيد إن كان مريضاً، وإذاً يمكن أن يتمتع بإجازة لعشرة أيام يسافر خلالها إلى الموصل حيث يسكن أهله.. سيرفض من غير أن يقدِّم حجة مقنعة، وسيقول لنفسه: "من الغباء أن أغادر الحنينة الآن، فطالما هي هنا، من الممكن أن تتوافر فرصة". والفرصة ستتيحها المسز جاكلين حين تطلب منه أن يرافق هانا بالقطار إلى بغداد ليودِّعها في المطار.



رمزي
الفاتح من تشرين الأول 1966

"قلما تنال المرء ضربة حظ كهذه" رددتها في الحمام، وأعدتها وأنا أنتهي من حلاقة ذقني وأتعطر بالكولونيا علامة ريف دور، وأفرك شعري بزيت التلميع وأمشطه.

كان على المستر ديفيد كتابة تقرير مستعجل لدائرة الآثار، خلال يومين، موضوعه اكتشاف منحوتة صخرية نادرة تمثل رجلاً مجنحاً. وكانت المسز جاكلين عكرة المزاج تعاني من حمى خفيفة.. هذا ما قيل لي.. حتى أنها لم تأتِ معنا لتوديع ابنتها لما أوصلنا المستر ديفيد إلى المحطة. وما ملأني بالتفاؤل أن هانا لم تمانع أن أكون أنا بصحبتها.

عانقها المستر ديفيد، ولوّح لها لمّا شرع القطار بالتحرك، وهي إلى جهة النافذة، وأنا إلى جانبها في عربة الــ (FIRST CLASS) على

خط الموصل ـــ بغداد. والليل ساجٍ، تحت سماء صافية مزدحمة بملايين النجوم.

حسبت أنها ستبدأ الكلام، إلا أنها بقيت ساكتة.. كانت ملامحها مسترخية، تبدو وكأنها لا تشعر بوجودي، كأنها غير مهتمة بكوني معها.. ومع سيلان الوقت بتُّ أشك في أن أكون أعنيها في شيء. أو لعلها تعدني عاملاً من المحليين ليس إلا، يرافقها بقصد الحماية والخدمة.

خطر لي أنْ أشير إلى جائحة تلك الظهيرة، أنْ أُلِّح وحسب، لكنني لم أجرؤ.. سألتها إنْ كانت بحاجة إلى أي شيء؟. قالت ومن غير أن تنظر نحوي: "فقط، أريد أن أنام". أراحت رأسها على ظهر المقعد الجلدي وأغمضت عينيها، و لم يكن هذا علامة حسنة.

لماذا تتصرف وكأن ذلك الأمر لم يحصل؟. أفعلتْ ذلك وفي بالها أن تنتقم من سام؟. أكانت تحت ضغط شهوة مباغتة أشبعتها بتلك الطريقة؟. هل أرادت تهدئة أعصابها المثارة بممارسة الجنس مع أيٍّ كان، وصدف أن كنت أنا في المكان والزمان المناسبين؟.

تمر الدقائق بطيئة.. أسمع صوت تنفسها خلل هدير القطار.. إنها نائمة حقاً.. أما أنا فيجافيني النوم.. بعد أقل من ساعة تستيقظ.. تشرب ماءً من زجاجة تخرجها في حقيبتها..

تترلق، وحيث يهبط القطار نحو بغداد، المصابيح الرامشة للقرى، أشباح أعمدة التلغراف، الأشجار الوحيدة العارية في الليل.. تسيل معها عيناها الناعستان، فيما أنظر إلى صفحة وجهها، إلى القوس الأبيض الرقيق النازل نحو حنكها كهلال.. وعلى حين فجأة تلتفت إليّ.. يفتر ثغرها كأنها مستغربة قبل أن تبتسم وتبين غمازتها تحت خدها الأيسر.. تقول:

ـــ تنظرُ إلى وجهي.

لا معنى للإنكار:

ـــ نعم.

ـــ ماذا فيه.

ـــ الجمال.

ـــ تغازلني وأنا في حالتي السيئة التي تعرفها.

ـــ لست أغازلك.. أجبت عن سؤالكِ فقط.

ـــ أحقاً تراني جميلة، أم أنك تحاول إغوائي؟.

ـــ أراكِ جميلة، و لم أفكر بإغوائكِ.

ـــ حقاً؟

هززتُ رأسي.. حرّكت جذعها وألقت برأسها على أعلى ظهر المقعد، وأغمضت عينيها.. قالت:

"ما الجميل فيّ.. الشيء الذي تراه أنت وذلك الأحمق لم يره".

"ماذا تسمونها، الفجوة في الخد عند الابتسام".

" أوه، Dimple".

"أجل، غمازتكِ".

"فقط؟".

"لا، لكنها تمنح أشياءكِ الأخرى رونقاً وسحراً، أخالكِ تشعين عبرها".

فتحت فمها مرتين وأغلقته قبل أن تقول:

"أفضل النوم.. أما رومانسيات الصحراء فلا تعجبني".

لم أدرِ إن كانت تمزح أو هي مستاءة.. قلت:

"أنا ابن مدينة عمرها خمسة آلاف سنة".

"أخبر بهذا أبي".

جعلتني مسحة التهكم في ردِّها أشعر بسخف عبارتي،.. سيكون الأمر أسوأ لو تماديت بالكلام.. فعلتُ مثلما فعلتْ.. مددتُ جسمي وأغلقت أجفاني.. أردت إبعادها عن ذهني وأخيراً ربما غفوت ساعتين أو أكثر.. كان نوماً مضطرباً، وأظنني رأيت حلماً. غير أنني لم أتذكر تفاصيله.. وبزغ الفجر لما تركنا محطة صغيرة وراءنا.. كنا في اقترابنا من محطة غربي بغداد نمر بسرعة على مشاهد فلاحات ملثمات، ورعاة

قطعان من الحملان والماعز.. ومستنقعات تلجها الجواميس.. ومستعمرات بردي، ومزارع صيف آخذة بالتيبس، وسواقي ضحلة. وأشجار نخيل ما يزال بعضها مثقلاً بعذوق التمر.

* * *

لم أغادر بعد قطار الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ذاك.. قطاري الذي ما يزال ينفث في ذاكرتي بخاره الأبيض القديم.. تلك السحابة التي تتهيأ لي وكأنها ملاءة ترفرف في الريح..

عيونها في النافذة، وعيوني على الانحناءة البيضاء الصافية لصفحة وجهها.. يضيء زغبَها الذهبيَّ الناعمَ وهجُ المصباح فوقنا فامتلأ بالأسى، وأعرف أنها الساعة التي ستعلق في فضائي أبداً غيمةً من حنين.. حنينٌ ليليٌ أبيض سيعاودني أربعين سنةٍ بعنادٍ لا يكل.. ففي لحظةٍ يحصل الصدع فينتهكني شعور خاطفٌ بالرعب.. صدعٌ ليس من وسيلةٍ، للبرء منه طالما استمر منفذاً للذة ظلّت تتمادى بألم حتى استسلمت لها. كانت تداهمني مع صفير قطارات الليل، ومنظر مصابيح القرى في نوافذ العربات.. ومن يومها عشقت السفر بالقطارات.. في القطارات تكون هانا معي دوماً.. وإذا ما تدفقت أنغام شوبان. ولم أفهم قط لم مع شوبان، لا غيره، تمرُّ بي لحظة الرعب تلك بزخمها المُلِّح ووعيدها الجهنميّ فاتحة خط الصدع الطري لتغمرني

اللذة ذاتها معجونة بالألم.. وستقول لي في لقائنا الثاني بعد تسع وثلاثين سنة، وبما يشبه التوبيخ.

"أنت صنعت وهماً طوال عقود طويلة وصدّقته، وها أنك تراه ينهار أمامك".

"فقط من الصعب أن أطابق الصورتين".

"كانت تلك حقبة الستينات.. فعلت أشياء أكثر جنوناً، لذا اعذرني إن كنت نسيت تلك المضاجعة العابرة في الصحراء".

يملأني كلامها بخيبة أمل، ولا أعلم ما الذي أنتظره منها على وجه التحديد.. الشيء الوحيد الذي يريحني هو أنني معها بعد تلك السنوات كلها.

تضحك.. تفرك بأصابعها الشائخة ركبتها العارية وتمد ساقها ثم تثنيها مرّات.

"كما ترى أعاني من آلام المفاصل".

"الجو برد.. لو تلبسي أكثر".

"لا، أصابتني من سنوات.. ضريبة العيش. ويا لها من ضريبة".

"أنا أيضاً هجمت عليّ الأمراض.. ارتفاع ضغط الدم وانسداد شرايين القلب.. خضعت مرتين لعملية القسطرة".

"آه، آسفة.. وإذن أين يمكن أن تكون امرأتك الحلم الآن؟".

"لا أريد أن أعرف".

ضحكنا معاً.. قامت وملأت كوبينا ثانية بالشاي الساخن.

"ماذا لو أضع لك قطعة سكّر واحدة؟".

"بلا سكّر".

صورة الفتاة التي أريد في تخيلات مراهقتي كانت بوجه خمري مستدير، وشعر ولادي بني، وعينين عسليتين واسعتين براقتين، وجسم ممتلئ مشدود يميل إلى القصر.. لعلي صادفت أكثر من واحدة تشبه هذه الفتاة في أمكنة وأزمنة مختلفتين، لكن أيّاً منهن لم تكن هي. كانت النساء العابرات التي عرفتهن بعد ذلك يختلفن بهذه الدرجة أو تلك عن فتاة أحلامي. وبقي ما يقلقني هو أن أجد تلك الفتاة وأعشقها من طرف واحد، من غير أن تأبه لي. حتى إذا جاءت هانا بقدِّها الرشيق الطويل، وعينيها اللوزيتين الزرقاوين، وشعرها الأشقر المنثور على ظهرها، وشكل وجهها الذي يذكِّر بوجه غريتا غاربو أو ربما بوجه كارول لومبارد، تمزق الحلم القديم وغاب، فاحتلت، منذ تلك اللحظة، صورة هانا إهابي، ومركز تفكيري، وأفقي.

غدا مقصد استيهاماتي الجنسية هانا. وبقوة المخيّلة، مغمضاً عينيّ، كنت أُحضر هانا إلى فراشي، كلما عاشرت امرأة غير سمارة.. وحتى

سمارة التي فهمت معضلتي بحدسها العجيب لم تشفني من لعنة هانا إلا نصف شفاء.

أحببت سمارة، ولم يحررني حبها من ولهي بهانا.. ولا أظنني كنت أخدع نفسي بفحوى اكتشافي وهو أن بمقدور الرجل أن يهيم حباً بامرأتين في آن معاً.. لم أفرط قط بسمارة، وأكاد أجزم أن ما منعني في النهاية بالاتصال بهانا كان هاجس ألا أتسبب بجرح سمارة وإيذاء روحها، ليقيني بأنها لا تستحق أن تُجرح وتتألم.

خنتها مرات ومرات.. وحرصت ألا تعرف وألا تشك أبداً. وكنت أشعر بالأسف، وبتأنيب ضمير كلما انتهيت من علاقتي الشهوانية بإحداهن.. كان كل ما أردته من الأخريات هو الجنس، بلا متعلقات عاطفية من أيِّ نوع.. أن أستعيد مذاق جسد هانا ورائحتها مثلما خلّفته في حواسي، بين النباتات البرية على أطراف الحنينة، في تلك الظهيرة القائظة من أيلول بعيد. كان ذلك المذاق ملتصقاً بي، بذلك الجزء الحميم السرّي من ذاكرتي ونفسي، وكان شيطاني الذي تسلل منها عبر مساماتي وتلبّسني، ليمرِّغني أبداً بالخطيئة.

فاجأتني سمارة وكنا قد عبرنا عقدنا الرابع بالقول:

ـــ ألن تحدثني عنها أبداً؟.

ـــ من؟ عمن تتحدثين؟.

ـــ عن تلك التي أضعتها قبل أن تعثر عليّ.

بنبرة جافة عالية قلت:

ـــ لا أدري ماذا تقصدين.

كذبت.. وكانت تعرف أنني أكذب.. لم تقل شيئاً.. ضحكت.. اكتفت بضحكة صافية، لا شماتة فيها، ولا لوم.. كانت مطمئنة بأن تلك الغريمة التي في بالي صارت بعيدة منذ زمن طويل.. ولم تسألني ثانية عنها حتى يوم رحيلها.

هانا

ليست سوى نزوة.. سجلت رقم هاتفه وضغطت على الزر.. قلت: "أنا هانا، تستطيع المجيء اليوم عصراً.. نشرب الشاي ونتحدث عن أشياء تركها أبي". حماقة مني أن أقدِّم له مثل هذا العرض.. شعرت بسروره وهو يرد لاهثاً: "حسناً مسز ماير، سأكون عندك في الموعد".. ما هذا الذي يجري معي؟. لا أريده أن يستلم إشارة خاطئة فلست أعرفه جيداً.. لا أعرف عنه شيئاً على الإطلاق سوى ما أخبرني به.. خرجت إلى الحديقة.. الشمس واهنة.. كنست أوراق الخريف المتساقطة على الممرين المتقاطعين المرصوفين بالموزائيك ولملمتها.. ستأتي كمارا لتضعها في كيس قمامة، فهي مشغولة طوال

الوقت في تنظيف المترل والطبخ.. قلت لها: "ناديني هانا.. نحن صديقات".. لا تقدر.. أعلمتها أنني لا أحب وقع عبارة "مسز ماير" في أذني.. بعد جهد تحولت إلى مناداتي بـــ "مسز هانا". نقضي بعض الوقت نثرثر في أمور تافهة.. التفاهات، تلك هي الخلاصة.. تعشق فريق نادي تشيلسي لكرة القدم.. أناكدها مدعية بأن مانشتر يونايتد وليفربول أفضل.. نستغرق في سجال لا أول له ولا آخر.. كمارا تجعلني أضحك، هي مريحة خفيفة ظل.. تتحمّلني.. أما هذا الضخم ذو الوجه المورد والشعر الخفيف فقد اقتحم حياتي فجأة ليقول لي إنه كان مساعد أبي في موقع تنقيب الآثار في العراق.. وإذاً؟ يلمح إلى أنه ضاجعني هناك، في البرية تحت الشمس الحارّة، لما رحت لزيارة والديّ في العام 1966.. "وماذا تريد الآن؟". يقول إنه جاء لإلقاء التحية.. لطيف وماكر.. لا بأس أن أتحدث إليه ثانية.. سأفهمه من غير تجريح أنني لست بصدد تمتين علاقتي به.. لا أمتلك المزاج لصداقة مع رجل قدم من بلد لا أذكر موقعه المحدّد على الخريطة.. في الستينات عبثت كثيراً.. أردت أن أرتوي من ماء الحياة، ولست نادمة.. هذا الشرقي يظن أن مضاجعتي القديمة له وباحتمال أنها حصلت تركت أثراً في ذاكرتي ونفسي.. سخف.. هو لا يدري أي شيء، ومن أين له أن يدري، عن تلوث علاقتي مع سام في الهند حين ضبطته يعاشر فرنسية

صهباء في الفندق.. تقاطع خط قدري مع خط قدره مصادفة.. كان محظوظاً.. كان عليه أن ينسى.. يبدو أنه لم ينس.. عاش وهماً عريضاً منذ تلك الساعة.. أهدر وقتاً كثيراً للتفكير بي.. هذا ما يقوله.. لماذا يكذب، وهو بهذا العمر.. هذا الضخم.. ليس بديناً.. لابد من أنه كان بجسم مفتول جميل، وكنت غاضبة من سام، فاستدرجته.. لا أظن هو الذي بدأ بمراودتي.. أنا التي فعلت.. لا شك.. في ذلك الوقت كنت أنا من يختار، ومن يغوي، أما من يتحرش فكنت ألقنه درساً: " لست عاهرة مثل أمك" كنت أنهرهم.. رقص وصخب وسكر وعراك أحياناً، ومتع اعتقدت أنها لا تنفذ.. انتهى كل ذلك وسقط بأنين خافت لا بدويّ كما في القصيدة.. تأتيني كمارا بروب وتقول: "لبسي، ستصابين بالبرد.. هذا الفصل لا يؤتمن".. "تهيئي كمارا.. سيزورنا المستر رمزي لتناول شاي العصر".. تصفن: "من؟ ذلك العربي الأحمر؟ بضع خصلات طويلة من الشعر يغطي بها صلعته".. "يظهر أنك أمعنتِ النظر فيه جيداً".. "هو مثير للانتباه.. لكنه بلا إحساس.. كيف يأتي وأنتِ عاملته ببرود في المرّة السابقة". "أنا الذي طلبت منه أن يأتي". "ماذا؟ أنتِ؟".

جاء في الموعد، أنيقاً بذقن حليق، تفوح منه عطر كولونيا عذب.. يرتدي بدلة رصاصية غامقة، وقميصاً رصاصياً فاتحاً وربطة عنق مخططة بالرصاصي والأزرق..

"تفضل".

حمل كوب شايه الذي يتصاعد منه البخار وحملت كوبي.. قضم قليلاً من البسكويت ورشف من حافة الكوب.. حذر في سلوكه، ولا يخلو من بعض الخجل.. كنت أجلس قبالته.

"لم تعد تنقب".

"لا جدوى بعد الآن".

"أليس عملاً مملاً؟".

"أحياناً، الحلم بلقى.. أشياء نادرة.. تعرفين قصدي".

"أذكر هناك.. أبي يركب دراجته الهوائية السوداء".

"كانت زرقاء، ماركة فيليبس، هولندية".

"حتى في أحلامي كنت أراها سوداء".

"أحلمتِ بالحُنينة؟".

"حلمت بأبي مرات على دراجته، بقميصه النصف كم، وبنطاله القصير، ونظارته الشمسية".

أخذ قضمة أخرى من البسكويت، وشرب من كوب الشاي بالتذاذ.. قلت:

"وإذن كنت أخطر على بالكِ".

"كل يوم، بلا استثناء".

أربكته صراحته.. وضع الكوب على الطاولة.. أنا نفسي لست موقنة بأن ما نطق به كان أمراً حسناً أو أحمق. ارتسم على طرف فمه الذي يعلوه شارب خفيف شبح ابتسامة.. ابتسمت أنا الأخرى.. أظنه لمح في ابتسامتي خيط تهكم.. قال، وكأنه يريد أن يمضي بالأمر إلى مداه الأخير.

"لم يمر يوم من غير أن...".

وسكت، لم يجد الكلمة المناسبة.. وضعتُ كوبي على الطاولة.

"شيء جيد أن يبقى المرء ملتصقاً بذاكرة شخص آخر هذه المدة كلها، وهو ما يجب أن يشعرني بالرضا".

رفع رأسه وحدّق في السقف الواطئ العاري:

"أتساءل عن الجدوى؟".

نظر في وجهي وكأنه يرغم نفسه أن يكون جريئاً.

" كان التفكير والحلم يكفيان.. لم أبحث عن جدوى وراء ذلك".

"لم يخطر لك أن تتصل.. أن تركب الطائرة وتأتي".

"كنت أتخيّل الهوّة.. بصراحة مسز هانا..".

كان فمه مفتوحاً قليلاً وشفتاه الممتلئتان مبللتين.. أردف:

"لطالما خشيت الصدمة.. فضلت أن أحمي الأمل".

"الأمل حتى الرمق الأخير من غير أن تحرِّك أصبعاً".

"أدرك سلبيتي.. هذا ما حصل".

"ولكن لم يحصل شيء".

"ها نحن هنا".

"أنت مضحك مستر رمزي.. هل تدبرت أمور حياتك جيداً؟".

سألته بطريقة وكأنني غير مهتمة بإجابته مهما كانت".

"أظن،لاأدري..لست أتبجح".

ظللت صامتة، ساهمة، كأنني وحدي، وهو لا وجود له.. قلت، كما لو أنني أخاطب نفسي:

"الجدران بحاجة إلى إعادة طلاء".

"نعم".

"كوب شاي آخر".

"لا، شكراً".

قمت:

"سعيدة بلقائك".

قام.. بدا محتاراً.. زرر سترته.. ربما شعر بأن لا مسوِّغ لبقائه أكثر.. قال:

"ربما التقينا مرة أخرى".

"يسعدني".

منعه حياؤه من أن يسألني عن وعدي له بأن نحكي عن أشياء تركها أبي.. صعد سيارته وغادر.. لا ريب أنني في نظره الآن غريبة أطوار.



لندن خريف 2006

جلس على أستول عال واضعاً راحتيه على سطح خشب البار الصقيل.. رمقه العامل الواقف خلف البار بعينين زرقاوين باردتين، ولم يسأله عمّا يرغب بشربه.. كان العامل في الثلاثين، ذا جسمٍ رياضي متناسق.. شبهه رمزي بقميصه الأبيض وربطة عنقه القصيرة السوداء بواحد من راكبي الدراجات الذين يظهرون ثواني قليلة في مشهد من فيلم قديم بالأسود والأبيض.. لا يدري لم تخيل العامل راكباً دراجة هوائية في طريق ريفي ينحدر نحو وادٍ معشب عريض.. طلب كأساً من الويسكي مع قطعتي ثلج.. الرشفة الأولى كانت لاذعة.. أغمض عينيه على إثرها وتشنج ما حول فمه.. حدّق في صورة غير مؤطرة، ملصقة في وسط معرض المشروبات على الحائط..

الصورة لرجل وامرأة يحملان كأسين طافحين بالجعة.. ابتسامتهما تكشف عن أسنان منتظمة ناصعة البياض وكأنهما يعلنان عن معجون للأسنان لا عن مشروب كحولي.. رفع كأسه قبل الرشفة الثانية محيياً كائني الإعلان كما لو أنه يقول لهما: في صحتكما.. فوجئ بعامل البار يبتسم لحركته هذه.. قال:

"إنهما جميلان".

ملأ العامل قدحه ثانية حالما فرغ.. شعر أن هذا الشاب أكثر لطفاً مما اعتقد.. دبت فيه الموجة الأولى الرقيقة من الثمل.. التنمل الذي اجتاح صدغيه جعله يسترخي ويبتسم للعامل:

"أنت غريب.. أعرف دوماً معظم رواد البار.. للمرة الأولى أنت هنا".

"أسكن في الجوار منذ أشهر.. مصادفة عثرت على هذا البار".

بعد رشفة أخرى طويلة قال:

"أظنني سأكون واحداً من روادكم الدائمين".

"يسعدني هذا".

سبعة عشر يوماً انقضت منذ زيارته لمنزل هانا.. قال للعامل:

"من الصعب أن يكتشف المرء وهو في سن السادسة والستين أن الأمر كله كان وهماً".

"نعم".

"لن تعرف الآن.. أتمنى أن يكون رهان حياتك شيئاً مختلفاً.. أمامك وقت طويل".

"أنت من باكستان".

"أوه، لا أدري لم يظنوني من باكستان غالباً.. لست أسمر البشرة إلى هذا الحد".

ضحكا معاً..

"إنكليزيتك جيدة".

درست في أكسفورد أربعة أعوام.. كان هذا قبل أن تولد أنت.. هناك طبيعة عملي أيضاً".

"وما هو عملك؟".

"كنت بروفيسوراً في الجامعة، ومنقب آثار".

ذهب العامل ليخدم زبوناً آخر.. امرأة في الأربعين، جلست على مبعدة ثلاثة استولات منه، مكتنزة، بشعر قصير مصبوغ بلون بني غامق، في شحمة أذنها الظاهرة له قرط ماسي. عاد يحدِّق بوجهيّ الثنائي حامليّ كأسيّ الجعة في صورة معرض البار.و لم يتنبه إلا والعامل يعود إليه ويقول:

"بعد ساعة سيغص المكان بالرواد، ولن يكون لديّ وقت للثرثرة".

قال ومن غير أن يشيح بنظره عن المرأة في الصورة.

"نعم، لكان العالم أسوأ لو لم تكن لدينا القدرة على الثرثرة.. أنت محظوظ لأنك تجد أشخاصاً يصغون إليك".

"نعم.. أنت على حق".

"تعجبني النساء اللواتي تبرز غمازاهن حين يضحكن".

"آه".

"الغمازة هبة إلهية".

عادت هانا لتستحوذ على تفكيره.. هانا بصورة أخرى، ليست تلك القديمة التي احتفظ بها من أيام الحُنينة القديمة، وليست صورتها الآن، كما استقبلته وهي تتناوش عتبة الشيخوخة.. صورة تتشكل على جدار ضبابي رجراج، من العسير الإمساك بقسماتها.. غمره شعور بأسى صاف، ومن ثم بالخفة.. وخطر له إنه ربما بات يتحرر من عبئه الذي أثقله طويلاً.. وعجب كيف أن الدراسة والثقافة وقدرات الذهن لا تعين مع أوهام العاطفة.. أكان ذلك حباً؟. انتهى من كأسه الثالثة.. عتبة السكر.. قال للعامل:

"الحياة مرعبة لولا الأوهام التي تنقذنا".

"لا أدري.. تتكلم كفيلسوف".

"لا.. ليست فلسفة.. قد تكون كذلك.. ولكن اسمع.. الأفضل أن تأخذ وهمك معك إلى القبر".

ضحك العامل.. بدا وكأنه لا يفهم ما يقول هذا الغريب.. إنه لا يختلف كثيراً عن مأزومين آخرين يجعلهم السكر يهذرون كاشفين أسرارهم الشخصية.. حمل قنينة الويسكي ليملأ القدح للمرة الرابعة.. رفض الغريب الذي سيعرف في المرة القادمة أن اسمه المستر رمزي بإيماءة من إبهامه.. دفع الحساب وخرج.

قرر أن يمشي المسافة إلى شقته، مستبعداً احتمال أن يضل الطريق.. عبر عدة شوارع.. وتنبه إلى أن ما حوله غير مألوف.. لم يمر من هنا من قبل.. اضطر أن يسأل امرأة جالسة على مقعد تحت مظلة موقف باص.. أرشدته بصوت مبحوح.. خمن أنها تعاني من التهاب في الحنجرة أو اللوزتين، وعرف أنه يسير في الاتجاه المعاكس.. كان عليه في هذه الحالة أن يوقف سيارة تاكسي.

في الشقة ندم لأنه لم يبحث عن مطعم ليتناول غداءه المتأخر.. رحاب ما تزال في المستشفى.. أما نزار ومثلما أخبره فأكل، قبل ساعة، سلطة بالخضار ونقانق باردة.. فتح الثلاجة.. وجد قطعة دجاج التهمها من غير أن يسخنها بالأوفن، ولم يشبع.

حين تمدد على سريره وأغمض عينيه آملاً أن ينام قليلاً رنَّ هاتفه النقال.. الرقم الذي ظهر على الشاشة لم يكن معرّفاً لديه.. فتح الخط وقال: "الو.. من المتكلم".. كانت هانا في الطرف الآخر.

في ضحى اليوم التالي، وكي لا يتأخر عن موعده، لم يعد إلى شقته ليجلب مظلته.. كانت السماء مكفهرة ومطر خفيف يهمي.. لم يستمع إلى نشرة الأنواء، ولم ينظر من النافذة.. استحم بعد الفطور، وحلق ذقنه ورطبه بـــ (AFTER SHAVE GEL) علامة (BLUE DE CHANEL)، وتعطر.



لندن
خريف 2005
اللقاء الثاني

ـــ تريد القول إن المصادفة وحدها أوصلتك إليّ.

ـــ القدر.

ـــ تؤمن بالقدر.

ـــ ما نلقاه في الحياة يرغمنا على الإيمان به.

ـــ وبعد؟

ـــ ماذا بعد؟

ـــ التقينا ثانية، وبعد؟

ـــ لا أدري.. لم لا نترك كل شيء يمضي من تلقاء نفسه.

ـــ تقصد أن نتركه للقدر.

يضحك

ـــ لم لا؟

ـــ ما الذي يجعلك تفترض أنني سأجاري نزوتك.

ـــ لا أفترض شيئاً.. ثم من قال إنها نزوة.

ـــ وماذا تسمّيها؟

ـــ اسمّي ماذا؟

ـــ هذا كلّه.. مجيئك وبحثك عنّي.

ـــ لا أعرف.. تركت ماضيِّ خلفي، هناك.

ـــ وما أدراك بأني سأكون جزءاً من مستقبلك.

ـــ لا يعنيني المستقبل.. لم يتبق لي الكثير.. أفكر بالآن، بهذه اللحظة.

ـــ تزجية وقت.

ـــ انظري.. أشعر بالراحة، بشيء من الاكتفاء وأنا معكِ.. لا أرغب أن أكون، الساعة، في أي مكان آخر، أو مع أيِّ أحد آخر..

ـــ هكذا إذاً، وبصراحة.. يا لك من مكّار.

ـــ إن كنت أثقل عليكِ، أو أبعث في نفسكِ الملل فاخبريني، وسأغادر، ولن تسمعي عني شيئاً بعد اليوم.

ـــ أترغب بالشاي؟.

ـــ رجاءً، ومن غير سكّر.

ـــ شاي ثقيل.

ـــ إن أمكن.

ـــ الحياة غريبة.. لو أمعنا التفكير فيها سنجدها أكثر غرابة مما نظن.

ومشت نحو مطبخها من غير أن تنتظر سماع إجابته.. و لم يكن في باله، في أية حال، فكرة محدّدة تستحق أن يعلّق بها على ما قالت... هرش شعره، وتناول كتاباً كان ملقى على الطاولة الجانبية.. رواية (أمستردام) لإيان ماك إيوان وكانت قد وضعت ورقة كارتون زرقاء بين الصفحتين 118 و 119 منها.. قرأ تصدير الكتاب.. بيتان للشاعر W. H. Auden.

(الصديقان اللذان التقيا هنا وتعانقا ورحلا،

كل واحد إلى غلطته)

أعاد الكتاب إلى موضعه حين أقبلت هانا بصينية الشاي والبسكويت.

ـــ أترانا عدنا كلٌّ من غلطته لنلتقي بعد هذه السنين كلها؟.

ـــ ماذا؟

أخذ كوبه.. ووضعت هي الصينية على المنضدة أمامه وحملت كوبها وجلست على الطرف الآخر من الأريكة التي يجلس عليها.

ـــ أتكلم عن الصديقين اللذين التقيا هنا.

ـــ آه.. تطفلت على ما أقرأ..

وأطلقت ضحكة رنانة.. ضحك هو الآخر.. قالت:

ـــ أفضل الناس هم من يعتقدون أن حياقم كانت غلطة.

ـــ ولماذا يكونون هم الأفضل.

ـــ القانعون بليدون وحمقى.

ـــ ربما.. أكيد.. نعم.

ـــ فكّرت ذات مرّة أن أؤلف كتاباً.

ـــ لم يفت الأوان بعد.

ـــ خذ بعض البسكويت.. دايت.. أنا مثلك.. لم أعد في الثلاثين.

ـــ ليس بالمقدور في هذه السن أن نكون رياضيين ونحلم بتحطيم رقم قياسي، لكن بمقدورنا أن نباشر بكتابة كتاب.

ـــ لست أمتلك الهمّة.. حاولت أكثر من مرّة وفشلت.

ـــ قد أفيدكِ بخبرتي المتواضعة.

ـــ تعمل على أن لا يكون هذا لقاءنا الأخير.

ـــ نعم.

ابتسمت

ـــ بعد عشرين دقيقة موعد القطار إلى لندن.

ـــ عليّ أن ألحق به.

قام ماداً يده ليصافحها.. لم تمد يدها.

ـــ سأرافقك.

في المحطة عانقته قبل أن يصعد القطار.



رمزي
ربيع 1966

لم يزل التوتر عن سحنة جاكلين ونحن نرتقي أول التلال القريبة.. كان وقت ما بعد الظهيرة سخياً بالسحب البيض والعشب والكمأ.. بان الانشراح على وجه ديفيد وهو يعاين التورمات الترابية على السفح، وصاح: "انظروا".. أخرج سكينته ذات المقبض العاجي وقرفص ليحفر حول قبة صغيرة برزت كبطن امرأة حامل.. انتزع ثمرة الكمأ البنية وأزال عنها الرمل بأصابعه قبل أن يضعها في سلّة الخوص التي تحملها أمينة.. حثنا على مجاراته في التقاط حبات الكمأ.. وهي تنحني وتغرز سكينها في بطن ترابي أخبرتني جاكلين أن الحبكة في

روايتها تستعصي عليها. وصلت نقطة حرجة ولا تستطيع معالجتها.. المشكلة التي تعانيها في الكتابة تتركها ثائرة الأعصاب.. قالت إن ما يعوقها ليس الأسلوب وإنما مسار الحدث..

ـــ فكّرت أن أسافر.. ربما ساعدني السفر وحللت العقدة.

ـــ إلى لندن؟.

ـــ إلى بغداد.. رحلة بالقطارلأسبوع، وسترافقني.

ـــ تعرفين لدينا عمل كثير هنا، والمستر ديفيد لن يسمح لي.

ـــ سأقنعه.. لديّ وسائلي.

وضحكتْ بخفوت.. لم أدرِ ما عليّ قوله..

ـــ لن أقيّدكَ هناك.. ستكون فرصة لتروِّح عن نفسك.. منذ متى لم تأخذ إجازة؟.

ـــ مذ غادرت مس هانا.

ـــ أتفكر كثيراً بهانا؟.

صعقني سؤالها.. ماذا يمكن أن تكون تعرف عن تفكيري الهوسي بهانا؟.. هززت رأسي إشارةَ استفسار عمّا تقصد..

ـــ لستُ غبية.. مذ سافرت وأنت لا تكف عن السؤال عنها.. ثم هذا الشحوب على وجهك الذي اكتسبته مؤخراً... وشرودك الدائم.

ـــ أنا.. لا...

انهمكت في تنظيف حبة كمأ، بدت مثل حيوان السلطعون، من ذرات الرمل.. وجدتني مضطرباً وتمنيت ألا تضيف شيئاً آخر بخصوص هانا، لكنها وهي تستقيم واضعة يدها على ردفها قالت:

ــ لا أرى جدوى من الأمر.. لو كنت مكانك لحاولت النسيان.

فرّكت جبيني بطرف سبابتي من غير أن أعلّق.. بدت أمينة وهي تحدجني بإشفاق وكأنها تفهم ما نتحدث عنه.. وضعت حبة كمأ أخرى في سلتها، وخطوتُ مبتعداً قليلاً متهرباً من هذا الموقف.. اقتربت مني جاكلين وجلست لتُخرج حبة كمأ كبيرة خلف مستعمرة من زهور شقائق النعمان.. قالت، ومن غير أن ترفع نظرها نحوي.

ــ أعرف أنه كان شتاءً موحشاً عليك.. أي هراء كنت تكتب على تلك الأوراق قبل أن تمزقها.

ــ يوميات، لكني لا أجيد الكتابة الأدبية.

ــ لستُ معترضة.. بالعكس.. أفضلك على ذلك الأحمق، لكنكما من مزاجين مختلفين.. لن ينجح الأمر أبداً.

ــ ما الذي لن ينجح؟

سأل المستر ديفيد، وقد صار وراءنا من غير أن نفطن، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة.

ـــ أشياء بيني وبين السيد رمزي.. تحدّثنا عن الرواية التي أكتبها.. عن مشهد عالق في الرواية.

قلت:

ـــ الحياة في النهاية بضع روايات سخيفة علقنا فيها مرغمين.

ـــ وضعك لا يعجبني منذ بعض الوقت.

ـــ ألم تلاحظ أنه واقع في الحب؟.

ـــ يكونُ أحبّ مَنْ في هذه الصحراء بحق الشيطان؟.

قالت جاكلين:

ـــ لسنا في صحراء.. ولسنا معزولين عن العالم.

رجوت الله ألا تحكي عن هانا، و لم تفعل.

ـــ الحب شيء بغيض يقصِّر العمر.. اذهب إلى هدفك مباشرة.. احسم المسألة ولا تضيع وقتك.

لم أدرك مغزى ما قال المستر ديفيد.. أتراه يعلم هو الآخر؟.

حين صعد المستر ديفيد إلى قمة التل بخطوات واسعة، ووقف ثمة فاتحاً ذراعية وصائحاً على طريقة رعاة البقر كما يظهرون في أفلام الويسترن الأميركية، همست جاكلين:

ـــ لا يعرف شيئاً.. الليلة في لحظة خبل سأدعه يوافق على سفرنا معاً.. وفي بغداد سنتكلم.

بعد أسبوع

نمت مبكراً.. أيقظني جرس ساعة المنضدة في الثالثة إلا ربعاً.. دخلت الحمام.. تبولت وغسلت وجهي مقاوماً النعاس.. خلعت بيجامتي وارتديت بنطالاً أبيض وقميصاً رمادياً وبلوزة سوداء.. ما زلنا في الربيع، والليالي باردة.. مشطت شعري وعطرت يدي ورقبتي برذاذ زجاجة English Fern التي حملها لي مستر ديفيد هدية حين عودته من سفرته الأخيرة قبل شهر إلى لندن.. نظرت من النافذة.. كانت نافذة غرفة ديفيد وجاكلين في الطرف الآخر مضاءة.. عدت إلى حقيبتي لأرى ما الذي ينقصها.. دائماً أنسى شيئاً.. في المرة الأخيرة فوجئت في الفندق بأني لم أجلب معي أدوات الحلاقة فاضطررت إلى شراء طقم كامل منها، من محل في شارع الرشيد.. لمحت كراسة يومياتي على المنضدة فدسستها في الجيب الإضافي للحقيبة.. عليّ أن أقتني زجاجة حبر أسود هناك.. تأكدت من أن قلم الحبر علامة باركر 21 في جيب قميصي.. تحسست في جيب بنطالي محفظتي التي تحوي بطاقة هويتي ونقودي.. ارتديت ساعتي الأولما السويسرية بسيرها المعدني المذهب.. آه.. أظنني أملك الوقت لصبغ حذائي الأسود علامة

باتا.. كان يجب أن أنهي كل شيء قبل أن أنام.. كنت أضع حذائي في قدمي حين دق المستر ديفيد الباب.

في سيارة الفولكس واكن السمائية اللون لم نتبادل تقريباً أي حديث.. فقط قالت المسز جاكلين بأن علي تذكيرها بشراء حزمة ورق مخطط قبل الوصول إلى الفندق.. كنت أشك بإمكانية وجود محل قرطاسية يفتح أبوابه في ساعة مبكرة من الصباح.. غير أني لم أخبرها بهذا..

لم ينتظر المستر ديفيد معنا وصول القطار.. عليه أن ينام ساعتين أخريين قبل البدء بالعمل.. غادر بعدما نزلنا أنا وجاكلين مع حقيبتينا.. كانت حقيبة جاكلين القهوائية كبيرة ومضلعة شالها حمّال كهل .. قطعنا التذاكر ودخلنا قاعة الانتظار وجلسنا.. لم يكن هناك سوى عامل محطة عجوز ببدلته الزرقاء يلف سيجارة.. لحق بنا شاب يضع على رأسه صينية معجنات.. أشتريت منه قطعتين غير أن المسز جاكلين، بداعي وسواسيّ الجراثيم والريجيم، لم ترض تناول واحدة منهما لما قدمتها لها. فأكلتُ الاثنتين بنهم.

تأخر القطار خمساً وعشرين دقيقة، على عكس توقعي بأنه ربما يتأخر ساعة كاملة.. جلسنا في الفيرست كلاس بعدما أعطت المسز جاكلين الحمّال الكهل، الذي وضع الحقيبتين على رف الأمتعة فوقنا، مائة

فلس، ثم أغمضت عينيها علّها تغفو قليلاً.. أمضيت الطريق في نوم متقطع.. كان النهار مشرقاً بصفاء لّما وصلنا محطة غربي بغداد، في الثامنة والربع.

في يومنا الأول في الفندق لم تتطرق المسز جاكلين لما تظنّه عن غرامي من طرف واحد بهانا.. شاهدت فيلماً في سينما الخيام لجون واين وشربت أربع زجاجات بيرة (فريدة) في بار بشارع أبي نؤاس. وكنت شبه سكران لّما التقيت بمسز جاكلين في الساعة الحادية عشرة ليلاً في صالة الفندق.. كانت جالسة تقرأ في كتاب عن فن الرواية البوليسية.. حين لمحتني أشارت بيدها طالبةً أن أجلس إلى جانبها..

ــ مساء الخير مسز جاكلين.

ــ مساء الخير.

ثم رمت الكتاب بغيظ على المنضدة الصغيرة أمامها.

ــ هذه القمامة لا تفيد بشيء.. لو كان يعرف كيف تُكتب الرواية لكتبها بدلاً من هذا الهراء.

ــ أنتِ على حق.

ــ لماذا تفرط بالشرب.

ــ هي أربع زجاجات بيرة فقط.

ــ يا للخيبة.. كان يجب أن تشرب دزينة كاملة من الزجاجات.

سخريتها أضحكتني.. لم تضحك هي:

ـــ لابد من أن أجد حلاً معقولاً.

ـــ ابدأي القصة من طريق آخر.

ـــ ماذا؟ أيّ حمق هذا؟ أتريدني أن ألقي ستة أشهر من العمل في سلة المهملات؟.

ـــ تولستوي كتب الحرب والسلام في ثماني سنين؟

ـــ أندريه موروا الفرنسي يكتب الرواية في أحد عشر يوماً.

ـــ ألديكِ حل آخر؟.

قامت وقالت إنها صاعدة إلى غرفتها، تاركة إياي مع كتابها.. افترضت أنها لا تريد الكتاب فتركته أنا الآخر وتبعتها.. وفي غرفتي فطنت إلى أنني جائع ولم أتناول وجبة عشائي.. لم تكن لديّ الهمّة للخروج ثانية.. خلعت ملابسي وانزلقت عارياً تحت اللحاف الأبيض.



رمزي
خريف 2005

أخذت القطار الصاعد شمالاً.. على عكس الاتجاه إلى هانا.. قطعت تذكرة إلى مانشستر وليس لي شغلٌ هناك.. أنا بصدد التضاد مع دوافعي.. أن أبتعد عنها كي أوازن داخلي، كي لا يحصل اضطراب في أعصابي لم أستعد له.. جلست إلى النافذة وقبالتي فتاة في الخامسة والعشرين.. لعلها في الثلاثين أو أكبر قليلاً.. ضللتني ملامحها الدقيقة ووجنتاها الورديتان والبريق السماوي في عينيها، فلم أفلح في التكهن بعمرها.. كانت تكتب في جهاز الموبايل بسرعة.. منغمسة في حديث مسلٍ ولذيذ، أستطيع الرهان أنه مع رجل يعرف كيف يعزف على

أوتارها السرية.. تضيّق ما بين أجفانها.. تفتح فمها دهشة.. تعض شفتها السفلى الممتلئة وتتركها بلون الأجاص.. تضحك من غير صوت.. لا تأبه لي.. لنظرتي التي تتزلق على وجهها مثل ضوء عابر.. لست موجوداً في خاطرها.. هي الآن خارج العالم.. غير أن العالم يتحرك من جهتي عبر نافذة العربة.. أشجار وبيوت ومركبات وجسور وبناية كبيرة بلون الرماد على هضبة وإعلانات ضوئية كابية.. أسمع أحدهم يسعل.. أسمع همسات امرأتين ورائي.. ويرن الهاتف النقال لأحدهم.. فيما اهتزاز القطار المريح يمنحني استرخاءً عذباً.. أغمض عينيّ لأدع الفتاة وحدها، لا تعكر متعتها نظرتي الفضولية، فتقفز هانا إلى مجال رؤيتي..

أبصر هانا تخطو نحو مطبخها.. تسخِّن قارورة القهوة ومن ثم تملأ كوبها.. تشغل جهاز الراديو الموضوع على رف بجانب خزانة الصحون.. تنهمر الموسيقى كرذاذ منعش.. تجلس إلى مائدة الطعام.. تبدأ بقضم واحدة من فطائر الجبن التي أعدتها أمس.. تترك الرشفة الأولى من قهوتها بقعة رطبة صغيرة على طرف فمها.. ولأن لا فكرة يمكن أن تثيرها الآن أخطرُ أنا على بالها.. أطفر من ثلمةٍ في رأسها فتستوي صورتي إزاءها.. تحدِّق في فنجان القهوة، وتكتسي سحنتها

بابتسامة سرعان ما تنطفئ.. لست متأكداً في ما إذا كانت تلك ابتسامة تهكم أو لا أبالية أو ارتياح..

أعاود فتح عينيّ فتلتقي نظرتي بنظرة الفتاة التي تشيحها نحو شاشة هاتفها. ولن أعرف إن كانت تعتقد بأني أراقبها، أو أعاين أنوثتها بقصدٍ سيئ، أو ببساطة؛ هي لا تهتم. وأفكر أن أرجع إلى مطبخ منزل هانا ذي الطراز الفكتوري بورق جدرانه الضاج بالزهور، وأثاثه من الخشب المزخرف الأدكن.

ما تزال موسيقى البيانو تنساب في سيل هادئ رقراق.. وتتنهد هانا وهي تأتي على آخر رشفة من قهوتها.. تنظر في قعر الكوب كأنها وجدت هناك شيئاً خاطئاً.. تدق الحلقة البارزة من أسفل الكوب على خشب المنضدة العريضة، وتقوم..

الفتاة تحدِّق بي كأنها على وشك أن تسألني عن أمرٍ هام.. أحرك رأسي كأني أقول: ماذا؟ أحثها بابتسامة خفيفة، تاركاً هانا في وقفتها الحائرة في وسط مطبخها.

ــ هل التقينا من قبل؟

ــ لا أظن..

ــ في جمعية الوردة البنفسجية لحماية البيئة.

ــ لا، حتى أنني لم أسمع باسمها.

ـــ في جامعة لندن؟.

ـــ ربما في المحطة، في القطار.

ـــ أتستقل هذا القطار دوماً؟.

ـــ نحو الجنوب.. للمرة الأولى أذهب شمالاً.

ـــ التقينا في مكان ما.

ـــ ما الذي يجعلكِ متأكدة؟.

ـــ كأنك مررت في حلمي.

ـــ حلمك؟!.

ـــ حلم غريب تكرر معي ألف مرة.

ـــ وهل أحضر دوماً في حلمكِ الغريب.

ـــ لا.. ربما مرة أو مرتين.

ـــ أرجو ألا يكون دوري سيئاً فيه.

ـــ بصراحة، لا أدري.. هناك واحد في كل مرة يطلب مني عنواناً لم أسمع به.. فأشعر بالخوف.. اسم جسر، أو شيء من هذا القبيل.

ـــ للجسر تفسيرات كثيرة عندنا. فقد يدل على الوصول إلى المبتغى، أو الزواج، أو الخروج من محنة.

ـــ هكذا.. لكن اسم الجسر غير مألوف.. لم أستطع تذكره قط كلما استيقظت، وهذا يكدرني.

ـــ ربما عليكِ التركيز في المرة القادمة لتتذكريه.. وقد تعرفين معناه وهذا سيغير مزاجكِ.

ـــ هل أنت طبيب؟.

ـــ أنا متخصص بالآثار.

ـــ في بالك امرأة.

ـــ ماذا؟

ـــ أعذرني.. كنت أنظر إليك بين الوقت والآخر.. بدوت كمن يكلم نفسه.

ـــ ولماذا اعتقدتِ أن في بالي امرأة وليس أي أمر آخر.

ـــ هكذا.. لا أدري.. هذا ما خطر لي.. ملامحك تشي بأنك عاشق مثالي.

ـــ هل أنتِ طبية نفسية؟

ضحكت.. رنين ضحكتها

ـــ لا. لا. أنا آن. مديرة خدم في فندق ريجينسي.

ـــ أنا أيضاً كنت أراقبكِ.. خمنت أنك كنت تكلمين رجلاً.

ـــ كنت أكلم صديقة لم ألتقِ بها مذ تخرجت في الجامعة.

ـــ كنتِ منشرحة.

ـــ ولماذا تعتقد أن الرجال وحدهم يجعلون المرأة منشرحة؟. غالباً ما يحصل العكس.

أنزل في محطة على الطريق.. ليس يعنيني اسمها.. أبحث عمّا يخرق رتابة ساعاتي.. أرومُ مغامرة متأخرة بلا إثارة كبيرة.. أمشي على رصيف مظلل بأشجار الحور.. على مسافة مئتي متر أصادف مقهى، أدخله.. لا رواد غيري.. أجلس إلى البار وأطلب فنجان قهوة اسبريسو من غير سكّر.. النادلة تغتصب نفسها على ابتسامة فاترة.. أهز رأسي امتناناً.. لا رغبة لأي منّا بالكلام.. تضع الفنجان أمامي.. أسألها إن كان بإمكاني التدخين.. تحرِّك فمها وحنكها بطريقة توحي لي بأنها لا تبالي.. بيد أنني لا أدخن.. أشرب قهوتي على مهل وأحدِّق في صورة مستنسخة للوحة انطباعية على الجدار.. لعلها لماتيس.. أتنبه إلى موسيقى كمان هادئة.. شوبان أم موزارت؟. موزارت.. لستُ متأكداً في ما إذا كانت تُعزف قبل دخولي، أو أطلقتها النادلة الآن من جهاز ما.. أُفاجأ بامرأة في الأربعين تتخذ مجلسها إلى البار على مبعدة كرسيين منّي.. تطلب كأس روم، وتخبر النادلة بأن الأمر لم ينجح.. "أووه، أنا آسفة".. "لا عليكِ.. لم يعجبني.. تكتشفينهم من أول خمس دقائق".. "أنتِ على حق.. لا تشربي بسرعة".. "فقط الكأس الأولى".. تنشغل النادلة بترتيب أشياء في الجزء الخفي من البار.. تقول

المرأة الأربعينية: "ربما سافرتُ إلى ويلز".. "لفرصة عمل؟".. "شيء من هذا القبيل.. كأس أخرى".. أنا أيضاً أطلب كأس روم.. لا يبدو أن وجودي يضايقهما.. أسأل النادلة إن كانوا يقدمون نقانق مشوية مع قليل من الخضار.. تقول: "لا، آسفة.. لدينا بطاطس مهروسة، ولحم بقر مقدد ولازانيا".. أطلبُ بطاطس مهروسة مع سلطة.. تقول: "ربع ساعة ويكون طبقك جاهزاً".. "لا بأس.. لست مستعجلاً".. أرتشف من كأسي.. تخرج المرأة ألأربعينية علبة سجائر Winston وتطلب ولاعة من النادلة.. تشعل سيجارتها.. أشعل أنا الآخر سيجارة.. أخشى أن تظن بأنني أتحرّش بها بطريقة مواربة. طلبتُ روماً بعدما طلبتْ هي، وشرعت بالتدخين بعدما دخّنتْ.. حين جاء الطعام أشارت للنادلة أن تملأ كأسها مرّة أخرى.. "قلت لكِ".. "اليوم فقط.. لست مدمنة".. "ستثملين".. "لا تخافي، لن أعض أحداً". أضحك فتضحك.. تبقى النادلة على وجومها.

"أنت لست من هنا".

"أنا من العراق".

"أوه.. من العراق.. نعم، هارب من الحرب؟".

"هرّبوني غصباً.. أقصد أولادي".

" لم أر بلادكم.. زرت أسطنبول قبل سنوات".

"لم تخرجي من أوروبا حتى".

لم تعقب على ملاحظتي.. أشارت للنادلة كي تعطيها كأساً رابعة

"أرجوكِ".

"لا تبالي بشأني.. أعرف متى سأتوقف".

"عليكِ التوقف الآن".

"سأخرج إذن".

"خذي مظلتي.. بدأت تمطر".

"لا بأس، شكراً"

تلتقط المرأة الأربعينية المظلة وتغادر بعد أن تحييني.. وفي لحظة أُلاحظ الشبه بينها وبين النادلة.. أقول:

"أهي أختكِ؟".

تخزرني بنظرة كما لو أنها على وشك أن تقول لي: "كم أنت فضولي"، لكنها تهز رأسها على نحوٍ لا أفهم منه ما تقصد، ولا ألح في السؤال.. كأس الروم والبطاطس المهروسة تبعثان الدفء في جسمي.. كأس الروم الثانية تمنحني صفاء ذهن ونشوة.. أفكر بأنني سأتبلل إذا ما خرجت الآن إلى المحطة.. أقرر ألا أخرج فلعل المطر سيكف مع هبوط الليل.. وحتى ذلك الوقت سأخرج ثملاً، منتشياً.. تقول النادلة:

"اعذر فظاظتي.. هذه المرأة تسبب لي الجنون".

"لا بأس.. أرى كم يهمكِ أمرها".

"لم يترك لنا أبي سوى الديون".

"وأمكِ؟".

"عافتنا من أجل رجل قبل سنين طويلة.. أظنها ما تزال في ويلز".



الحُنينة
صيف 1968

جلست المسز جاكلين في ظل غرفتها الطينية، تلك التي اتخذتها مكتباً.. هنا في مهب تيار الهواء يمكنها أن تتحاشى حرارة الشمس وإزعاج الذباب.. استدرت بسيارة الفولكس واكن الخاص بزوجها متجهاً نحوها.. كان ضوء النهار كافياً لتقرأ آخر روايات أغاثا كريستي من غير نظارتها الطبية.. توحي هيئتها بقميصها المورد القصير الكمين، وسروالها الزيتوني العريض من الكتّان، وشعرها الأصفر المعقوص، بانطباع أنها أصغر من سنها الحقيقية بعشر سنين..

تكتب المسز ماير في غرفتها بدءاً من السادسة صباحاً، وفي التاسعة تتناول فطورها وحدها إذ يكون المستر ديفيد في موقع العمل، وهي تستمع إلى الموسيقى.. تدخن سيجارة وتنغمس بالقراءة في الهواء الطلق إن كان الطقس طيباً، أو في صالة منزلها في الأيام القائظة والممطرة. وحتى الواحدة بعد الظهر تكون قد دخنت بضع سجائر وشربت ثلاثة فناجين من القهوة. تتناول غذاءً خفيفاً في الثانية وتنام القيلولة ساعة أو نصف ساعة. وقبل الغروب تتمشى في البرية صحبة زوجها أو بصحبتي أو نكون نحن الثلاثة معاً حتى هبوط الظلام، وتكتفي بوجبة العشاء بحبة فاكهة لتحافظ على رشاقتها.. تقرأ لساعتين في الفراش وتتابع الأخبار من محطة الـــ BBC قبل أن يبدأ زوجها بمداعبتها إن لم يكن متعباً جداً فيمارسان الحب على إيقاع موسيقى موزارت ويخلدان إلى النوم متعانقين.

لم تعلمني هي بالفقرة الحميمة هذه من برنامجها اليومي بل زوجها ونحن نحتسي البيرة، ذات مرة.. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة حين قال ضاحكاً: "أستأذنك رمزي.. جاكلين تنتظرني.. للزواج ضريبته..".

أوقفتُ السيارة على مقربة منها ونزلت:

"المعذرة مسز ماير، جئت من أجل السجل الأخضر.. يقول المستر ديفيد أنه نسيه على الكوميدينو في غرفة النوم".

"كم مرة عليّ أن أقول لك نادني جاكلين.. نعيمة في البيت، اذهب وخذه من هناك".

"أتحتاجين أي شيء؟".

"شكرا عزيزي رمزي.. بالمناسبة، قلت لهانا في آخر رسالة إنك تسأل عنها".

أظنني تلعثمت وأنا أقول: "شكرا.. نعم، كيف حالها؟".

هزت رأسها بتعابير حيادية وكأنها تقول؛ هي بخير.. لست على يقين إن كان حدسها يعلمها أنني مهتم بشأن هانا؛ تشغل عقلي، وتقتحم عوالم خيالاتي وأحلامي في كل يوم وكل ليلة.

"لابد من أنها تتذكرك جيداً.. أنت من أوصلها إلى بغداد وودّعها في المطار".

"مرّت سنة وأكثر.. ربما بهتت صورتي في ذهنها".

"هذا يبقى على الأثر الذي تركته فيها.. هناك من يحفرون في أعماقنا حتى وإن قابلناهم لساعة، وهناك من نعاشرهم سنوات طويلة، ثم ننساهم لحظة يغيبون عن نواظرنا".

ما الذي يجعلها تقول لي مثل هذا الكلام لاسيما أنني لم أسألها عن هانا قط.. مرّة واحدة ربما حين ذكر أحدهم شيئاً عن دراجة المستر ديفيد الهوائية فحكيت كيف أن هانا ركبتها وتاهت في مكان ما عند التلال.. آه، في مرّة أخرى وكنا أنا والمستر ديفيد نتناول قيمر العرب في وجبة الفطور حكيت عن سؤال هانا في عربة القطار عن الجواميس العائمة في مستنقعات ضواحي بغداد، ولم تكن جاكلين معنا.. ولا أستبعد أن يكون المستر ديفيد أعاد الحكاية على مسامعها.. اللعنة، هناك مرة ثالثة، لما سهوت وأنا أكلم المسز جاكلين فناديتها هانا.. كان ذلك بعد سفر هانا بأسبوع.. يبدو أنني فضحت نفسي كفاية.. ألاحظ المستر ديفيد أياً من العلامات الدالة على تولهي بابنته؟. أتحدثتْ معه زوجه عن هذا؟. وما الذي قالاه لبعضهما بهذا الصدد.. أرجأت إكمال دراستي للماجستير كي أبقى بالقرب منهما.. وجودي هنا، وأنا أراهما وأثرثر معهما يصلني بهانا روحياً هناك.. هانا التي عافت سام لسبب لم أتبينه ربما تتسكع مع آخر في شوارع حي سوهو الآن وترتاد مقاهيه وتدخن الحشيشة، أو تسكر.. أتخيلها ترقص في دوامة من الدخان وهي شبه غائبة الوعي على أنغام الجاز التي تعشق..

كنا نعرف، أنا والمستر ديفيد، أن جاكلين لا تتفوق على أجاثا كريستي إلا في شيء واحد؛ جمال وجهها وجسمها.. أنا لم أفصح لها

عن انطباعي هذا بطبيعة الحال، لكن ديفيد قال لها، وكنت حاضراً، شيئاً من هذا القبيل في موقف مزاح لم يُعجب جاكلين فقلبت شفتيها استياءً وردّت بغلاظة: "يوماً ما ستدرك بأني، في مجال الأدب، أكثر قيمة مما تظن".. ولا أعتقد أن رأي ديفيد بها تغيّر، حتى بعد إنجازها لثلاث روايات أو أربع بعد ذلك، نُشرت في لندن، وحققت إحداها مبيعات لا بأس بها، وحصلت على بضع عروض ومقالات تقريظ في صحف الدرجة الثانية. وأخبرتني هانا أن هذه الرواية الأخيرة وكانت بعنوان (جريمة في قطار الضواحي) قد ترجمت إلى الإسبانية وربما ستترجم قريباً إلى الفرنسية أيضاً.

في السنتين اللتين عاشت معنا في الحنينة كانت جاكلين تقترب من الخمسين.. بشرتها وردية صافية، بلا تغضنات إلا قليلاً تحت عينيها اللوزيتين ببؤبؤيهما الفيروزيتين المشعتين.. ابتسامتها مشرقة بفضل فمها العريض وأسنانها العاجية المنضّدة بانتظام. ولم أرها قط تصبغ شعرها الأشقر الناعم المرسل على كتفيها. وحافظت على رشاقتها بفضل نظام غذائي مقنن والتمارين الرياضية التي كانت تمارسها أول الصباح من كل يوم.. تبدأ بالهرولة وتؤدي الحركات السويدية حد التعرّق قبل أن تأخذ حماماً بارداً. فتشرع بالكتابة في غرفة الطين التي أوصت ببنائها، وعلقت على جدرانها العارية ست صور لكريستي

تتوسطها صورة لها بصدر يبين منه هلالان من نهديها الصغيرين، والنقرة المعتمة التي بينهما. وهي الصورة نفسها التي رأيتها على الغلاف الأخير لروايتها (من قتل خادمة السيد جون؟) في غرفتها، بعدما أدخلتني إليها هانا.

بعد ما يقرب الأربعة عقود ستدخلني هانا غرفة جاكلين بالمنزل اللندني والتي ستفوح منها رائحة رطبة وثقيلة.. هناك سأجد صور كريستي أيضاً إلى جانب صور لأميلي برونتي وتشارلس ديكنز وفرجينيا وولف و د. هـ. لورنس. ستخبرني هانا أنها أبقت كل شيء في غرفتي المكتب الخاص بوالديها على حاله.. فقط تفتح النوافذ في الأيام المشمسة ليتجدد الهواء فيهما، وتمسح الغبار عن الأثاث واللوحات.

كان المستر ديفيد جنتلماناً إنكليزياً مثالياً في سلوكه وهندامه.. لا أذكر أنه فقد وقاره في أي موقف.. تراه جادّاً بإفراط في أغلب الأوقات.. يطعِّم غضبه بالسخرية، ولا يوجِّه شتائمه لأحد.. حين يقع على لقية أثرية جيدة، أو ينتشي لأي سبب يضحك بصوت عال.. يجيد فن الغزل، يحب زوجته ولا أظنه يخونها.. يتكلم بتهذيب مع الغرباء ولا يظهر احتقارا لأي من العاملين والخدم الذين تحت أمرته..

يرتدي في موقع العمل سروالاً قصيراً وقميصاً ذا لون فاتح نصف كم في الأيام الحارة والدافئة، يستبدله ببدلة عمل ثخينة من قطعة واحدة أيام البرد والمطر.. وفي أثناء السفر والمناسبات تألفه ببدلة ذات لون فاتح من قماش وقميص بياقة منشاة وصديرية مزررة تتدلى منها سلسلة فضية لساعة مخفية في جيبها، وربطة عنق غامقة اللون..

اعتقد أن البشر جميعاً يستحقون حياة سعيدة، لكن منهم من لا يمتلك إرادة تحقيقها ووسائلها.. وفي مقابل حسّه الإنساني المرهف إيمان لا يتزعزع بالتراتبية الحضارية، وبتفوق العرق الأبيض، وبأن مصدر التقدّم البشري هو الغرب دائماً.. وأن أوروبا هي وريثة الحضارات القديمة التي لم يبق منها أثر في حياة القاطنين الآن في بلادي الرافدين والنيل.. وأن الثورات الوطنية مدمرة تحمل بذرة فشلها في داخلها

ــ كان يجب أن يستمر الاستعمار لوقت آخر حتى تبلغوا سن الرشد..

وحين كنت أعارضه يبتسم بلطف ويقول: هذا رأيي..

ولم يرض أن يوقف العمل في أيام حرب حزيران 1967 مثلما طلب العمال الذين انشغلوا طوال الوقت بالاستماع إلى زعيق نشرات الأخبار والأناشيد من إذاعتي بغداد، وصوت العرب القاهرية.

ــــ الحرب بعيدة، ونحن هنا لسنا طرفاً فيها.

قلت له:

ــــ إنهم متحمسون.

أجابني باستغراب:

ــــ على ماذا؟. أشفق لحالهم، فهم لا يعلمون حقيقة ما يجري..

وبعد صمت

ــــ رمزي.. كما قلت لك.

ــــ ماذا؟

ــــ أنت تعرف.

نظر إلى ساعته بسوارها المعدني الفضي في ما غليونه ما يزال في فمه، وقال بنبرة متحشرجة..

ــــ صدقني، لست سعيداً بهذا الذي يجري.

لم أدر بم أجيب.. قال:

ــــ الصدمة ستكون مروعة، وأشياء كثيرة ستتغيّر لاحقاً.

أطفأ غليونه ونظفه قبل أن يعيده إلى غلافه.. أظنه كان يشعر بفداحة الحزن والغضب الذي في داخلي.. قال:

ــــ إنه يوم سيئ آخر، ونحتاج ألا نكون وحدنا.. تعال نتغدى معاً..

قلت له بعدما فرغنا من تناول وجبة الغداء، و لم أحتسب لردة فعله:

ـــ قد لا تكون سعيداً بما يجري، لكنك قطعاً لا تريدنا أن ننتصر.

ـــ دعك مما أريد ومما لا أريد فهذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً.. واقع الأمر أن هزيمتكم حتمية.

ـــ هذه ليست الحرب النهائية..

ـــ لن يدعكم العالم تنتصرون في أي حرب حتى لو خضتموها عشرات المرات. ولا تقل لي إن الله معكم.

ـــ من تقصد بالعالم.

ـــ الغرب، وحتى الاتحاد السوفياتي.. لا أحد يرضى، حتى لو استطعتم، أن تلقوا باليهود في البحر.

لم أعقِّب على ما قال.. عجزت عن إضافة عبارة أخرى.. كنت مشوشاً، مملوءاً بالجزع والحيرة والغيظ.. كأن العالم في داخلي زجاجات تتكسر.. قمت وخرجت.. ربما قلت "إلى اللقاء".. ربما قال "إلى اللقاء".. ربما لم ننطق لحظتها قط.

بعد سنة وخمسة شهور

أول الشتاء.. أول النهار.. أستيقظ من نوم ثقيل، ورقبتي متشنجة.. أحركها لأعيد إليها مرونتها فتوجعني.. عبر نافذة العربة تعوم

الجواميس في مستنقع عريض وامرأة مجللة بالسواد مع رجلها بدشداشة كحلية قصيرة وغترة مبقعة بالأسود يقفان على مرتفع ترابي صغير ناظرين بضجر إلى القطار.. يتهيأ لي أن انطباع المستر ديفيد عن مثل هذا المنظر هو أن بإمكاننا تخيّله كما هو، في هذا المكان عينه، قبل خمسة آلاف عام.. الفرق الوحيد أنهما في ذلك الزمن القصي كانا يقفان لينظرا إلى قافلة من البغال لا إلى قطار.

لم يقل لي المستر ديفيد لماذا انتهى كل شيء على حين فجأة.. قال: "سنترك العمل هنا.. سنسافر".

"أتقصد إلى الأبد؟"

"للأسف نعم".

عدت لأسأله وأنا تحت وقع الصدمة، كان صوتي مخنوقاً واهناً: "ولكننا لم نعثر بعد على الحلقة المفقودة". ربت على كتفي وتأفف.. قال: "الظرف أقوى منا.. إنها أحابيل السياسة وغبائها.. نضع لأنفسنا أهدافاً كبرى ثم تنسفها حماقات أشخاص آخرين".. ولأني لم أجد ما أقول استدرك: " ثم من قال لك إن هناك حلقة مفقودة حقاً؟. نحن نفترض وتخذلنا التجربة".

لابد من أن ألحق بهما قبل أن يذهبا إلى المطار.. رحيلهما سيقطع كل صلة بي وإن كانت متوهمة مع هانا.. وجودهما هنا ووجودي

معهما يحسّسني أن هانا قريبة بالمستطاع إدراكها حتى وإن كان الخجل يمنعني من السؤال عنها.. أنظر لهما فتملأ أعطافي نفحة من هانا.. بقيت أحلم بعودتها، وحدها، من غير صحبة ذلك الكريه الأحول سام.. تخيلتها تأتي في يوم ما لتعمل معنا بعد أن تيأس من العثور على ضالتها في أوروبا كلها.. ويلحقها المستر ديفيد بفريقي فأعلمها دقائق المهنة وأسرارها التي أعرف.. ولطالما جال خيالي معها، تتلامس أيدينا في أثناء العمل، وأحكي قصة طريفة فتضحك، ونأكل من صحن واحد، ونتبادل القُبل خلسة، ونجول عصراً معاً في البرية، نصل حتى التلال فأحملها وأركض بها وأضمها إليّ وأكاد أعثر بها. أقول لها حبيبتي، فتقول: أشكر القدر لأنه جمعني بك.. نستلقي على العشب مبهوري الأنفاس، أشم عبيرها مختلطاً برائحة الأرض المشبعة بالمطر، نتقلب متحاضنين بعيداً عن أنظار الخلق، مأخوذين بروعة اللحظة، ولا أمر آخر يهمّنا.

أخرج من صور مخيلتي الضالة إلى نفسي، إلى بكاء طفل في آخر العربة، إلى دخان السجائر وثرثرة الركاب، إلى القعقعة الرتيبة للعجلات المعدنية المتزلقة على السكة، إلى صف من النخيل ومنزل طيني تحفه أشجار توت ونارنج وراعٍ يمتطي حماراً يتبعه قطيع من الماعز والحملان، إلى أعمدة التلغراف المرقّمة وخلفها أبراج الضغط

العالي، إلى درب ترابي تعبر عليه شاحنة صغيرة تقعي في حوضها بقرة عجفاء، إلى أولاد حفاة يلعبون بكرة مثقوبة من النايلون.

أتناول وجبة الفطور عند كشك في منطقة العلاوي.. أكتفي بقطعتين من المعجنات الباردة واستكاني شاي.. أستقل سيارة تاكسي إلى فندق صحارى في ساحة الأندلس شرقي بغداد.. يقول لي موظف الاستقبال أن السيد والسيدة ماير لم يترلا من غرفتهما بعد.. أجلس على مقعد في انتظارهما وأنا أقلب جريدة الجمهورية. بعد نصف ساعة يعلو صوت المستر ديفيد ملعلعاً بمرح:

"أووووه.. رمزي العزيز.. كنت سأزعل حقاً لو لم تأتِ".

أرفع رأسي فأراه فاتحاً ذراعيه يتقدم نحوي فأقوم أعانقه، ومن ثم أعانق السيدة جاكلين فتطفر دمعة من عينها تمسحها بمنديل أبيض وتضحك.

غرفة ديفيد خريف 2005

صمتت.. دوّرت فمها ماطة شفتيها.. حسبتها غاضبة، أو مستاءة.. أو أن هوة حدثت في ذاكرتها غارت بما تحدثنا عنه.. وكنت على وشك أن أستأذن وأخرج حين سألت بغتة.

ـــ أتمتلك القدرة على الحب؟

ـــ ماذا؟

لم تعد السؤال.. تعرف أنني سمعته جيداً.

ـــ أعتقد بأن قدرتي على الحب هائلة.

ـــ كيف تعرف؟

ـــ أنا هنا بسبب الحب.

لا أدري كيف أفلتت مني هذه الجملة.. اختضت كما لو جرى إيقاظها عنوة من نوم عميق.

ـــ بسبب الحب.. لا تقل لي بحق الشياطين إنك بقيت تحبني طوال أربعين سنة من طرف واحد.

شعرت بحبات عرق تبلل جبيني. وكان من الصعب أن أتمالك نفسي وأتجنب الرعشة في صوتي:

ـــ لم يمر يوم واحد من غير أن تخطري على بالي.

أدرك أن الكلام بيننا وصل مفترقاً حرجاً وصعباً، وأنها قد تطلب مني المغادرة من غير رجعة.. قامت.. قمت وهززت رأسي.

ـــ سأذهب.

ـــ بالسلامة.



لندن.. تشرين الثاني 2005

رمزي

هانا فكرة القلب حين يضلُّ، وشقاء المعنى حين تتعثر الكلمات، ولا شيء مؤكد تماماً، كما تقول، وهي تشكِّكني بذاكرتي:

"أحصل ما تدّعي حقاً، أم أنك اختلقت حكايةً وصدقتها؟".

"لا فرق، طالما كانت هنا".

وأشير إلى رأسي، ولن تقتنع.. يتراءى لي ماضيَّ مثل مرآة زرادشت المكسورة، أتوزع بين شظاياها، ولا أجزم أيٌّ هو أنا.. أقول لها:

"يتهيأ لي أن حياتنا تشبه البريق المتراقص على جسد الموج.. في كل لحظة ثمة ضوء مختلف".

تأتي على آخر رشفة من فنجان قهوتها.. تقول:

"المجازات خدّاعة".

وقبل أن أسوِّغ، ولا أدري كيف، تردف:

"أنت محيِّر يا رمزي.. ولا تخلو من مسّ".

أضحك، فتضحك، وتبتسم كمارا التي جاءت لتأخذ الفناجين وصحن المعجنات الذي لم نقربه.

"المسّ.. ذلك هو ترياقي لترويض الألم".

"فيك جانب مازوخي.. تتوهم الألم وتستعذبه".

"لم تعيشي حياتنا يا هانا.. لا تعرفين شيئاً عمّا جرى".

"ألم تنل الأمان؟. الم تُنقذ؟".

سؤال آخر لا أمتلك الإجابة الواضحة عليه.. أسكت.. يشرد تفكيري إلى ظهيرة من ربيع قديم في محطة مزدحمة.. لا أذكر إن كنت على وشك السفر إلى مكان ما، أو بانتظار أحد.. كان نهاراً مبتهجاً بالشمس.. أعود إليّ الآن، إلى هانا، في هياج دخان سيجارتي، أقول بنبرة شكوى:

"ما أفتقده هنا هو الضوء.. ضوء أرتوي منه وأشبع.. ضوء حقيقي.. الضباب يخنقني.. يملؤني بالكدر والوحشة".

وأكاد أعترف لها: لولاكِ.. لولا أني أراكِ ضوءاً، ضوئي في ليل العالم، فلربما قررت العودة بالرغم من الجحيم اليومي هناك في بلدي.. أو انزويت في شقتي لا أغادرها حتى أموت.. ولا أقول.

أقول لها: "نحن لسنا أنفسنا بعد هذه السنين كلها".

تقول: "أنت على حق".

تقوم لتضع في جهاز سي دي قرصاً.. تدير المفتاح، تترشرش موسيقى زوربا بعزف أندريه ريو وفرقته، كضياء ملونة من شاشة التلفاز.. تمسك أصابعي.. تقيمني.. "هلا نرقص".

المفاجأة تعقل لساني.. أحملق في وجهها كالأبله.. أقول وقد شرع جسمها بالاهتزاز: "لست راقصاً جيداً".. تقول "ومن تظنني.. بريتني سبيرز، أو جينيفر لوبيز؟".

تقف إلى جانبي.. تحضن ذراعي بذراعها.. تنقل قدميها إلى الأمام والخلف، ثم تقفز بهما.. لا أستطيع مجاراتها.. أنجز بضع خطوات سريعة خرقاء وأضحك.. تدخل كمارا، تعلو وجهها ابتسامة عريضة وتبدأ الرقص.. هي أبرع منا نحن الاثنين.. نستمر في حركاتنا غير المتناسقة وكمارا تشجعنا: "هيا، هيا".. ندور بما يسمح به المكان.. نصيح جميعاً: "هيا، هيا".. يضيق نَفَسي.. أسحب هانا معي إلى حيث الأريكة العريضة وأجلس، فتسقط معي جالسةً إلى جانبي، فخذها لصق فخذي ونستغرق بالضحك.. تتوقف كمارا هي الأخرى وما تزال تبتسم.. تنهض هانا، وغمازتها تستوي بين لهاثها وابتسامتها:

"عليّ أن أدخل الحمّام".. حين تبتعد بما فيه الكفاية تقول لي كمارا بصوت خافت:

"يا للمسيح، ما الذي تفعله بها؟".

أقول متوجساً: "أفعل؟. ماذا؟.. أهو شيء سيئ؟".

"يا للمسيح.. أي عجوز مكّار أنت".

تعود هانا وقد تبددت غمازتها، لكن وجنتيها ما زالتا تشعان.

"هذا ما يفعله شرب الماء كثيراً.. لستُ مصابة بالسكّري".

تقترح أن نخرج لنسير قليلاً في الجوار.. أنى لي أن أعترض.. سأتحامل على نفسي وأقاوم البرد بإبعاده عن تفكيري.. سأتخيل أننا في الحُنينة، نمشي على رمل أيلول في الشمس..

سرنا على رصيف شارع خالٍ طويل.. وجهتنا على غير هدى.. البنايات حولنا واطئة، قديمة، بمداخن وأسيجة خشبية، ونوافذ مضيئة.. كانت ما قبل ساعة الغروب بقليل، والهواء الخفيف يكنس برتابة بقايا أوراق أشجار يابسة تحت أقدامنا.. هانا ترتدي معطفاً صوفياً أزرق فضفاضاً وتنورة تكاد تلامس حوافها الخيطية المشرشبة الأرض. ما تزال تمتلك قامة مرصوصة ومنتصبة على الرغم من تجاوزها الستين بسنة..

بدا وكأن لا شيء آخر لدينا لنقوله، أو أننا فضّلنا الصمت على الكلام.. وما كنا نسمع سوى هسيس الرياح، ووقع أقدامنا الواهن على الأرضية الموزائيكية الحمراء للرصيف. وحين سألتني أخيراً:

ــ أما زلت تؤمن بشيء اسمه الحب

لم أجبها حالاً، وكأنني غير معنيٍّ بسؤالها. وربما قطعنا أكثر من ثلاثين خطوة أخرى حين قلت:

ــ كنت... في المرحلة الأولى من حياتي اعتقدت بأن جوهر الحياة هو الحب.. الحب هو المحرك وهو المقصد وهو المعنى.. فيما بعد أصبت بالسأم.. حصل هذا بعد زواجي بسنوات قليلة.. قلت، لعل جوهر الحياة هو السأم كما قال مورافيا في روايته الشهيرة.. السأم لا يعني أن تفتقدي الرغبة بفعل أشياء، لكنكِ ستفعلينها نكاية بالسأم، أو هرباً منه، لتنسيه.. يدفع السأم إن جعلتِه ينال منكِ إلى الانتحار

ــ أنت على حق.. كان ذلك بسبب السأم.

ــ ماذا؟. لا تقولي لي إنك حاولت الانتحار ذات مرّة.

ــ محاولتان، وتم إنقاذي.

ــ يا إلهي..

ــ لا أريد التحدّث الآن عن ذلك.

ـــ أنتِ على حق.. لم أقطع آلاف الأميال لأجل أن أسمعكِ تروين لي قصصاً من هذا القبيل.

ـــ وما الذي جئت لتقوله لي بعد هذه السنين كلها؟

ضحكت، أما هي فلوت فمها باعثة ما يشبه الابتسام

ـــ لا شيء محدّد.. فقط يريحني الكلام معكِ.

ـــ شكرا لك إذ تشعرني بأني ذات فائدة لأحدهم

أضحك ثانية بصخب أكبر.. تلتفت إليّ وتضحك هي الأخرى.

ـــ بعد كل الذي رأيت خلال العشرين سنة الأخيرة، بالأحرى في السنوات الثلاث الأخيرة تبدّل رأيي تماماً.. ليس جوهر الحياة هو الحب، ولا السأم، بل هو الشر.

ـــ الشر؟.

ـــ نعم، باعتقادي ليس شيئا طارئاً على النفس البشرية، بل هو جزء عضوي منه.

ـــ كلنا إذن أشرار.

ـــ لا.. بعضنا يستثمره، وبعضنا يصارعه، وبعضنا يلعب معه وضده في الوقت نفسه.

ـــ أترى من الخير أن نفلسف كل شيء؟.

ـــ أقول هذا لأنني رأيت كيف يقطع بعضهم الرؤوس.. وكيف يبحث بعضهم في جيوب أصحاب الرؤوس المقطوعة ليسرقوهم.

بدأت أسناني تصطك.. البرد ينفذ إلى عظامي عبر سترتي الجلدية، وبنطالي الجينز الذي أرتدي تحته بيجاما داخلية من الصوف الثخين.. باطنا قدميّ مثلجان، كأنهما يخبان على كسر من زجاج.. كنت أرغب أن تقترح علينا العودة، فأوصلها لمنزلها وأسرع إلى المحطة.. وربما شربت شيئا ساخناً قبل صعودي القطار. لكنها بقيت تمشي.. كنا نبتعد، وفي لحظة انعطف بنا الشارع والرصيف.. صادفنا امرأتين.. ومن ثم أولاداً مراهقين يتحدثون بصوتٍ عالٍ، يحملون حقائب على ظهورهم. لابد من أنهم انتهوا من نشاط رياضي.. ومرت بنا سيارات قليلة. وفي لحظة انبثقت من شارع فرعي عربة خيل بفوانيس، مرصّعة بحلقات محدبة فضية بحجم كرات التنس.. وكان الظلام قد استحوذ على ما حولنا.

هانا

حياني مستر ماك بقهقهة كعادته.. اصعدا سأوصلكما.. بدا رمزي حائراً، لكني سبقته وتسلقت العربة وجلست.. مددت له يدي.. بهت وكأن شيئاً مريعاً يحصل.. مط شفتيه وأمسك بيدي.. حين اتخذ مقعده أمامي ضغط بأصابعه على فخذيه.. كأنه ذكّرني بوجع

المفاصل.. شع الألم في عظامي.. حمحمت الخيول قبل أن تتحرك.. صحت: جئت في وقتك.. لم يسمعني مستر ماك.. سمعني رمزي وقال: أنتِ على حق كدت أقع من الإعياء.. أوه أنا آسفة، لِمَ لم تتكلم؟.. قال: هذا البرد قاتلي.. قلت: الشتاء وقت ملاك الموت المفضّل.. شعرت بأني نطقت بعبارة حمقاء.. لم يبدِ رمزي اعتراضاً، ولم يظهر عليه ما يدل أنه مستاء.. هو من ثقافة تكثر الكلام عن الموت.. يرونه أمراً طبيعياً.. أليس هو كذلك؟.. لا، ليس طبيعياً.. هو حدث غريب على الرغم من أنه يحدث منذ ملايين السنين كل يوم وكل ساعة.. هو أيضاً هارب من الموت.. جاء به أولاده.. لم يأتِ من أجلي كما أوحى لي.. أخبرني أنني لم أغب عن باله قط منذ منحته جسدي.. بالكاد أذكر ذلك اليوم.. ربما عدّني ذكرى حلوة.. ساعة مسرّة في حياته المجدبة، أقصد من حيث علاقاته بالنساء.. لا أظنه تعرّف على كثيرات.. هو متحفظ، نصف خجول، ومجتمعه مغلق.. وسامته ليست بالغة الإثارة.. أوه، ما الذي يعنيني من هذا كله.. ينظر إلى سماء الليل، ويرنو إليّ.. لا يعلم أنني أفكّر به في هذه اللحظة.. لن أخبره بطبيعة الحال.. لمّا وصل لندن لم يجد بداً من أن يبحث عني.. كان معه عنواننا القديم.. لم نغيّره.. ولأن لا شيء لديه ليفعله سعى للاستنجاد بالماضي.. لست ألومه.. باغته بالقول:

ـــ تريد أن تبرأ من الذاكرة.

ـــ من لا يفعل.

ـــ تبحث عن أشياء لم تعد تجدي؟

ـــ ما الذي تقصدينه بالجدوى؟.

ـــ لن تجني سوى الألم.

ـــ الألم، أحياناً، مكان نلجأ إليه.

ـــ تلجأ إليه أنت.. ليس كلنا.. أنت وحدك.

ابتسم وكأنه فهم بأني أسخر. وراح مستر ماك يقرع الأجراس.. قال رمزي:

ـــ أحسّني في حلم.

ألأنه مبتهج، أم يشعر بالغرابة، لوجوده معي في عربة تجوب بنا شوارع خالية في بلدة تبعد عن دياره آلاف الأميال.

هو هنا ليسترد شيئاً لم يعد موجوداً، أو بالأحرى لم يكن موجوداً في أي يوم.. سألته لأستفزه إن كان لسعيه علاقة على نحوٍ ما بالتأثير الكولونيالي، بذاكرته المخدوشة من إثر ذلك.. قال منتفضاً: "لا، لا.. أنا هنا لغرض شخصي بحت.. أمرٌ يتعلق بذاتي ليس إلا". وأضاف عبارة ساخرة عن السياسة التي بات يكرهها وضحك. نمّ ضحكه عن عصبية أكثر مما نمّ عن حالة مرح.

ما يغيظ في هذا أنه ليس متأكداً تماماً.. كائن عاش في أكثر من جهة وزمن، وتلقى ضربات أشدَّ مما يمكن لإنسان سوي أن يطيقه، وإذاً كيف له أن يجعل من ماضيه، أو ما يتهيأ له عنه، نقطة شروع فقط كما يزعم.

يرغب بحاضر مختلف، وربما يكون الأوان قد فات.. حاضر أكون أنا جزءاً منه، أنا العالقة في لحظة حرجة من ذلك الماضي.. لم يفصح عن هذا مباشرةً بطبيعة الحال، فهو ليس ساذجاً، ولا يفتقر إلى الدهاء، ويعرف كيف يتلاعب بالألفاظ.

"أشعر أحياناً كما لو أن هوة سوداء تفصل بين تلك اللحظة التي ودعت فيها المستر والمسز ماير في مطار بغداد خريف العام 1968 وهذه اللحظة حيث أقف فيها أمامكِ.. شرخ عبرته كمغمى عليه".

قلت له: "لست أفهم".

قال" "أترين أن هذا يهم في النهاية".

وسيتحدث عن حلقة مفقودة في الحضارة بمعرفتها ستتغير نظرتنا إلى التاريخ والكون.. فكرة افتراضية أشار إليها أبي قبل أربعين سنة وما زالت تشغل عقله. وتعكر وجهه حين قلت له : "أعتقد أن أبي كان يمزح".

وحتى أخرجه من ارتباكه قلت: "ولكن أليس في حياة كل منا حلقة مفقودة مستر رمزي؟". وبصراحة ما كنت أعي مقصد كلماتي على وجه الدقة.. وخشيت أن يدّعي بأني، لا غيري، حلقته المفقودة، لكنه علّق بعبارة مبهمة: "إنها في نقطة بيني وبينكِ". وكنت على وشك أن أقول له: "ما هذا الهراء". لكنني قلت: "أوه مستر رمزي، أنت تشوشني بهذا القدر المخيف الذي تحمل من الأوهام".

أخرج علبة سجائره وأستأذنني في التدخين فلم أمانع.. نفث الدخان بعيداً عني وقال:

"كلٌ منا نتاج مصادفات لعينة تلاعبت بنا.. قاومنا وتكيفنا ورضخنا.. تمردنا قليلاً من دون جدوى، وفي النهاية ها نحن ما نحن عليه".

لا أعلم إن ظهر في نبرتي خيط من التهكم وأنا أرد عليه:

"إنك تبرئ نفسك من المسؤولية".

"أبداً.. وأخيراً ينال كل منّا ما يستحق".

"كلٌ منّا؟".

رفع رأسه ملاحقاً بنظره حلزوناً من الدخان أطلقه وكأنه يداري حرجه:

"أنا آسف.. ما أقوله يخصّني أنا وحدي.. لعل حياتكِ مختلفة.. ليس من حقي إسقاط ما أظنه عن نفسي عليكِ أو على أي أحد.. اللعنة، أنا أسبب لكِ الملل".

نعم، كان يمكن لمثل هذا الحديث أن يصيبني بالملل ويثير أعصابي لو أنه جرى بيني وبين رجل تعودت مقابلته مرات كثيرة طوال سنوات، غير أن الفضول دفعني أن أستمر معه، ربما لأن لا عمل لديّ أنجزه، وهو، بأية حال، لا يسرق مني وقتاً لا يعوّض..

حدثني عن تأخره بالزواج حتى العام 1978.. لم يخطط للاقتران بامرأة محددة، أو أنه لم يفكِّر بالزواج قط.. وبقي يسوِّف كلما طلبت منه أمه أو أي أحد أن يجد لنفسه شريكة حياة.. وفي يوم صادف فتاة تصغره باثنتي عشرة سنة في حفل عرس صديق له. لم تكن جميلة أو مثيرة، لكنها لسبب لا يعرفه لفتت انتباهه؛ سمراء، نحيفة، ذات عينين واسعتين وشعر أسود طويل. وصف الأمر بذلك النوع من توافق الذبذبات بين روحين. لكنه لم يتجرأ للاقتراب منها خشية أن تصدّه. لمّا تفرّق الناس بعد الحفل رآها وحدها واقفة في موقف قريب للحافلات فدعاها ليقلها بسيارته إلى منطقة سكنها فلم تمانع.. تبادلا كلاماً قليلاً في الطريق.. كان يشعر بالخجل أكثر منها.. عرف أنها مدرِّسة مادة الأحياء في ثانوية للبنات.. أعلمته باسم المدرسة و لم تخبره

باسمها.. يبدو أنها هيّجت فيه عصباً ما.. كانت واثقة من نفسها نزلت في شارع قريب من منزلها، وودّعته شاكرة من غير أن يتفقا على موعد لقاء آخر.. لم ينم في تلك الليلة جيداً، ولا في الليلة التي تليها.. وذهب إلى مدرستها في اليوم الثالث بوجه شاحب وعينين مرهقتين.. سأل المديرة عن مدرِّسة الأحياء، فقالت؛ أي منهنَّ، لدينا ثلاث مدرِّسات للأحياء.. كان موقفاً محرجاً.. قال: السمراء ذات الشعر الطويل.. ارتابت المديرة وسألته: "ماذا تريد منها؟".. أجاب وكأنه مسرنم: "أطلب منها أن تتزوجني".. صاحت:

"ماذا؟. أمجنون أنت؟. أهذه طريقة لطلب يد فتاة؟".

"هي تعرفني، فقط دعيني أراها".

"اثنتان منهن سمراوان وشعرهما طويل".

"أرجوكِ.. تستطيعين طلب الاثنتين أمامكِ الآن".

"أيمكن أن تريني بطاقة هويتك؟".

"لم لا؟".

ناولها بطاقة هويته:

"الدكتور محمد رمزي أستاذ جامعي؟!".

"وعالم آثار".

لندن
أواخر تشرين الثاني 2005

تساقطت ندف الثلج فخطر له أن يوقف سيارة تاكسي على الرغم من أن العمارة التي يسكنها قريبة. لام نفسه لأنه ألقى بالمظلة جانباً في اللحظة الأخيرة قبل أن يغادر شقته هذا الصباح.. لم يطلع على نشرة الأنواء الجوية واكتفى بالنظر إلى الضوء المتسلل إلى الصالة من النافذة وحسب أنه يوم صحو..

دخل متجراً واقتنى علبتين من سمك السلمون، وخبزاً وجبناً ومناديل ورقية.. زرر معطفه عند باب الخروج وأحكم من وضع قبعة الفرو الروسية على رأسه.. رفع عينيه إلى السماء الرمادية المحتقنة وسار بخطوات سريعة.. كادت قدمه تنزلق بعد بضعة أمتار على الرصيف

لولا أن أمسكت به يد سيدة ذات صدر طافر، تخيلها واحدة من ملائكة تشارلي. وقبل أن يتمتم لها بعبارات الشكر أحاط به رجلان لأحدهما هيئة جيمس بوند، والآخر يذكّر ببدانته والغليون الذي في فمه بونستون تشرتشل وإن لم يكن يشبهه.. قال له ذو هيئة بوند:

"نرجو أن تمنحنا نصف ساعة من وقتك".

أدار عينيه في وجوههم، وقد تملكه شيء من الخوف وقال:

"لماذا، أهو استدعاء للاستجواب من قبل جهة رسمية؟".

"لا نعدّه استجواباً، بل دردشة بين أصدقاء".

"من أنتم"

" أنا الدكتور واتسون، وهذا زميلي المستر جون.. وهذه مس ليلي.. لسنا جهة معادية.. وفي النهاية سيصبُّ هذا في مصلحتك".

"كيف لي أن أثق بكم".

"لن تحتاج إلى الثقة في التعامل معنا، بل إلى الفطنة".

"لست أفهم".

"حتى هذا غير مهم الآن.. وما نعتقد أننا نفهمه قد لا يكون كذلك من وجهة نظر مغايرة".

استبعد فكرة أن يكون هؤلاء عصابة اختطاف، مرجحاً أنهم ممثلو مؤسسة أمنية.. وبقي متوجساً، من غير أن تخطر على باله خيارات

معقولة.. مشى معهم إلى حيث تقف سيارة حديثة سوداء من نوع جيب.. جلست مس ليلي وراء المقود وإلى جانبها الدكتور واتسون فيما اتخذ هو والبدين المستر جون مقعدهما في الخلف.

أدخلوه مبنى قديماً من طابقين، وقادوه إلى غرفة عارية الجدران تقشر طلاؤها، فيها منضدة خشبية مضلعة، وكرسيان جلديان متقابلان، دعوه للجلوس على أحدهما وخرجوا وأغلقوا الباب..

لم تكن هناك نافذة.. وبحث بنظره عن كاميرات في الزوايا أو في السقف ولم يجد، ومع هذا كان يشعر أنه مراقب بطريقة ما.. بعد دقائق جاء شاب أشقر يحمل صينية من الألمونيوم قدّم له كأس ماء وفنجان قهوة ساخنة.

لما انتهى من احتساء قهوته دخل الرجلان فجلس الدكتور واتسون قبالته، ووقف المستر جون قرب الباب:

"أكيد أنك تتساءل في سرِّك عن حقيقة هذا المكان".

"أتساءل ماذا أكون قد فعلت لأكون في هذا المكان".

"ولماذا تفترض أن هذا المكان هو لاستقدام أناس قاموا بأفعال سيئة".

" لم أقل سيئة.. أحياناً يتورط المرء لأنه عمل ما اعتقده شيئاً حسناً".

"لا تفكر بنا كغرماء.. نريد أن نتعاون".

"نتعاون حول ماذا؟".

"ليس من السهل أن أعبِّر عنه ببضع عبارات.. وقد تتعجب لقولي هذا".

ضحك رمزي واستأذن ليدخن سيجارة.. هز الرجلان رأسيهما.. طافت ابتسامة على وجه الدكتور واتسون، وظل المستر جون عابساً.. أشعل سيجارته ونفث الدخان إلى الأعلى.

"لا أحب المسائل الغامضة.. كانت وظيفتي أن أوضح ما يبدو مبهماً لطلابي".

"التوضيح.. لا، لا.. من المحال الوصول إلى الوضوح الكامل".

"لم تقولوا لي حتى هذه اللحظة ما الذي تريدونه مني على وجه التحديد".

"تحديداً لا نعرف.. فقط نقول لك من خلال الكلام يمكن أن نصل معاً إلى صيغة ما مقنعة".

"أنتم تشوشونني"

"للأسف هذا ما عليه الأمر، وثق نحن مشوشون بقدرك وأكثر".

هانا

شربت قهوتي مع قطعة شكولاتة، وبعد ساعة أكلت نصف برتقالة،. لم يكن لديّ شيء لأفعله. تصفحت عدد أمس من الديلي ميرور و لم

أكمل قراءة موضوع واحد... جاءت كمارا في العاشرة وخمس دقائق وانهمكتْ فوراً في التنظيف.. خرجت إلى الحديقة لأجيء ببريدي.. طبقة رقيقة من الثلج تغطي النباتات، كذلك صندوق البريد المعدني وخشب السياج.. ولكي أتقي الهواء القارص أنزلت قلنسوتي على أُذنيّ، ورفعت ياقة كنزتي لأحمي رقبتي.. حيّاني جاري المستر رايت بتلويحة سريعة قبل أن يعيد يده إلى جيب سرواله الجينز.. كان يمر في الشارع متدثراً بمعطف صوفي أسود. ظننته ذاهباً إلى متجر فلور لشراء السجائر.. تعالت قعقعة القطار المارق أمام المنزل، لم أعاين نوافذ عرباتها كي لا أضطر للرد على تلويحة أحدهم.. تذكرت رمزي.

لم يهاتفني منذ أسبوع.. لعله مريض.. في المرات الثلاث السابقة أنا الذي اتصلت به.. قررت ألا أتصل في هذه المرة.. هي مسألة كرامة، ولكن ماذا لو كان في وضع لا يستطيع معه الاتصال.. غادر في ذلك النهار والمطر يتساقط بغزارة.. كانت معه مظلة، ويرتدي قبعة من اللباد، ومعطفاً من النايلون، وبعث لي بعد ساعتين برسالة قصيرة:

"وصلت.. كوني بخير"

فلماذا يصاب بنزلة برد؟. أتراه يشكو من شيء آخر، أو يواجه مشكلة ما؟. عدت إلى دفء المنزل، وبيدي ثلاث رسائل، وعدد اليوم من الديلي ميرور.. طلبت من كمارا أن تعد الشاي.. البخار المتصاعد من

كوب الشاي، ولهجة كمارا المضحكة أعادا لي بعض الانشراح.. أخذت هاتفي النقال وكتبت رسالة لرمزي.

"مرحباً.. أرجو ألا تكون مريضاً"

ترددت ثواني قليلة قبل أن أضغط على علامة الإرسال.. ردّ بعد أقل من دقيقتين.

"لست مريضاً، فقط لم أشأ إزعاجكِ".

"أنت لا تزعجني".

"تثبتين لي في كل يوم أنك أعظم امرأة في العالم".

ضحكت.. يعجبني هذا الهراء الشرقي، لكنني لا أدري بم أجيب.

رمزي

رنَّ هاتفي عند العاشرة وخمس دقائق.. بدا صوتها لطيفاً وحزيناً وهي تعلمني بقلقها عليّ.. قلت: "هذا المطر الذي لم ينقطع منذ أسبوع يصيبني بالجنون.. وهذا البرد الذي يصلُّ في العظام يجعلني أكاد أبكي.. ومع الجو المكفهر خلف النافذة أشعر بروحي مقبوضة".. أخبرتني بأن البقاء في المنزل، من غير عمل، ممرِض وموحِش. وافقتها، فقالت بشيء من العتاب.

"لم تتصل بي".

"في المرة الأخيرة حين ودعتكِ لم تقولي شيئاً".

"أتُجرح كرامتك لو سقت أي عذر سخيف لتكلمني.. أم أنك ما كنت تريد".

"كنت أريد حقاً".

أفلتت مني العبارة، وليس من فرصةٍ لردها.. كنت أسمع صوت تنفسها من الطرف الآخر.. أستشعر الراحة في صمتها. يتهيأ لي أنها تبتسم الآن، فيتولاني أنا الآخر شعور مريح.

ـــ سأزوركِ حال انقطاع المطر.

ـــ لا.. أنتظرك وقت العشاء.. أنت في بلاد لا يمنعها المطر من المضي قدماً.

ـــ سأكون هناك.. شكرا لكِ.

ـــ لا تشكرني.. فقط اجلب معك زجاجة نبيذ أحمر.

مساءً تدثرت بمعطف مطري، ولبست قبعة جلدية محشوة بالفرو، وحملت مظلتي خارجاً مع محمود الذي أقلني بسيارته الفورد إلى المحطة.. في العربة التي صعدت إليها كانت نصف المقاعد شاغرة.. جلست إلى جانب رجل يكبرني بسنوات، يطالع صحيفة خاصة بسباقات الخيل لم يأبه لوجودي بقربه.. أخذت سيارة أجرة، على

الرغم من قصر المسافة، وطلبت من سائقها أن يقف أولاً عند متجر لأشتري زجاجة نبيذ..

كان باب حديقة المترل الخشبي مواربًا.. بعد أن أغلقته رحت أركض تحت المطر الهائج، ومظلتي تترنح معي، لا تعينني كثيراً في اتقاء البلل.. ومع اقترابي من الباب الداخلي انفتح فدخلت وأنا أضحك، وكانت هانا تضحك.. قالت إنها كانت تقف عند النافذة منذ نصف ساعة بانتظار وصولي. ناولتها زجاجة النبيذ، ونزعت قبعتي ومعطفي واتجهت نحو الموقد المشتعل لأتدفأ.

ــ أفضِّل موقد الفحم على التدفئة المركزية..

ــ لكِ مزاج ما بين الحربين.

ــ إن فيه حميمية.. يشعرك بالعلاقة المباشرة مع الطبيعة.

ــ ما زلتِ تلك الرومانسية الحالمة.

ــ لست رومانسية.

ــ عشقك للسفر في تلك السنين إلى بلدان الشرق.

ــ كانت نزوة مرحلة الشباب. . أجلس رجاءً.. أجائع أنت؟.

ــ ليس بعد.

ــ يمكننا أن نشرب كأساً.

استغرق تناولنا الطعام أكثر من ساعتين.. أحضرت أولاً حساء الدجاج، وفيه قطع من الحمص والمعكرونة والخضار. ثم جاءت بطبق كنتاكي مسلوق، فيما حوى طبقها الثالث البطاطس المحمرة وقطع لحم بقر مقطّع في شرائح رقيقة، مع طبق خضراوات تحوي جزراً وخياراً وطماطم وقرنبيط وفلفلاً أحمر وأعشاباً خضراء وبنفسجية.. حين حملنا الأطباق أخيراً عائدين بها إلى المطبخ كانت زجاجة النبيذ قد فرغت تماماً.

فتحت زجاجة نبيذ ثانية.. قالت إنها تعرف أن زجاجة واحدة لن تكفي لذا طلبت أن أجلب معي زجاجة.. كانت منتشية، خداها يلمعان وفمها بدا متورداً، شهياً كأنه لواحدة في الثلاثين.. كنا نسمع مع هسيس النار في الموقد فحيح الريح والمطر واصطفاق الأشجار وهدير القطارات إذا مرّت. واقترحت أن نسمع بعض الموسيقى.

ـــ لا أحب التلفزيون.. أحياناً أتابع بعض التقارير في الناشيونال جغرافيك. الأخبار لا.. قد أشاهد فلماً إذا أعجبتني القصة.. لا أفوّت أي فلم لماجي سمث وميريل ستريب. لكني لم أعد أذهب إلى السينما.. الضجيج والزحمة يتسببان لي بالدوار.

ـــ أما زلتِ هائمة بموسيقى الجاز.. كان قاسمكِ المشترك مع سام هو شيت بيكر.

ـــ يااااااه.. أنت تتذكر.. ذاكرتك سليمة.. أحسدك.

ـــ لا أظنني نسيت أي شيء يتعلق بكِ.

ـــ ألم يكن من الإنصاف لكلينا أن أعرف.

ـــ فضلت أن أعيش الوهم بدلاً من أن تحبطني صدمة لا أضمن نتائجها.

ـــ ألم تفكر باحتمال أن تجري الأمور على نحو أفضل.

ـــ لست مغامراً مثلكِ.. جرفتني حياة روتينية مكلفة.. ولدان وبنت كان عليّ أن أربيهما في ظروف صعبة.. أنتِ لا تعرفين ما حدث هناك مذ غادر والدكِ.

ـــ وزوجتك.. لم تحدثني عنها أبداً.

ـــ ماتت بسرطان الدم.. لم نكتشف المرض إلا متأخراً.. ما أبقاني معها طوال هذا الوقت هو أنها أحبتني.. أحبتني إلى درجة كان من اللؤم والحقارة أن أخذلها.

ـــ ألم تحبها أنت؟

ـــ من حسن الحظ أنها رحلت وهي تعتقد أنني أحبها بقوة.. لم أكرها في أي يوم.. كنت أشفق عليها، وعلى نفسي.. كانت جميلة هادئة، قرأت كتبي كلها.. وحاولت أن تهيئ لي جواً مناسباً في البيت كي أبحث وأكتب.

ـــ وحياتكما الجنسية.

ـــ اعتيادية.. خنتها مرات وحرصت على أن لا تعرف.

ملأت كأسينا مرة أخرى وأشعلت سيجارة. وبعد أول نفثة دخان قال:

ـــ كنت تخوننا نحن الاثنين.

فاجأني قولها.. شربت من كأسي.

ـــ أترين الأمر هكذا؟.

ـــ وأنت كيف تراه؟.

ـــ نعم، كنت أشعر بأني أخونكما أنتما الاثنين.. أو بالأحرى أخونكِ أنتِ أكثر.

مصمصت شفتيها حتى احمرتا، لا لكي تثيرني، بل لأنها تخوض لعبة مسلية.. تستمتع بهذا الحديث الأحمق.

ـــ علاقاتك الأخرى.. أقصد قصص الخيانة، أكانت درامية؟.

ـــ لم أفهم.

ـــ أعني، هل عشت قصة مثيرة مع واحدة، أم كانت كلها عابرة من أجل الجنس.

ـــ واحدة فقط كان من الممكن أن تأخذ مساراً صعباً لولا أنها خيرتني، في النهاية، بين أن نتزوج أو تتركني لأن هناك من طلب يدها.

ـــ زهراء، هذا اسم زوجتي، لم تكن تستحق أن أسبب لها الأذى.

ـــ وبعد أن توفيت؟.

ـــ هي ماتت قبل سنتين فقط.. كنت مع أولادي ببغداد في أسوأ حال.

ـــ آه..

لم يكن المطر قد انقطع بعد.. وكانت ساعة الحائط تشير إلى الواحدة والربع بعد منتصف الليل حين انتهينا من شرب زجاجة النبيذ الثانية.. وقفت ثملاً قليلاً، وفي رأسي شيء من الدوار، وقلت: "شكرا هانا على كل شيء، سأغادر الآن". أمسكتني من يدي وجرتني لأعود للجلوس على مقعدي، وقالت: "لن تخرج إلى أي لعنة.. هناك غرفة للضيوف دافئة، فيها سرير مزدوج، ستبيت فيها الليلة".. لم أعترض إلا بعبارات مبهمة، فيما إصبع هانا يهتز بعلامة الرفض.

في الغرفة وأنا أهم بخلع ملابسي اتصل بي محمود.. كان قلقاً.. أخبرته بأني في بيت صديق رفض أن أغادر في هذه الساعة المتأخرة والمطر يتساقط بغزارة.. أطفأت النور، واندسست في فراشي بسروالي الداخلي الطويل والفانيلة الصوفية الثخينة.. ولا أدري متى غفوت.

وما كان لي أن أعرف كم الساعة حين شعرت بيد عارية تطوِّقني من الخلف، وبلحم أنثوي وفير يلتصق بظهري، وبأنفاس حارة تهب على

رقبتي.. خمّنت أنها تلبس قميصاً داخلياً من الحرير، أخضر ربما؛ هو لونها المفضّل.. تململت كي أستدير.. همستْ: "لا، ابق كما أنت، أرجوك".. لوهلة ازداد خفقان قلبي، وانتابني شعور بالغرابة، وبالرضا والاكتفاء. ورحتُ أعبُّ الهواء من فمي وأزفر بصوت مسموع.. أخذت كفّها بين أصابعي.. فتسرّب إليها دفق من حرارتي.. وسرعان ما تبددت خيوط البرد التي في أصابعها الطويلة وراحتها، فيما ذهب عني النعاس، وانحدر عبر خلايا صدري شلال بهجة.

ربما لم تمضِ أكثر من عشر دقائق حين انتظم تنفس هانا، وأيقنت أنها نامت.. وما برح تيار من الانشراح والنشوة يجتاحني.. وباستثناء مرات قليلة استيقظ صباحا وعضوي منتصب، لم أخبر هذه الدرجة العالية من الانتصاب منذ وقت طويل.. كنت مستثاراً، من غير توتر، مبتهجاً بهذه النعمة التي لم أتوقعها للحظة واحدة.. أتسمع لهدير المطر في الخارج كما لو أنه موسيقى كونية تعزف من أجلي. أفرك برقة هذا المارد المنتعظ الذي يحثني على القيام بفعلٍ أخرق، وأنا أردعه بالتربيت عليه وبالضغط برقة على جذره النابض أسفل كيس الصفن محاولاً تهدئته.. ومضت الدقائق برتابة منهِكة، أخذتني فيها غفوات متقطعة إلى أحلام لن أتذكّر منها شيئاً حين أستيقظ أخيراً ولا أجد معي على السرير أيّ أحد.

قمت ويدي اليمنى متشنِّجة.. نظرتُ إلى موضع نوم هانا إلى جانب موضعي، ولم أستطع التأكد من أنها كانت هنا فعلاً، أو أنني توهّمت، أو كنت أحلم، أو ربما وببساطة عدّلت الشرشف قبل أن تخرج باحتراس كي لا أستيقظ وأراها.. وكان من المستحيل أن أسألها عن هذا ونحن نشرب الشاي بالحليب ونأكل فطيرة الجبن في مطبخها وقت الضحى.. لم يبد عليها أنها ستقول شيئاً بشأن ما حصل البارحة إن كان قد حصل حقاً ما أجزم أنه حصل.. كانت مسترخية في جلستها، تنظرُ إليّ مع طيف ابتسامة على شفتيها النديتين وكأنها تخبرني بأن كل شيء على ما يرام.. وإذ لم تظهر أي علامة توتر على محياها وهي تسألني في ما إذا كان نومي جيداً في غرفة الضيوف، ليلة البارحة، فقد حاولت أنا الآخر أن أجعل إجابتي طبيعية: "نمت على نحوٍ ممتاز، شكراً لكِ".

ما يزال المطر يهطل.. قدمت كمارا نصف مبللة وهي تضج بالضحك.. علقت مظلتها التي تقطر ماءً في موضعها قرب الباب، ورمت الأكياس التي جلبتها من المتجر على أقرب طاولة.. خلعت معطفها وجوربيها وجلست على كرسي قبالتنا في الصالة مستغرقة بقهقهة صاخبة.. تبادلنا أنا وهانا نظرة استغراب ثم رحنا نضحك

معها حتى قبل أن نعلم السبب الذي يجعلها منشرحة وتفقد صوابها إلى هذا الحد. وبين فاصلة ضحكٍ وأخرى بدأت تحكي.

رجل هندي تحرّش بها بأسلوب نصف مهذّب كما وصفته، وحين نهرته انزلقت قدماه ووقع في الطين إلى جانب سكة الحديد.

"أشفقت عليه فاقتربت منه لأساعده فأطلق عطسة وتحدر مخاطه إلى فمه، وقال يا لكِ من ساحرة، ها أنكِ أُصبتني بالزكام أيضاً".

وعادت تضحك.. قالت هانا إنها هي الأخرى تعرّضت للتحرّش قبل أشهر.. رجل في السبعين كاد يلمس مؤخرتها في السوبر ماركت.. تنبهت لحركته في اللحظة الأخيرة فاستدارت وضربته على يده بحقيبتها.

قال لها بصوت هامس: ما الذي كنتِ ستخسرينه لو فعلتْ؟.

ردت بهدوء: وما الذي كنت ستجده هناك لتتناوله أيها الضبع الأصلع الجائع؟.

انفجرت كمارا بقهقهة أشد وسقطت من فوق كرسيّها، وراحت تدق أرضية الصالة المفروشة بالسجاد بكعبيها كطفل جذل، وبطنها يعلو وينخفض.. بدت وكأن مسّاً أصابها.. انتقلت إلينا العدوى حتى دمعت عيوننا من الضحك. سألت: "وما الذي ذكّركِ بالضبع يا هانا؟".

قالت: "شكله.. كل رجل أنظر إليه يذكِّرني بحيوانٍ ما؟".

سألتها: "اللعنة، وما الحيوان الذي ترينه فيّ؟".

هذه المرّة كادت كمارا تختنق من الضحك وهي تصيح: "هيا قولي، قولي".

"لم أفكِّر بهذا.. أنت؟.. لم أفكِّر..لا يحصل الأمر مع الرجال كلهم".

"وكمارا، بماذا تذكّركِ".

"هذا لا يشمل النساء".

"هذا ما يسمّونه التمييز الجنسي".

"سمِّه ما شئت.. لا أبالي".

وقفت كمارا وكأنها فطنت أخيراً إلى غرابة ما قامت به، وقالت: "المعذرة، ماذا دهاني.. ذلك الأحمق.. في الطين.. منظرٌ ولا أروع".

حملتِ الأكياس واتجهتْ نحو المطبخ وما تزال تضحك.

كان ما يزال طعم النشوة في دمي وأنا أجلس قبالة رجل باكستاني في عربة القطار يتكلم بلكنة مضحكة عن استمرار المطر. وفهم بأني أرغب أن أبقى مع نفسي، ولا مزاج لدي لتبادل الحديث معه، فسكت.. وبعد وصولي بعشر دقائق إلى شقتي رن جرس الهاتف.. كانت هي.. سألتني إن كنت وصلت، وحذرتني من الإصابة

بالأنفلونزا، وقبل أن تغلق الهاتف شكرتني بنبرة دافئة و لم تقل لماذا، وألفيتني مرتبكاً قليلاً لأني لم أعرف كيف أرد عليها.

رمزي

للبرد رائحة حريفة في الليل. هي ليست عبير الحدائق البليلة ولا عبق النهر. بل أقرب ما تكون لرائحة الصدأ، أو ربما لرائحة المرض. وقدماي مثلجتان، تراودان الطريق الملتف نحو المحطة بالتفكير في شيء آخر؛ هانا الملتمّة على نفسها، تضغط على صدرها، ووجهها يتشنج بتأثير وجعٍ عابر.. تحدِّق أمامها بشفتين راعشتين ثم تلتفت إليّ لتبتسم وتقول: "هذا لا يُقلق"، وأصرُّ أن تتصل بطبيبها حالاً فترفض وتقول "أنت رجل تتآكلك الوساوس على الآخرين". فأرد: "على نفسي يا هانا، لأنه لو حصل لكِ مكروه فسأنتهي".. تضحك، وتهز إبهامها: "ستنسى، سرعان ما ستنسى، هكذا خلقنا الرب الرحيم.. النسيان وإلا لظلَّ معدل عمر الإنسان ثلاثين سنة". أقول: "ثلاثون سنة من راحة البال صفقة رابحة لنا لو وافق عليها الرب". تضحك، ويدهمها السعال فأملأ من أجلها قدح الماء فتهدأ وتقول: "عندك دوماً تعليق جاهز ترد به على أيِّ كلام". أعترض بفرك أرنبة أنفي وأنا أبتسم: "أنتِ من تلهمينني عزيزتي، معك يطفر الكلام عفوياً من اللسان".

"من أين تأتي بمثل هذه العبارات العجيبة.. يطفر الكلام؟".

"يسليني اللعب باللغة".

فنضحك، وتحدجنا كمارا وهي تحمل من أمامنا أطباق الطعام التي لم تفرغ بعد ولا تقول كلمة.. في نظرتها خيط من السخرية بيد أنها غير مستاءة. وحين تأتي ثانية لتنظيف المائدة تسألني: "سيد رمزي، لماذا لم تصبح كاتب رواياتٍ إذاً؟".

"لأني أفتقر إلى الموهبة".

أخطو مع رائحة البرد، وفوانيس أعمدة النور، والأسيجة الخشبية لأفنية البيوت. تغمرني ظلال أشجار أسل وأوكالبتوس وتفاح تنحدر مع الرصيف.. أعبر سكك الحديد وأنا أتلفت خشية أن يفاجئني قطار سريع.. أبصر قمراً ليمونياً هائماً وبضع نجوم فأشعر بالغرابة. ربما هي المرة الأولى التي أرى فيها القمر مذ وصلت لندن.. أجتاز ساحة تحفّها شجيرات قزمة. أشتري من كافتريا قهوة ساخنة بكوب كرتوني أرتشفها وأنا أمشي. تمرُّ بي امرأة ثملة تشتم رجلاً اسمه أرنست وتكاد تصطدم بي فأتجنبها فتسقط قطرات من القهوة على ظاهر يدي.. أمسح القطرات بلساني.. تعود المرأة فتجتازني بخطوات مترنحة وما زالت تشتم ذاك المدعو أرنست، وتشمل هذه المرة معه بشتائمها امرأة اسمها مارغريت. تستدير نحوي وتسأل إن كنت أتابع في الصحف

قصة امرأة مختفية منذ بعض الوقت اسمها نيكول. وحين أخبرها بأني لا أهتم بقصص الجرائم في الصحف همس: "لديّ بعض الشكوك". وتواصل طريقها نحو محطة القطار.. امرأة في الخامسة والثلاثين، تبدو من النوع الذي لا يشغلها هاجس الرشاقة، وتعيش أزمة عاطفية، أو تمر بمشكلات تتعلق بعملها.. تسبقني بقطع التذكرة لكنها تلبث واقفة على الرصيف فأصعد القطار وأرتمي على أقرب مقعدٍ خالٍ وما زلت أشعر بالبرد وبألم في عظامي. ومع بدء تزحلق العجلات على السكة تقبل المرأة الثملة وتجلس إلى جانبي من غير أن يظهر عليها أنها عرفتني.. أتوقع أن تحدِّثني ثانية عن نيكول المختفية لكنها تغلق عينيها وتنام.

تستيقظ بعد دقيقتين، وتسألني إن كانت نائمة منذ وقت طويل فأقول: لا هي دقيقتان أو ثلاث.

"اللعنة، أنا أميلي"

حين أصافحها تخنقني رائحة الخمر المنبعثة من فمها

"أنا رمزي".

"هل رأيت في المحطة رجلاً بشعر رمادي، وندبة على الخد الأيمن".

"لا".

"اللعنة".

ألاحظ أثر جرح على جبينها، لعلها أصيبت به قبل أيام قليلة.. تعود لتغمض عينيها فألتفت ناحية النافذة، وأتمنى أن تغفو، لكنها تعود لتسألني إن كنت من سكنة هذه المنطقة فأقول منزلي في أكسفورد وكنت في زيارة لصديقة مريضة.

نترل معاً في المحطة فتتركني لحسن الحظ وتؤجر أول سيارة تاكسي تصادفها فأتنفس بارتياح. تتوقف سيارة التاكسي بعد أمتار وتهبط منها راكضة باتجاهي. تقف أمامي لاهثة وتطلب أن أقرضها عشرون يورو وكأننا نعرف بعضاً من مدة طويلة. تقول إنها ستعيدها لي في أول فرصة.. أُخرج محفظتي ولا أعثر على ورقة من الفئات الصغيرة فأناولها ورقة من فئة الخمسين يورو.. تأخذها وتحاول اغتصاب ابتسامة فلا تستطيع.

"شكراً لك".

هانا

شربت كوب قهوتي، وبعد نصف ساعة أكلت نصف برتقالة.. لم يكن لديّ شيء لأفعله.. تصفحت الديلي تلغراف.. لم أكمل قراءة موضوع واحد.. جاءت كمارا في العاشرة والربع وانهمكت حالاً في التنظيف.. خرجت إلى الحديقة.. طبقة رقيقة من الثلج تغطي النباتات،

والبرد قارص.. أنزلت قلنسوتي على أذنيّ ورفعت ياقة معطفي لأغطي رقبتي.. حياني المستر رايت، جاري منذ الأزل، برفع يده وهو يمر في الشارع متدثراً بمعطف صوفي أسود.. أظنه ذاهباً إلى المتجر لشراء سجائر.. صار يعاند قدره مذ أخبره طبيبه الكفّ عن التدخين لأنه سيقتله.. تعالت قعقعة القطار المارق أمام المترل فتذكّرتُ رمزي.. لم يهاتفني منذ أسبوع.. لعله مريض.

في المرات الثلاث السابقة أنا الذي اتصلت به.. قررتُ ألا أتصل في هذه المرّة.. هي مسألة كرامة، ولكن ماذا لو كان في وضع لا يقدر معه على الاتصال.. غادر في ذلك النهار والمطر يتساقط بغزارة.. كانت معه مظلة ويرتدي معطفاً مطرياً فلماذا يمكن أن يُصاب بترلة برد.. بعد ساعتين بعث لي برسالة قصيرة لأني طلبت منه أن يطمئنني: "وصلت.. كوني بخير".. أتراه يشكو من شيء آخر؟. أو يواجه مشكلة ما؟ عدتُ إلى دفء المترل.. قالت كمارا إنها ستعد الشاي.. قلت: "أرجوكِ".

البخار المتصاعد من كوب الشاي ولهجة كمارا المضحكة أعادا لي بعض الانشراح.. أخذت هاتفي النقال وكتبت رسالة لرمزي: "مرحبا.. أرجو ألا تكون مريضاً". ردَّ بعد أقل من خمس دقائق: "لستُ مريضاً.. فقط لا أريد إزعاجكِ". كتبت: "أنت لا تزعجني".

كتب: "تثبتين كل يوم بأنكِ أعظم امرأة في العالم".. ضحكت.. يعجبني أحياناً هذا الهراء الشرقي، لكني لا أدري بم أجيب. بعد ساعة كتبت: "دعك من رومانسياتك المائعة.. تعال".

جاء عصراً.. بان على محياه الهم على الرغم من محاولته أن يكون مرحاً.. كنا نشرب الشاي ونأكل البسكويت حين باغته بسؤال: "ماذا هنالك؟ كأنك تخفي شيئاً غير سار في داخلك".. تردد في البدء.. تلعثم قليلاً.. وأخيراً حكى لي عن ابنته الدكتورة رحاب، وشكوكه حول علاقتها بالدكتور كولن؛ زميلها في المستشفى.. عمّا يعتقده نزقاً وتهوراً في سلوكها.. و لم أقاطعه حتى قال:

"أعرف ما ستقولين".

"وفي النهاية أنت لست مختلفاً كثيراً عنهم".

أشعل سيجارة.. ظل ساكتاً دقائق وفي عينيه قلق وعذاب.

"ليست المشكلة معي.. تعرفين كيف نحن هناك.. أخواها.. الأقرباء، المعارف.. عمامًا المنقبات.. ابن عمي الذي حذرني من مغبة وجود امرأة جميلة مثل رحاب في مدينة متحررة.. حين أفكر بهذا كله أختنق".

"إنها تنتمي لبيئة مغايرة، وعصر آخر، وليست مراهقة صغيرة.. ومن حقها أن تختار طريقة حياتها بعيدة عن أفقكم الضيّق".

أطلق ضحكة خافتة، متألمة، وراح يتفرس في وجهي.. سألته:

"ما هو أسوأ كابوس تتخيله بخصوصها".

"أن تحمل منه".

"هي طبيبة وتعرف كيف تتجنب هذا الاحتمال الذي هو كارثة في عالمكم".

"أتعتقدين أن كلامك هذا سيمنحني العزاء".

"لرجل مثلك.. لا".

"لا تقسي معي.. شرحت لكِ الأمر.. مشكلتنا أن هناك سلطة اجتماعية يستحيل التحرر منها".

" لم يستحيل؟ ألستم هنا، في بلد آخر.. أنت نفسك حدثتني عن الاندماج، وماذا بعد؟".

"نعم، ولكن حين أكون في قلب المشكلة..".

قاطعته بحدة:

"اللعنة، مشكلة.. أين هي المشكلة؟. أنت تفترض وتتخيل وتبني أحكاماً في ضوء مخاوفك".

"أكون مسروراً لو أنكِ اصطحبتني بجولة سير في الجوار".

أرتدي معطفي وقلنسوتي وقفازي..

"ألن تأخذي عصاكِ معكِ؟".

"لست عجوزاً كما تعتقد".

"لا أراكِ عجوزاً يا هانا".

نمشي.. خطواتنا وئيدة، موقّعة.. خواطرنا تتصادم في الصمت.. الصمت يرعشه حفيف الأشجار، وقهقهة طفلة تجري أمام والديها، ولحن موسيقي خافت يتناهى من مترل قريب.. أعجب كيف أن أمراً كهذا يجعله مهموماً إلى هذا الحد. فابنته لم تفعل شيئاً سوى أنها بنت علاقة حب مع زميلها الطبيب.. هي مساعدته.. طبيبة راشدة، حتى أنه ليس متأكداً إنْ كانا يمارسان الجنس.. وماذا لو كانا يفعلان؟.. سيكون سعيداً وفخوراً أمام نفسه إن ضاجعته أنا.. يغضبني هذا الانفصام في تفكيره.. يسوِّغه بأن الجنس خارج مؤسسة الزواج جريمة تلثم الشرف في معتقد الناس الذين تربطه بهم صلة قربى.. فهناك لا وجود لشيء اسمه استقلالية الفرد، لاسيما إذا كان أنثى.. الأنثى ملك الجماعة.. هذا ما يقوله.. ويؤكد أنه في قرارة نفسه ليس ضد أن تتزوج البنت بواحد من غير دينها، لكن هذا مستحيل هناك، وهو لا يستطيع أن يقطع جذره.. شيء بغيض.. لابد من أنه مشغول الذهن بالمسألة عينها.. يحدّق أمامه كأنه نسي المرأة التي بصحبته، ومن غير أن ينطق بكلمة واحدة.

ظهرت عربة المستر ماك مقبلة نحونا من نهاية الشارع بفوانيسها المضيئة.. التفتنا إلى بعضنا.. ابتسم فقلت: "حمداً للرب لأن العربة، أو هي فوانيسها الملونة، تعيدك إليّ". وأضفت: "يا لك من طفل".

"أنا طفلك يا هانا".

في هذه اللحظة وصلت العربة واجتازتنا ببطء.. رفع المستر ماك يده ملوّحاً لنا، وكذلك فعلت الشابة الراكبة في الخلف وابتسامة عريضة تشرق على وجهها.. وقف رمزي بوجه مخطوف وكأنه رأى الشيطان لتوِّه.. سأل بصوتٍ مخنوق:

"ماذا؟ ما بك؟".

"أتعرفين المرأة الجالسة في العربة؟".

"لا أعرفها، ما الذي يهمّكَ من أمرها".

"ربما كنتِ تعرفينها.. اسمها ليلي".

"لا توجد امرأة بهذا العمر في الحي اسمها ليلي.. من هي ليلي؟".

"لنعد إلى المنزل".

ما يُخيفني هو أنْ يراني الآخرون أُكلِّمُ نفسي في الشارع أو في القطار. عندها قد يتهامسون فيما بينهم: لماذا لا يُراجع طبيباً نفسانياً؟.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة فجراً حين فتحت رحاب باب الشقة.. كنت ما أزال مستيقظاً أقرأ في كتاب يتحدّث عن مستشرقين

آثاريين.. بدت منتشية، وابتسمت حين رأتني أخرج من باب غرفتي: (هاي دادي).. اقتربتُ منها فشممت رائحة خمر.. تقبضتْ أحشائي فقلت:

"لا تقولي لي إنكِ كنتِ في المستشفى".

"لا طبعاً.. كنت مع الدكتور كولن..".

قلتُ وأنا أكاد أختنق:

"أكنتِ معه في مترله؟".

"No.. في حفلة أقامها زميل لنا بمناسبة حصول بحثه على جائزة".

"قلتِ إنك ستتأخرين فحسبتُ أن اسمك في جدول الأطباء الخافرين.. لم تخبريني عن الحفلة".

"لم تسألني".

وضحكتْ.. كانت رائحة الخمر التي تفوح منها تصيبني بالغثيان.

"أنتِ سكرانة".

"لستُ كذلك.. شربتُ كأسين من النبيذ، لا أكثر.. تتكلم معي وكأنني مدمنة".

أوشكت على صفعها، غير أنني كظمت غيظي في اللحظة الأخيرة واكتفيت بالصراخ في وجهها.. لأول مرة أصرخ هكذا في وجه واحدٍ من أبنائي:

"يا لصلافتكِ".

كانت صرخة عاجزة تكسّرت مع ارتطامها بنظرتها المستغربة التي سمّرتها في عينيّ.. عدتُ أصرخ ثانية، وبصوتٍ يائس:

"لا تنظري في عينيّ هكذا".

أجابت بنبرة مرتعشة خافتة:

"أرجوك بابا.. في سنّك، التوتر والانفعال عدوان للقلب".

رحتُ أشتم القلب ونفسي ولندن والدكتور كولن والساعة السوداء التي وافقت فيها على المجيء إلى هنا.. وقبل أن تذهب إلى غرفتها قالت:

"أرجوك بابا.. اهدأ الآن.. قد يتصل الجيران بالشرطة إن أيقظهم صراخك".

كنت ألهث حين شتمت الجيران والشرطة ودخلت غرفتي.. جلستُ أمام المرآة محبطاً.. بدا لي الانتفاخ تحت عينيّ وتجاعيد الجبين إعلاناً عن هزيمة مدويّة.

لو رضيت رحاب بالزواج من قريبنا المهندس الذي طلب يدها في العراق لكنت متحرراً الآن من توجساتي وقلقي اليومي. رفضتْ بحجة أن شخصيته لا تعجبها وأنها لا يمكن أن تحبه أبداً..

دخنت سيجارتين، من ثم استغرقت في نوم متقطع. صحوت وقت الضحى واكتفيت في وجبة الفطور بنصف كوب شاي وقطعٍ صغيرة من الخبز والجبن. وبقيت أنظر جهة النافذة صامتاً ورحاب ترشف كوب شايها على مهل وتتحدث بصوتٍ واثق، تحاول إقناعي بأن الزمان غير الزمان، وأن العالم تغيّر، وأننا في بيئة علينا الاعتياد على أعرافها وتقاليدها، وأنها لم تعد صغيرة وتعرف كيف تحمي نفسها وسمعتها، وأن الدكتور كولن يحبها حقاً.. أنْ تكون في المكان الآخر فهذا يسلبك قدراً من سلطتك المعنوية على أبنائك..

أخوض على غير هدى في الشوارع.. أصعد قطاراً يحملني إلى محطة غريبة في الريف، والشمس ساطعة تبث دفئاً لذيذاً.. تجذبني الواجهة القوطية لكنيسة قديمة فأتأملها وفي روحي غصّة.. خلف بناية الكنيسة أسير بين شواهد مقبرة تظللها أشجار حور وتنوب.. أصغي لزعيق طائر العقعق ولهدير قطار يمرق في الجهة الثانية من نهر صغير. أصادف رجلاً فأسأله عن اسم النهر فيقول: نهر الخنزير.. لست متأكداً إن كان صادقاً أو يسخر مني.. تقبل امرأة عجوز تحمل باقة من الورد الملون موشحة بالياسمين لتضعها على قبر زوجها ربما أو على قبر ابن فقيد، أسألها هي الأخرى فتقول: "لهذا النهر أكثر من اسم. نحن في ضاحيتنا نسميه الزهرة".

أقول: "الزهرة أجمل من الخنزير".

لا أظنها سمعتني جيداً.. رسمت على طرف فمها طيف ابتسامة، وابتعدت بخطوات بطيئة.

تخميني أن هانا لن تفكِّر بالأمر إن حدثتها عن رحاب مثلما أفكِّر أنا.. ستقول؛ وأين المشكلة في أنْ تحبَّ فتاة راشدة شاباً طيباً وناجحاً يحبّها.. ولا أدري كيف سيكون رد فعلها إذا ما تطرقت إلى مسألة الدين والتقاليد وإلى رأيي بشأن العلاقة الجنسية خارج مؤسسة الزواج.. ستنعتني حتماً بالازدواجية والتخلف وما شابه.. أرمي بجسمي على مقعد خشبي في الشمس.. أقول في سرّي: نحن في عالمٍ ليس لنا.. أفطن إلى سخف عبارتي.. أباغت بولد وبنت مراهقين يسيران على ضفة النهر متشابكي الأذرع ويرمقانني ضاحكين.. أتراهما ضبطاني متلبساً بالكلام مع نفسي؟. أشعر بالخجل فأقوم مقرراً الذهاب إلى منزل هانا.. لن أرتاح إلا إذا فضفضتُ لها ما في دخيلتي، هذا الذي يثقل عليّ ويُشعرني بالتشوش والدوار.. أصرف النظر عن الاتصال بها الآن.. أقوم فيعود الولد والبنت المراهقان من الدرب عينه ويلوحان لي.. أرد على تلويحتهما برفع يدي وأضحك.. أهاتف هانا وأنا في طريق العودة إلى شقتي.. نتفق على موعد صباح اليوم التالي.. في الشقة أجد ورقة من رحاب موضوعة على أريكة في الصالة،

تعلمني فيها أنها ستتأخر في دوامها المسائي حتى الثانية عشرة ليلاً.. يخطر لي احتمال أن تكون برفقة الدكتور كولن في شقته.. أستبعد فكرة أن أذهب إلى المستشفى لأتأكد من وجودها.. ستُجرح مشاعرها في العمق، وقد يتسبب بشرخ رهيب بيني وبينها.. لا أعرف ما هي الخطوة المعقولة التي عليّ القيام بها.. تصلني رسالة منها على الموبايل تقول فيها إنها تركت لي في المطبخ لغدائي رزاً وشرائح دجاجٍ مسلوق ولبناً رائباً وسلطة خضار.

أتناول طعامي بارداً.. أدخن سيجارة.. أجلس في الصالة وأقرأ عشرين صفحة من كتاب (مستشرقون في مواقع الآثار في الشرق الأوسط).. أكون محظوظاً لو نمت القيلولة ساعة أو أكثر.. أبقى صاحياً في فراشي لمدة لا أعلمها.. أحرِّف مجرى تفكيري نحو الآثار والاستشراق كي لا أفكر برحاب.. يشبه هذا زوغاناً في منطقة ملغومة، وأنت تعتمد الحدس والحذق والحظ.. ماذا إن خذلك أيٌّ منها؟. أعود إلى حُنينة، إلى حيث يعلِّق المستر ديفيد على مقطع من رواية لجاكلين والغليون في فمه.. نهار مغبر حار قليلاً، وأمينة تطرد قطة أوشكت على سرقة لحم الضأن الذي قطّعته لمرق الباميا.. تقول جاكلين إنها لا تطيق رائحة الثوم لكنها تحب مرق البامياء المعدِّ بأنامل أمينة الساحرة. ويسألها المستر ديفيد عن خبز اللحم المنكّه بالكركم الذي يفضِّله على نصف

المأكولات الغربية، لِمَ لا تستخدمه سبباً لجريمة قتل في واحدة من رواياها، فتصيح أمينة من المطبخ إنها ستحضِّر العجين حالاً، فيقول ضاحكاً: إنها تسمعنا. وأمينة تفهم الإنكليزية الدارجة التي تخص شؤون البيت اليومية وتجيب بالعربية بطريقة يفهمها المستر ديفيد والمسز جاكلين. ولذا لا أضطر للتدخل مترجماً إلا لماماً. ويقرأ المستر ديفيد مقطعاً من رواية جاكلين يراها ركيكة بحاجة إلى لغة أكثر إقناعاً، غير أن جاكلين تتجاهل رأيه، وتومئ إلى رسالة هانا التي استلمتها هذا الصباح.

"هانا ستقطع علاقتها بسام.. تقول وصلنا إلى طريق مسدود". ويجيب المستر ديفيد وهو يضع أوراق مخطوطة الرواية التي في يده على الطاولة: "لست متفاجئاً.. هذا متوقع". ويسري في دمي تيار انتعاش بارد.. يسرني أن تقطع هانا علاقتها مع ذلك المدعو سام، فلعلها ستفكر بالمجيء إلى هنا. فأستأذن بالخروج لأفرِّغ انفعالي بالمشي ولو في قيظ ظهيرة تشرين الأول.

لن تفكِّر بي هانا بعدما تنفصل عن سام، ولن تقرر الالتحاق بوالديها في الحُنينة، وستغدو تفاصيل حياتها في لندن فجوة معتمة ليس بمقدوري استجلاءها. ولن أعرف إلا بعد أربعة عقود أنها أمضت تلك الأيام في حانات سوهو وعاشرت شلّة بوهيمية خططت للانضمام إلى فصائل

أميركا اللاتينية الثورية لولا أن أتاها خبر اغتيال أرنستو غيفارا في أحراش بوليفيا.

أغفو، حتى إذا استيقظت على إثر صوت إغلاق باب الشقة الخارجي وخرجت إلى الصالة وجدت رحاب قد جاءت.. ابتسمت وحيتني:

"آسفة بابا لأني أيقظتك".

رفعت رأسي إلى ساعة الحائط وراءها، وقلت كأني أكلِّم نفسي:

"لم أتوقع أن أنام طويلاً هكذا".



رمزي
الحُنينة.. ربيع 1967

ناداني المستر ديفيد بصوت مرح لألحق به.. كان يحمل بندقية صيد نوع Beretta بماسورة واحدة، وحوله يتقافز كلباه السلوقيان.. في الحرش عند كتف الجبل اصطاد طائري تدرج سمينين لعشائنا، وثلاثة أرانب رمادية طعاماً لكلبيه. فاضطرت نعيمة لتتأخر ساعة عن موعد انصرافها ريثما تنتف ريشي الطائرين وتنظفهما وتهيئهما للشوي، وقبضت مقابل هذا ربع دينار لا يُحتسب في ضمن أجرها الشهري، و لم يظهر عليها أنها فرحة لأجل ذلك أو ممتنة.

قال المستر ديفيد: "ستشاركنا جاكلين جلستنا". والمناسبة زجاجة ويسكي سكوتش جاءته هدية من صديق يعمل في موقع أثري في بابل.

كانت ليلة الخميس حيث اعتدنا أنا وهو، وقد يكون معنا أحياناً أحد ضيوفه، السهر والتسامر حتى الساعة الواحدة. وإذ ذاك نكون قد أجهزنا على زجاجة ويسكي أو جن كاملة، ولما ننته بعد من الغناء.

وقف المستر ديفيد يدندن بكلمات أغنية ما مقلِّباً سيخ الطائرين على نار الحطب.. قالت جاكلين: "أحكِ لي.. أريد سماع شيء غريب وطريف".. نظرت إلى السماء المكتظة بالنجوم.. أشرت إلى بنات نعش وحكيت قصتهن كما رواها أبي لي؛ الجنازة الأبدية تتبعها البنات السبع الباكيات لفقيد مجهول، والأخيرة منهن عرجاء.. ضحكت جاكلين.. قلت: "انظري، ذلك درب الكبش بعجاجه الذي خلّفه، والملاك جبريل يسحله لافتداء إسماعيل النبي".. سألت: "إسحق أم إسماعيل؟".. قلت ضاحكاً: "سنتأكد أمام الله في يوم الحساب".. قالت: "نعيمة تعرف قصصاً أغرب". قلت: "نعيمة وحدها قصة غريبة". سمعنا عواء ابن آوى، وأخذت الكلاب تنبح، وطلع قمر برتقالي مثلوم.. قالت جاكلين إنها تدون مثل هذه القصص التي حكيتها في دفتر مذكراتها. ونعيمة التي قلما تتكلم تحفظ عشرات

القصص بتفاصيل عجيبة عن ظهر قلب.. قال المستر ديفيد: " أخالها خارجة من بين الحجارة العتيقة لمعبد اكتشف لتوه.. تألفها في المكان وغريبة فيه.. تعمل بكد، وحين لا يكون لديها شيء يشغلها تجلس في ظل النخلة بصمت وقور مثل كاهنة بابلية في حضرة معبودها، كما لو أنها تتنصت لترانيم تسمعها وحدها. ولكن ماذا يدور في رأسها؟.. لا أحد في مقدوره أن يخمِّن.

قالت جاكلين:

"ما يُدهشني في نعيمة ساعتها البيولوجية المتقنة.. هذا النظام الرباني الطبيعي.. الدقة في التوقيت، كأنها مسيّرة تلبي نداء رسول خفي".

قلت: "هي تقرأ الأفكار، تقرأ الحظوظ، ولا أدري أية بلايا سوداء أخرى تقرأ.. أنا شخصياً أخافها.. أتجنبها.. ربما كان في مقدورها أن تُصيب من يؤذها بلعنة.. لن أُفاجأ إذا ما وقع زوجها تحت عجلات قطار وسُحقت عظامه".

ردّت بعد أن أخذت رشفة أخرى من كأسها الأولى: "أنا أتكلّم عن موهبة طبيعية ملموسة، عن ظاهرة نختبرها في كل يوم، أما أنت فتتكلم حديث خرافة".

قلت: "ليست خرافة مسز جاكلين.. وسترين".

قالت: "ولكن لماذا تذعن؟ لماذا تستسلم بذل لشبق ذلك الوحش الكسول الذي يسلبها نقودها ويغتصبها في كل ليلة، ويضربها"

قلت: "وكيف تعرفين هذا كله".

قالت: "أعرف.. حكت لي أشياء قليلة، ثم ألا ترى الكدمات على رقبتها، هناك أيضاً آثار أسنانه على كتفيها وذراعيها".

قلت: "لا، لم أر.. كيف لي أن أرى إذا كانت لابسة فوطتها طول الوقت".

قال المستر ديفيد: "نحن حتى لا نجرؤ على أن نلومها على شيء.. مع تلك النظرة القوية والملامح الجادة والفم المزموم لن تدعك أن تواجهها. فمن غير أن تتكلم توقفك عند حدِّك".

قالت جاكلين: "في ظرف آخر، في مكان آخر كان يمكن أن تكون قائدة جماهيرية، كاتبة مثل فرجينيا ووولف، مصممة أزياء كشانيل". ثم التفتت إليّ بعدما أتت على ثمالة كأسها الأولى، وأكلت حبات فستق من صحن صغير على طاولتنا.

"لا تعليق لديك، وربما تتساءل في سرك، ولماذا تهتم هذه الإنكليزية الحمقاء بخادمة من أهل البلاد حظها أفضل من حظوظ آلاف النساء اللواتي يكدحن في الطين ويعانين من أمراض لا يعرفن أسماءها، ويمتن قبل بلوغ الأربعين".

قلت متعجباً: "أنا لم أقل هذا، و لم أفكر به".

أدارت الشراب في كأسها ووضعت قطعة ثلج.

"أجل، انس.. لا شيء على ما يرام.. أتعرف ما هو أكثر شيء أحتقره؟. أوه، أنا أنطق ببلاهات.. انس عزيزي رمزي، ولنمرح قليلاً".

بصوته الأجش غنى المستر ديفيد لفرانك سيناترا، وبدا لي مضحكاً وبائساً قياساً بجاكلين لما فاجأتني، بعد الكأس الثانية، بصوت مترع بالقوة والعذوبة وهي تقلِّد دوريس داي حتى في مشيتها وطريقة رقصها في أفلامها. وانتبهت إلى أنها تشبهها في شكل فمها ووجنتيها المستديرتين.

ثم لمّا جلست أخيراً لاهثة، راحت تضحك بانشراح.. كان مفعول الخمرة قد دبّ فيها.. ملأت كأسها للمرّة الثالثة وأسقطت فيها قطعتي ثلج، وتفرّست في وجهي وكأنها تنظر إلى طفل شقي وقالت: "مستر رمزي أرسلك القدر إليّ لأعيد ابتكارك.. أنا هنا في مهمة رسولية".

وانطلقت تقهقه.. فتبسمت وقلت:

"أليس في كلامكِ شيء من الغرور؟".

قالت رافعة كأسها وعاقدة حاجبيها:

"بل كثير من الغرور.. أنا كاتبة وأحتاج إلى الطاقة الحيوية.. أحتاج أن أكون نرجسية ومغرورة وأنانية في مواقف.. أن أحب بعمق وأكره وأحقد وأحن وأشفق وأزدري وأشمئز.. أترى كم هي شاقة مهنة الكتابة العاهرة هذه؟".

جاء المستر ديفيد بالطائرين المشويين في صحن خزفي كبير، إلى جانب مقبلات بنكهة إنكليزية أحضرتها المسز جاكلين عصراً بنفسها.. قلت وأنا أقطع حصتي من اللحم وأضعه في صحني:

"كنت أعتقدها ممتعة؟".

"وهي كذلك أيضاً.. اللعنة.. وأشياء كثيرة أخرى".

"لعبة مع العالم".

قالت وهي ترمي قطعة لحم لقطة راحت تموء مقتربة من موضع جلوسهم:

"آه، أنت ذكي عزيزي رمزي.. أنت ذكي لعين.. تقول الشيء الذي أردت قوله.. كأنك تقرأ أفكاري.. أنتم تمتلكون مثل هذه القدرات الإعجازية، لهذا تجد هانا مسحورة بالشرق".

خامرني شعور بالارتياح لمّا ذكرت هانا حول أمرٍ يتعلق بي، وعدت لأتساءل في سري إن كانت جاكلين بحدسها تشم رائحة شغفي بابنتها.

وهو يلتهم لقمة كبيرة من اللحم، سأل المستر ديفيد: "عمّ تتحدثان؟".

"رمزي في روايتي التي شرعت بكتابتها".

صحت بإنكار ودهشة: "أنا؟".

"نعم، أنت الذي لا ترضى أن تغادر مخيلتي كلما جلستُ إلى الآلة الكاتبة".

ضحك المستر ديفيد وقال: "في هذا ورطة حقيقية يا صاحبي.. أنا شخصياً لا أتمنى أن أكون في موقفك".

سألتها برماً: "ولماذا أنا؟".

هزت جاكلين رأسها وقالت: "من الصعب أن أجيب على هذا السؤال.. هكذا يحدث الأمر في الكتابة، يحضر شخص ما في قلب المكان والحدث المتخيلين".

"ليس في حياتي ما يستحق أن يُروى".

"هذا ظنك، ولا يعنيني".

وضحكت.. جاراها ديفيد بالضحك.. نقلت نظراتي بينهما باستياء شاعراً أنهما ربما كانا يسخران منه.. قال المستر ديفيد:

"هي تمزح معك".

أخذت جاكلين جرعة صغيرة من كأسها، وقالت:

"لستُ أمزح ديفيد.. أنا جادة.. استعرت وجه رمزي وشخصيته وبعض سيرته، وجعلته في مواجهة تحديات قوية سيضطر معها لارتكاب جريمة.. أفكر إن كانت أجاثا ستوافقني إن تركته يفلت بجلده، فهو في النهاية يخلِّص العالم من وغدٍ حقير.. انظر.. يا للهول.. خطر لي الآن فقط وحتى لا أستهين بذكاء محققي المستر جيم روني وحتى أجنبه أن يكون مضحكة للقراء سأدعه يكتشف خيوط الجريمة، لكنه سيساعد بطلي في إبعاد الشبهات عنه".

الكأس الثالثة، ولحم طائر التدرج الذي أكلت منه مع المقبلات اللذيذة بنهم، وهواء الليل الذي بدأ يبرد، وسماء الليل العريضة المطرزة بملايين النجوم.. هذا كله بث في جاكلين نشوة متقدة فطفقت تغني ثانية، من غير أن تغادر كرسيها.. كانت أغنية تقطر بالأسى، سأعرف في ما بعد بأنها من الفولكلور الإيرلندي.



رمزي
الحُنينة أواخر الربيع 1967

تكف المسز جاكلين عن الكتابة فأخالني أخرج من رأسها. من شغفها السرّي. من طلاقتها الحرة وهي تحتسي قهوة الصباح، وتصغي لهمهمات الصحراء.. أخرج من بين سطورها كجني أخرق. وكلانا منبهر بالذهب المشتعل في الفجر الدافئ إذ تقف تنتظرني. وأنظرُ إلى قوامها بالبذلة الرياضية فتخرج هانا من حلمي حيث كل شيء عارٍ وصافٍ وعلى وشك التوهج.. هانا التي استحالت إلى سؤال حائر في أفقي اللاظي، في ظلمة دمي، في البئر العميق لخطيئتي اللاسعة مذ خلّف فيَّ جسدها أثر مذاق غامض لن أمسك بمثله حتى سن الكهولة. وبعد أربعين سنة تمنيت لو كنت أخبرت المسز جاكلين يوم ذاك بأننا

لسنا شخصيات عالقة في قصصها.. العالم أكثر فوضى من أية قصة تخطر على بال أي أحد.. في كل قصة منطق ما، غير أن ما جرى معنا لا منطق له.. ويكون الأوان قد فات، فلن يمهلها سرطان المبيض بعد اكتشافه متأخراً جداً إلا شهرين أو ثلاثة فتلحق بزوجها الذي رحل عنها إلى بارئه قبلها بسنتين.. ولن يكون مجدياً أن أقول هذا لهانا. هانا التي حين أراها للمرة الأولى بعد ذلك الفراق المضني الطويل سيخيب ظني كثيراً لأن امرأة الظل التي بقيت ماكثة في إهابي كحلم متوقد لن تشبه المرأة الباردة، النكدة، غريبة الأطوار قليلاً، وهي تحكي في مترلها بضاحية ريتس في لندن.

سبقتني بالجري.. أعانتني خطواتي الطويلة السريعة على اجتيازها.. شتمت وضحكتْ وضحكتُ، ورحنا نسرع نحو الشمس الخارجة من بين التلال.. مررنا برعاة وقطعان ماشية، مررنا بنساء يحملن على ظهورهن في جوالات ضخمة أشواكاً يابسة لحرقها في تنانيرهن الطينية، مررنا بفلاحين يحملون على أكتفاهم مساحي حادة النهايات ماضين لحرث حقول الصيف. وعبرت فوقنا أسراب من طيور الغاق واللقالق والغربان. وقريباً من أجمة طوقت أشجار النخل والغرب فيها الأشواك تقافزت أمامنا القبرات.

كانت الشجيرات البرّية أقصر من أن تمنحنا ظلاً إلا إذا تمددنا على التراب.. علّقت جاكلين: "الحر جاء مبكراً". قلت "ربيعنا أسابيع قليلة".. ولم تكن الشمس قد ارتفعت عالياً بعد.. اقترحت أن نعود لكنها أبت.. لم ترد أن تستسلم طالما قررت الوصول حتى الهضبة الشرقية.. هي تريد أن تخسر بضعة أرطال من وزنها، تجرجر قدميها صعداً أمامي. ترتدي سروالاً رياضياً أزرق عليها شعار نادي تشيلسي الذي تعشقه.. ضاق على جسمها السروال فأفصح وركاها وظهرها وفخذاها عن كتلها الحقيقية.. ليست سمينة كما تعتقد هي، لكنه وسواس الرشاقة الذي يسطو على أدمغة نساء الغرب منذ بعض الوقت. وانحدرت على قميصها بقعة من العرق على طول عمودها الفقري وهي تؤدي حركات بذراعيها من غير أن تتوقف عن السير.. حتى شكل قوامها من الخلف يجعلها تشبه دوريس داي.. سأخبرها بانطباعي هذا.. "مسز جاكلين" وعاودت الجري ببطء وأنا وراءها، ولم تلتفت: "ماذا؟.. "انظري قدام رجليكِ.. منذ الآن ستغادر الأفاعي سباتها الشتوي". ما الذي أخشاه من الجهر بتلك الملاحظة.. أحسبها ستسرّ، غير أنني بقيت ساكتاً.

كان العشب يصفر، والشجيرات القزمة تتكاثف وهي تستطيع مقاومة شراسة الصيف.. انعطفنا فصرنا بموازاة ربوة السكة الحديد..

وقفنا نراقب عمال صيانة السكك وهم يدفعون عربة الطرزينة الصغيرة ثم يركبونها فتمضي بهم مسافة مائة متر قبل أن يترلوا ثانية ويدفعوها.. قالت جاكلين ضاحكة وهي تمسح عرق جبينها ووجهها ورقبتها بمنديل مخملي أبيض: "هذه لعبة أطفال.. لابد من أنهم يتسلون جيداً". قلت: "لا أظنه عملاً ممتعاً.. تصوري في هذا الحر". "لو كانت معنا هانا لرجتهم أن تركب، ولن يهمّها إلى أين سوف تصل". بذكرها لاسم ابنتها شعرت برشقة باردة تعبر صدري، وكدت أسألها عن أخبار هانا.. ترددت.. أو خفت من أن تقول التأم شمل هانا مع سام وتزوجت منه، أو تزوجت من غيره.. أن يُلفظ باسم هانا تحت هذه الشمس التي بدأت تسخن أكثر وأكثر يكفيني في هذه اللحظات.. وأنا ممتن للحظ لأني هنا مع أمها.. أشعر وكأن وجودي مع أبويها يبقي خيط صلتي الروحية معها سليماً.. تلتفت مسز جاكلين نحوي وتقول بخبث: "ما بال عقلك يا صاح؟". أرمقها بنصف التفاتة من وجهي وأخشى أن تكون نظرتي غبية.. أقول مازحاً لكي أظهر طبيعياً: "أتخيل هانا وهي جالسة تصفق وتقهقه على مقدمة الطرزينة والعمال يدفعونها ويغنون".

تأملتني بعينين راحتا ترمشان بسبب القيظ فعادت لتمسح وجهها بالمنديل.. بدت وكأنها سمعت للتو هذر شخص ممسوس.. قالت:

"أعرف يا رمزي أنك تفكر بها".

شعرت بخض مفاجئ قلب معدتي.. قلت بنبرة مرتجفة:

"ولماذا أكون أفكر بها؟ ماذا تعنين؟".

"ذلك اليوم مع سام حين خرجتْ غاضبة ولحقت بها كان على هذا الطريق نفسه، أليس كذلك؟".

بقي فمي فاغراً أنتظر ماذا يمكن أن تقول بعد.

"ساعتها، ما الذي حصل بينكما؟".

"لا شيء.. ماذا يمكن أن يحصل؟".

حدجتني وهي تضيّق ما بين أجفانها وكأنها على وشك القول: "لست حمقاء أيها الكذّاب". واستأنفت الجري.. ربما قطعت عشرين أو ثلاثين متراً قبل أن أخرج من توهاني وأركض في أعقابها.. ورحت أعاين شقرة شعرها وهي تلمع في ضوء النهار.. هذه المجنونة لا تأبه حتى وإن كانت الشمس الآخذة بالعلو تؤذيها.. لعلها تريد مناكدتي.. أن تثبت بأنها الأقوى.. تقف وهي على بعد عشر أمتار مني وأقف أنا أيضاً.. تنحني واضعة يديها على ركبتيها وهي تلهث وتتصبب عرقاً.. العرق يرسم دائرتين فاضحتين على مؤخرة سروالها.. أقترب منها وأقول عبر لهاثي المتقطع: "مسز جاكلين، علينا أن نرجع". تستقيم بجذعها وتنظر إليّ.. اُفاجأ بوجهها وقد احمرّ حتى غدا مثل شريحة

شاوندر مسلوقة.. تقول وقد شاب نبرهما الضعف: "كان غباءً أن أرفض اقتراحك بحمل مطرة الماء معنا". سيلومنا مستر ديفيد بطريقة لاذعة إذا ما أصيب أحدنا أو كلانا بضربة شمس.. أعثر على قطعة كرتون متربة.. أنفض عنها ما أستطيع من التراب العالق وأعطيها لها.. "اجعلي منها مظلة لرأسكِ فالحر يشتد".. تأخذها مني وتقول: "وماذا عنك؟". "أنا ابن المكان وأتحمّل". تصدر ضحكة جافة وتقول: "هراء". نمشي صامتين وأنا أستعيد ما قالته لي بشأن هانا وتلك الظهيرة لمّا تركت المترل غاضبة وطلب مني المستر ديفيد أن ألحق بها فيما كان سام يجلس بملامح متصلبة وكأنه يضع قناعاً.. يفكر الآن أن هانا التي ضمخت روحه لبضع دقائق بعطر الفردوس توارت، وربما إلى الأبد في ثلمة من نسيج الزمان.. واستولى عليه إحساس بالوحشة والضياع..

ود لو كان معه علبة دخانه.. وتمنى أن تتحدث المسز جاكلين مرة أخرى عن ابنتها التي تراسلها ولا يعرف هو ماذا تتضمن تلك الرسائل كلها التي تصل مرتين في الشهر. يستلمها من بريد الناحية ويضمها إلى صدره.. يشمها، لكنه أبداً لا يتجرأ على فتح واحدة منها.. يتملى بعينين ملؤهما الحنان خطها المتعرج بالحبر الأزرق.. ومن ثم يضع حافة

المظروف المغلق بين شفتيه ويطبق أجفانه فيخيّل إليه أنه مستغرق في قُبلة طويلة هائئة مع هانا.

وصلنا المترل والمسز جاكلين في وضع تعيس.. كانت تعاني من الغثيان وتتنفس بصعوبة، وتقيأت سائلاً أصفر.. جلست في الصالة وأنا مملوءٌ بالندم.. كان عليّ أن ألح عليها أكثر لنعود قبل الآن.. قال لي المستر ديفيد وهو يدخن الغليون: "أعرف كم هي عنيدة، لكن لا تقلق، ستكون على ما يرام".. استلقت على الأريكة واضعة حول رأسها فوطة مبللة.. أعطتها أمينة قليلاً من اللبن الرائب المخفف والمخفوق بالماء المالح.. قالت إنها تشعر بالضعف والدوار.. كان جسمها ساخناً أيضاً.. خلع عنها المستر ديفيد قميصها وسروالها الرياضي فبقيت بحمالة الصدر واللباس الداخلي، وقال: هذه أعراض ضربة الشمس.. انسحبت محرجاً إلى الباحة.. نقلوها إلى غرفتها وعملوا لها كمادات باردة وشغلوا المروحة.. حين عدت إلى الصالة ثانية اقترحت أن نأخذها إلى مستوصف الناحية بالسيارة، قال المستر ديفيد: "في هذا الجو الجهنمي ستموت في منتصف الطريق".. بعد نصف ساعة عرفت أن درجة حرارتها انخفضت قليلاً وبدأت حالتها تتحسن.. تناولنا أنا والمستر ديفيد وجبة الغداء بلا شهية.. وحتى المغرب لم أبرح مترل المستر ديفيد إلى أن اطمأننت تماماً.. في مترلي

تعريت وأخذت حماماً بارداً وتمددت على فراشي وأنا أستمع إلى إذاعة الـــ (BBC) وصوت العرب من القاهرة.. كانت طبول الحرب تقرع والأصداء تصلنا.



شتاء 2005

من خلال نافذة العربة لا يرى الشمس ولا ظل القطار المتباطئ.. السماء زرقتها براقة هادئة.. امرأة ببنطال جينز تدفع عربة طفل. شابان بملابس رياضية حمراء يهرولان صاعدين ربوة معشبة. يحط طائران على شجرة دلب معمرة. إعلانات نيون، محمولة على أعمدة معدنية، لمواد تجميل وساعات. زوجان عجوزان يهمان بدخول متنزه صغير. متاجر بواجهات زجاجية عريضة. بناية المحطة الكئيبة بتصميمها الذي يعود للعقد الثاني من القرن العشرين. يتوقف القطار فينزل وراء شابتين بسراويل قصيرة، فيلقى حشداً من فتيات صغيرات صاخبات يتهيأن للصعود.

قبل ساعتين أرسلت له كمارا رسالة قصيرة: "السيدة ماير في المستشفى". لم تقل في أي مستشفى وما طبيعة مرض هانا.. لم تجب على رسالتيه اللتين استفسر فيهما عمّا حدث فاضطر أن يكلِّمها. عرف منها بصعوبة أن وعكة ألمت بالسيدة..

لم تخبره هانا من قبل أنها مريضة.. عرف اسم المستشفى، وبمساعدة محمود استدل من الإنترنت على موقعه. وقف على الرصيف العريض يتلفت. سار نحو زاوية الشارع خلف بناية المحطة، وهناك تكلم مع سائق سيارة أجرة. المسافة إلى المستشفى لا تتعدى الثلاثة كيلومترات. وقبل أن يدخل مر على متجر لبيع الأزهار.. انتقى باقة كبيرة.

لم يجد صعوبة في الوصول إلى غرفة هانا.. كانت كمارا هناك..

"أوووه.. جئت بسرعة.. شكرا لك".

أعطى الباقة لكمارا وجلس على حافة السرير وانحنى معانقاً هانا الراقدة بوجه شاحب وعينين عكرتين وقبّل جبينها..

"هانا، ما الذي تشكين منه؟".

"لا شيء مقلق".

"كيف.. أنتِ في ردهة الأمراض الصدرية.. أهي مشكلة في القلب؟".

"من المحتمل انسداد خفيف في الشريان التاجي".

"يا الله.. منذ متى؟".

"كانت هناك إشارة منذ بضعة شهور، لم أهتم لها.. الطبيب يقول لابد من عملية قسطرة".

"أتتوقعين ضرورة عملية جراحية؟".

"آمل أن تكون القسطرة كافية".

قال بالعربية: "إن شاء الله" وأمسك يدها. ابتسمت وقالت:

"تبدو مضطرباً.. سيكون كل شيء على ما يرام".

قالت كمارا: "الطبيب أوصى ألا تتكلم كثيراً".

"لا تتكلمي هانا.. أنا الآخر سأصمت".

تسأل كمارا: "شاي أم قهوة؟"

"شاي"

يقوم ليجلس على الكرسي الجلدي إلى جانب سريرها.. يداه معقودتان على صدره وعيناه المصوبتان إليها مترعتان بالتوجس.. يحتسي فنجان الشاي على مهل من غير أن يشيح بنظره عنها.. تقول مع ضحكة هشة خافتة:

"تبدو مثل مراهق عاشق".

"ذلك الشاب لم يكبر قط.. ما زال في عمر السادسة والعشرين".

"ما زال الأحمق نفسه".

"صدقتِ"

ضحكا.. قالت كمارا:

" الطبيب أوصى...".

"سأصمت".

ويصمت لوقت لا يعنى بتحديده حتى تجيء الممرضة لتقيس الضغط والسكر والنبض، وتجري تخطيط قلب آخر، وتطلب منه أن يغادر.. يقوم وما يزال يشملها بنظرة تفيض حناناً.. يسأل الممرضة:

"متى ستخرج؟"

"غداً مساءً".

"هانا، ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك؟".

"لقد فعلت".

"كوني بخير. سآتي غداً، بعد الظهر".

يخرج إلى الليل البارد.. يشعل سيجارة ويمشي باتجاه المحطة.

مساء اليوم التالي

كانت قادرة على المشي حتى سيارتها التي أوقفتها كمارا أمام بوابة المستشفى.. جلست في المقعد الخلفي وهو إلى جانبها.. أخبرته أن

طبيبها يعتقد أن حالتها مستقرة الآن، ولكن لابد من القسطرة كي يقرروا في ضوئها طبيعة العلاج.. وعليها أن تتبع الحمية في الأكل، لتقلل نسبة الكولسترول وتتجنب ارتفاع ضغط الدم. ولأجل ذلك ألزمها بتناول الأسبرين وبعض الأقراص الخاصة بالوقاية من الدهون والضغط. تمنى أن يمسك يدها ولم يفعل. لعله لم يرد أن يخطر لها أنه يستغل ضعفها للتقرب منها جسدياً. كان ينظر أمامه حين راحت هي تحك وريداً في ظاهر يده المستريحة على ركبته بظفر خنصرها.

بفم فاغر استدار بوجهه نحوها.. كانت تنظر إلى يده مستمرة بحك أوردته الظاهرة، وعلى شفتيها ترتسم شبه ابتسامة عطوف.. قلب يده واحتضن خنصرها بخنصره، ثم احتوى كفها براحته وضغط عليها برقة.. لم تسحب يدها، ولم تقل كلمة.. فيما موجة من الراحة تغمره ممزوجة بخيط ضئيل من الأسى.. وكان يعرف أن حرارته تتسرب إلى أغوارها خلل كفها الباردة. فيضغط أكثر من غير أن يؤلمها.

كان وقت ما بعد الظهيرة ربيعياً مشرقاً.. سألت كمارا إنْ كانا يفضلان الاستماع إلى الموسيقى.. قالت هانا:

"من فضلكِ".

كان هو الآخر بحاجة إلى ما يزيد من استرخائه وما يوقف الطنين في أذنيه.

ترقرق لحن قوي، مبهج.. قال:
"الدخول إلى الجنة.. إفانجلي أوديسياس باباثناسيو".

عشية العيد

وجد نفسه ثانية في غرفة البروفيسور رايت.. كان كمن خرج من حلم، أو ما زال فيه.. ثمة لوحة كبيرة نسبياً (1 × 1،5 متر) تتوسط الحائط الجانبي، مرسومة بأسلوب (بول كيلي).. خمّن أنها مقلدة بريشة رسام معاصر بارع؛ وجه أخضر ينبثق من جذع خشبي، وأصابع حمر تشبه الكماشات فوقه، وفي موازاته أربع دوائر صفر؛ أقمار مريضة على خلفية زرقاء.

حاول أن يتذكر إن كانت اللوحة في مكانها الحالي في هذه الغرفة يوم التقى البروفيسور في المرة السابقة، أو أنهم وضعوها في ما بعد.. خطر له أن لوحة كهذه كانت لتلفت انتباهه قطعاً حتى وإن كان ساعتها تحت ضغط نفسي صعب. وتساءل في دخيلته في ما إذا لم يكونوا قاصدين تعليقها قبالته حيث سيجلس على الكرسي الوحيد أمام منضدة الماهاغوني الصقيلة لإحداث تأثير عقلي أو سيكولوجي عليه.

حين أقبل البروفيسور رايت أخيراً بوجه ضاحك وصافحه، قال وهو يشير إلى اللوحة:

"عفواً بروفيسور.. أتعتقد أن هذه الكماشات فوق رقبة الرجل توحي بالتهديد؟".

تأمل البروفيسور اللوحة دقيقة أو أكثر قبل أن يجلس ويطلب من رمزي الجلوس.

"لستُ متأكداً بروفيسور رمزي، واقسم أنني لم أمارس مهنة النقد التشكيلي من قبل".

وانفجر ضاحكاً.. وضحك رمزي مجاراة له:

"أقصد.. اسمح لي.. فقط جال في رأسي هذا السؤال: ما الوظيفة التي يمكن للوحة كهذه أن تؤديها في غرفة استجواب؟".

تقلصت ملامح الدكتور رايت وقال بنبرة امتعاض:

"بروفيسور رمزي.. أرجو أن تفهم أن مكتبي ليس غرفة استجواب. ولسنا مؤسسة أمنية من أي نوع. ولا علاقة لنا بأية مؤسسة من هذا القبيل.. أنت هنا ضيفنا، ونتداول بشأن عمل علمي مشترك".

"أن أعينكم للوصول إلى ماهية الحلقة المفقودة".

"انظر بروفيسور.. لسنا بصدد لغز مثل ذاك الذي يعالجه دان براون في رواياته.. ولا نريد إثبات افتراض ميتافيزيقي.. نحن رائدنا العلم".

دخلت فتاة نحيفة في العشرين تحمل صينية عليها فنجانا قهوة.. قال البروفيسور رايت:

"نعرف قهوتك التي تفضل بروفيسور".

"شكراً بروفيسور.. يفيد مع هذا البرد شرب أي شيء ساخن".

قدم البروفيسور رايت علبة مفتوحة، مغلفة بقماش بني، لرمزي الذي التقط منها سيجاراً كوبياً ذا رائحة مريحة.. أشعل كلٌ منهما سيجاره.. انتاب رمزي شعور فجائي بالمرح.. قال وكأنه يرمي إلى استفزاز رفيقه:

"إنه أمر مسلٍ أن تُقحم في مغامرة وأنت على أعتاب الشيخوخة".

" لم أفهمك".

"هذا الذي يحدث معي.. كنت أعتقد أن لندن ستكون مملة، لاسيما في الشتاء.. يظهر أن بانتظاري أشياء مثيرة".

"تربكني بروفيسور.. لا أدري إن كنت مستاءً أم متحمساً؟".

"أشعر بالإثارة.. أرجو أن نبدأ بلا مقدمات.. وبالمناسبة هذا سيجار فاخر".

"يسرني هذا بروفيسور.. أرجو أنك تحقق تقدماً في علاقتك بالسيدة ماير".

سرت صعقة خفيفة على جلد رمزي.. نفث دخان سيجاره وقال:

"أرجو ألا نورط هانا في لعبتنا".

"لسنا بمعرض توريط أحد.. كل ما نفعله قانوني، ومثمر علمياً ولن يؤذي أياً كان".

"عندنا مثل يقول: حساب الحقل غير حساب البيدر.. أخشى من التضحيات العرضية".

"صدقني بروفيسور رمزي.. نحن حريصون أكثر منك على سلامتها.. لا تنس أنها مواطنتنا.. شرطنا الأول ألا تطلعها في الوقت الحاضر على اتفاقنا".

"أهناك اتفاق؟".

"هذا ما نأمله".

"هات من الأخير بروفيسور.. ما الذي تتطلع إليه؟".

"أن تصل إلى أوراق البروفيسور ديفيد".

"وأن أسرقها وأجلبها إليك".

"لا، لا بروفيسور رمزي.. لِمَ تنظر دوماً إلى الجانب السيئ من الأمور؟".

"وهل هناك جانب غير سيئ في الأمر الذي تحدثني عنه؟"

"مثل تلك الأوراق ملك البشرية كلها".

"دعني أقول شيئاً بروفيسور، وقد يزعجك ويفاجئك.. أنت لا تريد الأوراق لكي تنشرها في مطلق الأحوال.. أنت تخاف أن يكون فيها ما ينسف ما تعتقده ويقع في أيدي آخرين".

نقر البروفيسور رايت بأصابعه على طرف المكتب الذي يجلس خلفه وأخذ مجة من سيجاره، وقال:

"لماذا لا تقول إننا نريد جلاء الحقائق، ونخاف مما قد تسببه الاجتهادات المتطرفة التي عُرف بها البروفيسور ديفيد".

"إذن أنتم تخشون من أن يكون في تلك الأوراق ما يربك ثقافتكم القارّة".

"أنت تحيل مخاوفك إلى استنتاجات بروفيسور".

"لن أخدع هانا".

"لابد من أنك تمتلك طرقاً ذكية، لا تخطر الآن على بالي".

"أرى أنكم لم تعطلوا بالعيد".

"توقعت أن تسأل هذا السؤال منذ البدء.. لا عطلة للعلم بروفيسور".

أطفأت سيجاري في المرمدة ونهضت.. نهض البروفيسور رايت، وقال:

"أنا آسف لأني شغلتك في يوم عيد.. هل تسمح بإعطائنا رقم حسابك المصرفي".

"لِمَ؟".

"لنحول لك مكافأة استشاراتك، 20000 يورو، وستزداد بكثير كلما تقدمنا في العمل".

"آسف بروفيسور.. لا أستحق هذا المبلغ.. لست مستشاراً في مؤسستك".

"يمكن أن نجعلك واحداً من الفريق.. رجل بخبرتك وذكائك...".

"أكرر أسفي.. وأقول ثانية؛ لا".

"ستكون هناك فرصة أخرى للتفاهم"

ومدّ يده.. وجدت أنه من سوء اللياقة أن اتركه وأمشي.. صافحته:

"عيد ميلاد سعيد"

"عيد ميلاد سعيد لك أيضاً بروفيسور رمزي".

المدينةُ في حلّة عيد، تحت سماء رصاصية،.. يندف الثلج على الحدائق، على مظلات المتاجر، على الأرصفة والمارة، على السيارات والمنازل،

وعلى المحطة والقطار الخارج منها.. يحيل مشاعري إلى بياض، إلى فراغ بارد.. لتوّي انتهيت من استجواب البروفيسور رايت.. يقول؛ هي محادثة عمل، تفاوض بين شريكين متساويين.. كلامه يجعلني أضحك.. لست مخيراً.. أسترجع مشهد أصابع الحديد الشوكية على مؤخرة الرأس في اللوحة الزائفة.. سأكمل الطريق إلى مترل هانا ماشياً، تحت ثلج العيد..

تفتح كمارا الباب، وتهمس في أذني؛ "السيدة جلبت شجرة ميلاد مزدانة.. لم تفعلها منذ رحيل والديها".. أدخن سيجارة في الصالة، على أحد الكرسيين القريبين من الموقد.. أتأمل النجمة الفضية أعلى الشجرة.. السيدة في الحمام، تمرر الصابون على بطنها الصغير وردفيها شبه المكتترين. تحك به شعر عانتها وما تحته، وثمة تتشكل فقاعات مثل غيوم الصيف.. تنحني وينساب الصابون على فخذيها الأبيضين.. تستقيم وتدعك رقبتها، ونهديها السمينين وتعصرهما على مهل.. أصابهما بعض الترهل بفعل الزمن لكنهما جميلان.. ينتزعه من خياله الذي سرح مع دخان سيجارته صوت هانا وهي ما تزال متدثرة بروب الحمام ومنشفة حمراء على رأسها، تخطو نحو الموقد المشتعل: "هاي رمزي، ما لك؟ تبدو كمن سرق لص محفظته".

"لن أبالي إذا ما سرق أحدهم محفظتي"

تأتي كمارا بصينية القهوة.. تضع هانا أسطوانة على الغرامفون.. تنطلق أغنية خفيفة بصوت أنثوي رخيم مع موسيقى سكسفون شجية.. تجلس على الكرسي الآخر قبالة الموقد.. تقول ضاحكة:

"جرب أن يسرقها أحدهم، ولنر كيف سيكون رد فعلك".

يرتشفان قهوتهما.

"هل أنت على ما يرام".

"كنت معهم".

"يمكننا أن نتكلم مع الشرطة".

"لا، هم لم يضغطوا عليّ في شيء.. كلهم ودودون.. ماذا أقول للشرطة؟".

"ماذا يريدون؟".

"أخبرتكِ.. البروفيسور رايت يريد عقد صفقة".

"صفقة؟ حول أي شيء؟".

"لا أدري على وجه التحديد.. شيء يتعلق بلقى آثارية تكشف عن معلومات جديدة.. ربما لها علاقة بجذور الأديان السماوية".

"ماذا تكون طبيعة المنظمة التي تهتم بمثل هذه الأمور؟".

"الحلقة المفقودة؟".

"تجنب استخدام هذه العبارة اليوم".

كانت تمزح، بيد أني سرحت بتفكيري بعيداً، توالت صور غير مترابطة مبهمة على صفحة ذهني في شريط سريع.

"هل أنت قلق؟".

"أتعرفين.. هم يعتقدون أن ترددي على بيتك له علاقة بهذا".

مطت هانا شفتيها.. ناولت فنجانها لكمارا.. شربتُ حتى أحسست بالتصاق حبيبات الثفل على شفتي، وناولتها فنجاني أيضاً.. راحت هانا تراقب الجمرات في الموقد.. عادت كمارا وذهبتا معاً إلى غرفة هانا.. خمنت أن كمارا ستساعد هانا في ارتداء ملابسها.. كانت على الطاولة صحيفة محلية باسم (Syphilis curtain) خاصة بالأخبار الخفيفة والفضائح.. قرأت تقريراً قصيراً عن انتحار فتاة في الثانية والعشرين من عمرها بسبب فشل علاقة عاطفية، وآخر عن مهاجر شاب من غانا تزوج من عجوز بريطانية بيضاء، وثالث يحكي قصة سيدة تكتشف أن زوجها أقام علاقات مع ثلاث من صديقاتها.. ورابع عن تصريح لناطق باسم الشرطة يتحدث عن ملابسات طعن شاب آسيوي من قبل مجهول بسكين.

هانا

ما كان لطفه مفتعلاً.. تصرّف وكأنه مسؤول عني، عن عافيتي.. وكأنني أخصّه أكثر مما أخصُّ أيّ أحد في هذا العالم.. الرقّة التي في صوته طبيعية، صادرة من قلب متيّم مترع بالشغف.. تنتابني رعشة خفيفة من السرور إذ يضع يده على كتفي. أكاد أشعر بفيض حنانه يخترق جلدي فيسري في بدني كله. هل أقول إن في هذا الاهتمام الذي يغمرني به شيء من نفحة الأبوة؟ من حدب الأب على ابنة مريضة يخاف أن يفقدها. من شفقة تُهيّج دمعة تترقرق في عينيه. بالتماعة الدمع في عينيه أحسُّ شفقة حارقة تهب باتجاهين؛ عليّ وعلى نفسه.

"تحتاجين للراحة بضعة أيام يا هانا.. لا تقومي بأي عمل".

"معي كمارا".

"وسأكون أنا معكِ في الأوقات التي تغادر فيها كمارا.. لا يجب أن تبقي وحيدة حتى نطمئن".

"لا تعقّد الأمور.. ليس الوضع بهذه الخطورة".

"لا، ليس هناك من خطورة.. فقط لابد من وجود أحد معك طوال الوقت".

"اذهب الآن لتستريح قليلاً في منزلك، لا أريد أن أشغلك"

"تشغلينني؟ بحقكِ يا هانا، تعرفين أنه لا عمل لدي.. أنا رجل متقاعد".

غادر في العاشرة مساءً بعد جملة وصايا وجهها لي ولكمارا، بنبرة رجاءٍ، لا أمر.

قالت كمارا:

"مستر رمزي شخص طيب، لكنه مثل العجائز كلهم يلحُّ كثيراً".

"ماذا تقصدين؟. العجائز كلهم؟".

ارتبكتْ.. شهقتْ، وابتسمتْ باستحياء:

"لستُ، لستُ أقصد".

ضحكتُ.. استدركتْ:

"أنتِ لستِ عجوزاً مثله مسز هانا".

نضحك معاً.

"اللعنة، دافعي عن فكرتكِ. لا تتراجعي".

يتصل بكمارا صباحاً، لا بي. تقول:

"بعد ساعة سيكون هنا".

يدخل حاملاً سلة ورد، وكيس فاكهة، وكتاباً. طالباً من كمارا أن تغادر إلى بيتها لترتاح:

"تعالي غداً صباحاً.. سنتناوب على البقاء هنا حتى الأسبوع القادم".

أقول:

"هذا كثير.. لا أدري كيف أشكرك".

يقبِّل أصابعي ضاحكاً ويلثم جبيني وهو يجلس إلى جانبي على الأريكة في الصالة:

"قالت لي كمارا إنك نمتِ جيداً، وهذا خبر مفرح".

"أي كتاب جلبت؟".

"رواية لأريس مردوك.. (البحر.. البحر).. وجدت في سوهو قبل أيام نسخة في مكتبة تبيع الكتب القديمة واشتريتها".

"أبدأتِ بقراءتها؟".

"سأبدأ بقراءتها معكِ".

أعدَّ فنجاني قهوة.. فتح الكتاب على الصفحة الأولى:

"اسمعي هانا؛ *(البحر الذي يمتد أمامي وأنا أكتب يتوهج بأكثر مما يأتلق في أشعة شمس آيار الوانية. ومع المد المنسحب يرتمي برفق على الشاطئ لا تكاد تشوبه مويجات أو زبد...)*".

في نبرة صوته خيط دافئ، حالم، هادئ، موسيقي وجذاب.. أغمض عينيّ وأبصر المشاهد التي تنساب عبر لسانه كما لو أنني أحلم.. أراني وهو إلى جانبي، نجلس على مقعد مزدوج قبالة بحر مردوك بانتشاء مبهر..

مرّة أخرى نشرب القهوة قبل أن نعود إلى بحر الكلمات المسحورة ثانية. وقبل الثالثة عصراً نسخن طعامنا من الخضار وحساء الدجاج الذي أعدته كمارا صباحاً. ونجلس في المطبخ لنأكل بصمت. ولا نلبث في ممر الحديقة ونحن نشرب الشاي إلا دقائق لأن الربيع في أوله والجو ما يزال بارداً، فيما هو يكرر بعناد أن ندخل لأنني سأصاب بالبرد.. أقول إذن كمارا كانت على حق، وأخبره بما قالت، فيضحك بصخب..

يجيء ليسألني إن كنت أريد شيئاً قبل أن ينام كل منا في غرفته.. هو الآن بالبيجامة وأنا بثوب من القطن لا أرتدي شيئاً تحته.. وحين يهم بمبارحة غرفتي لمّا أتمدد تحت لحافي الذي غطاني به، أشير عليه أن يبقى قليلاً لأني بحاجة إلى مزيد من الدفء، فيسأل عن المكان الذي أضع فيه الأغطية ليأتيني ببطانية تدعم اللحاف:

"سيكون الغطاء ثقيلاً ولن أستطيع أن أغفو".

"وماذا تقترحين؟".

"تعال، واحضني، التصق بي".

يتردد.. أكاد أشعر بالحرارة الآخذة بالصعود إلى وجهه.. يضحك.. ضحكته تنم عن الإحراج أكثر مما تعكس سروراً..

"ألا تريد؟".

أفسح له.. يقترب.. يجلس على حافة السرير من غير أن ينظر في وجهي.. حتى إذا استلقى على الفراش إلى جانبي أدير له ظهري.. "أرجوك، اشبكني".. ينقلب على جنبه الأيمن ويحتويني.. ذراعه يمس برفق نهديّ، لكن نصفه الأسفل يتجنب لمس جسدي فأقوِّس جذعي تاركاً ردفيّ في انحناءة وسطه.. كيف تراه يشعر الآن؟.. أنفه في شعري، يتنفسني، وصدره مع بطنه الصغير يبث حرارة لذيذة عبر عمودي الفقري. وسرعان ما يتململ شيء ما هناك، أسفل ظهري.. حيوانه يستيقظ رغماً عنه فأضحك بلا صوت متخيلةً كيف هي حيرته الآن، وما التعبير المرتسم على وجهه.. كل ما فيه يجمد وقد أُسقط في يده، ولا سبيل ليتراجع.

أهمس: "ما هذا؟".

"أنا آسف.. ماذا لو أدعكِ وحدكِ".

"لا تكن أنانياً".

أظنه فهم مغزى عبارتي بأن عليه أن يبقى.. لبث كما هو لا يريم، وقد وصل حيوانه ذروة صلابته.. أنفاسه تلهب رقبتي، وذراعه الآن كأنه يسند أسفل نهديّ.. لا أنكر أنني أشعر بالإثارة والمتعة والمرح. ولابد من أنه يتساءل عن الخطوة التالية، لا خطوة تالية عزيزي.. يرفع ساقه اليسرى قافلاً بها ساقي اليسرى.. بادرة جريئة ووقحة لم أتوقعها

منه، ولم أحتج عليها.. صار التصاقنا شديداً يفصلنا ما نلبس ليس إلا.. إنني مطوّقة تماماً به، بولهه المتحرر الماحق.. ما هذه اللعبة الصبيانية الحمقاء التي أمارسها معه. وقطعاً لا أنوي إيذاءه بأي شكل؟

راحت أنفاسه تتلاحق حارة على قفا رأسي، وخطر لي للحظة بأنه ربما أقدم تحت تأثير هذه الإثارة العالية على اغتصابي.. على الرغم من سنواته الخمس والستين ما يزال يحتفظ بقوته، وبإمكانه أن يديرني ويجعلني راقدة على ظهري ويتسلقني ويدخل فيّ.. بيد أنه ظل هكذا، يقاوم رغبته الضاغطة التي رحت أؤججها بخبث.. وسأل بصوتٍ مشروخ:

"أيكفي هذا القدر من الدفء؟".

رجوته أن يبقى بضع دقائق أُخر.. حتى إذا انسحب أخيراً التفتُّ إليه وقلت:

"أنا آسفة"

كان سروال بيجامته في ما بين فخذيه ما يزال منتفخاً. استل أربع أو خمس مناديل ورقية من العلبة التي أتركها على حافة السرير من جهة رأسي ومسح بها جبينه المتعرق.

"شكراً لكَ عزيزي.. اذهب إلى غرفتك لتنام قليلا.. ومساءً سنكمل القراءة".

حسبت أنه سينحني عليّ ويقبِّلني من جبيني كعادته.. هزَّ رأسه، ورفع يده بحركة ربما عنت أنه يحييني، ولم ينطق بكلمة، سائراً بهدوء نحو الباب.

لا أدري حقاً إن كنت سأدعه يمضي بالأمر إلى نهايته لو فعل، أم كنت سأردعه؟ ولستُ أدري إن كان دافعي في العمق رغبة حقيقية بالمضاجعة، أم كنت ببساطة أعيش لحظات نزوة عابثة؟. وتولاني شعور بالندم.. لقد تلاعبت به وهو لا يستحق.. فكرت أن أقوم وأذهب إلى غرفته وأعتذر منه، غير أني لا أضمن ما سيحصل عندئذٍ. وقد يفسر مجيئي على نحو خاطئ ويشرع بمغازلتي في الوقت الذي تلاشى فيّ أي رغبة للتلامس الجسدي. وباغتتني دمعة طفرت من عيني.. انهمرت الدموع بغزارة غسلت وجهي، وانحدرت على رقبتي ولم أمسحها.. يا الله.. ما هذا الذي يحدث معي؟ لا أذكر أنني بكيت منذ وقت طويل.. ولماذا تراني أبكي؟ بعد ربع ساعة أو أكثر تملكني إحساس بالخفة والدوار، فعرفت أنني سأنام بعمق.

صباح اليوم التالي

في عربة القطار وجد رمزي مقعداً شاغراً إلى جانب رجل من أصول إفريقية يتكلم بهاتفه الخلوي.. جلس من غير أن يخطر له فتح مجلة

الإيكونوميست التي اشتراها من بائع صحف جائل.. نسي المجلة فيما صورة هانا تستحوذ على مخيلته.. صورتها وهي مكوّرة، ملتصقة به، يحيطها بذراعه ويتشمم رائحة فروة رأسها ورقبتها.. رائحتان أنثويتان مختلفتان.. وعجب أن تنبعثا بهذه الحلاوة من جسد امرأة في الستين.. جاشت مشاعر مختلطة في صدره سارّة وحزينة.. أراد أن يبعد ذهنه عنها.. ألفى نفسه يحاول أن يلتقط ما يفوه به جاره.. بيد أنه ما استطاع تمييز الكلمات الهامسة لكن حدسه أنبأه بأن هذا الجار الكهل يحاول إغواء امرأة.. فكر أن يترل في المحطة التالية ويبحث عن بار مفتوح في هذه الساعة المبكرة من النهار ويشرب كأساً أو كأسين من النبيذ.. كانت رغبة عابرة بدّدها شعوره بالضجر..

"النساء، يا لغرابتهن"

لم يعرف رمزي إن كان هذا الكهل الأسود البشرة يكلِّمه أو يكلِّم نفسه.. التفت، فاستدرك الكهل:

"لا تفهم ما يردن تحديداً.. حتى هنّ لا يعرفن.. Shit".

"لكل واحدة مزاجها".

"تقول لك إنها لا تفكِّر بغيرك، ثم تتمنّع.. أريد أن أضاجعها يا رجل".

"منذ متى تعرفها؟".

"لم نلتق قط.. عرفتها من الإنترنت قبل سنة، أرسلت صورها وأعطتني رقم هاتفها".

"لعلها ليست صورها.. لعلها ليست جميلة.. عجوز ربما.. تخشى أن تراها وتنفر منها".

"ما هذا الذي تقول؟. Shit".

"يكون الأمر هكذا في الغالب".

توقف القطار.. نزل رمزي تاركاً جاره الكهل في حيرته.. وفوجئ بعد خطوات على رصيف المحطة أن الكهل لحق به وراح يسير معه.

"أتعرف كم سأبدو غبياً أمام نفسي إن صحّ ما تقول؟".

"المخيلة تشط أحياناً، لكن لحسن الحظ تستطيع التمتع بما تعطيك".

"Shit. هنا بار قريب.. نشرب كأساً على حسابي، وأحكي لك القصة كلها".

"آسف.. لا أشرب صباحاً، ومرتبط بموعد مهم".

ضحك الرجل من أصول إفريقية وقال:

"أرجو أن يكون مع امرأة حقيقية لا افتراضية.. أنا توماس هدسون.. تستطيع أن تناديني توم".

ومد يده لرمزي الذي صافحه وهو يتوجس خيفة من أن يكون صاحبه هذا محتالاً أو لصاً

"شكراً توم.. أنا رمزي".

"يا رجل.. عجوز.. ليست صورتها.. الإنترنت اختراع شيطاني سيئ".

جلس في المقعد الخلفي لسيارة التاكسي التي تقله إلى شقته في شارع هارفارد.. فتح المجلة وراح يقلب الصفحات من غير أن تنطبع أية فكرة منها في رأسه.. كان مشوشاً وقد عادت هانا إلى المقدمة من شاشة ذهنه.. وتساءل في سرِّه إن كانت تفكِّر به الآن.. إن أخذت مشاعرها تتجه صوبه أو أنها ببساطة موجعة تسخر منه.. واستبعد أن تتصوّره دخيلاً مزعجاً في حياتها وإلا ما كانت تدعوه إلى الاستلقاء في فراشها واحتضانها على النحو العذب الذي حصل به.. أتراها تريده لتزجية الوقت، لدفع الملل، لرفقة كالتي يحتاجها الكبار في السن.. وحتى لو كان الأمر كذلك، قال في سره، فسأقبل به.. من لي في العالم غير هانا.. وفي شقته وهو يغلي القهوة همّ بكتابة رسالة لها تتضمن هذه العبارة: من لي في الدنيا غيرك.. وفتح موبايله وهو يضحك فبوغت برسالة منها يبدو أنها أرسلتها قبل عشرين دقيقة لما كان في محطة القطار أو في سيارة التاكسي و لم يفطن؛ ارجع الآن.

أحس بالبرودة تسري في عموده الفقري وارتعشت ساقاه.. دار في خلده احتمال أن تكون تعرضت لانتكاسة أخرى في القلب وأن من

كتب الرسالة كمارا وليست هي.. هاتف كمارا وسألها إن كانت هانا بخير فأجابته مستغربة إنها خرجت قبل عشر دقائق لتتسوق تاركة هانا تتشمس في الحديقة.

حلق ذقنه واستحم.. جفف شعره وشرب فنجاناً آخر من القهوة وخرج.. ركب قطار الثانية وعشر دقائق بعد الظهر.. ووصل منزل هانا في الثالثة والثلث.. حين فتحت كمارا الباب فغرت فاها، ودارت بؤبؤتي عينيها في محجريهما، وقالت متعجبة:

"أخبرتك أنها بخير".

صاحت هانا من ورائها:

"لا تقفي في الباب هكذا كصخرة.. بدأ الجو يبرد.. دعيه يدخل".

أطلت هانا بفستان وردي طويل بتقويرة بيضاء عند الذراعين، يبرز تكويرة صدرها كما لو أنها لامرأة في الثلاثين.. ألفاها أجمل من أي يوم مضى.. بدت وكأن التجاعيد الصغيرة تحت عينيها قد اختفت أو كادت.. خداها يلمعان، وشفتاها مطليتان بحمرة خفيفة براقة.. يعرف أنها لم تبرأ بعد من عقابيل مرضها، وربما أخفت شحوب وجهها تحت طبقة من الماكياج الخفيف. وتناهى إليه صوتها منغّماً هادئاً مثل صوت فاتن حمامة في فلم (موعد غرام).. ارتبك لأنه تذكّر هذا الفيلم لا غيره.. قالت وهي تبتسم:

"ما بك؟ تبدو وكأنك رأيت شبحاً"

"أنتِ ما بكِ؟ جعلتِ ضغط دمي يصعد".

وقفت كمارا تحدق فيهما.. وعلامة استفهام كبيرة تدور في عينيها..

"كمارا.. تستطيعين أن تغادري بعد إنجاز عملكِ.. سيبقى المستر رمزي معي الليلة.. علينا أن نخرج الآن لأمر ضروري".

لم يكن هناك من أمر ضروري باستثناء أنها أرادته معها في الساعات القادمة. كانت تحت تأثير شعور غامض لم ترد أن تطلق عليه اسماً.. ليس هو الحب، ولا الرغبة المجردة، ولا حتى نزوة عهد الكهولة في أن يثبت المرء لنفسه أنه ما زال يمتلك شيئاً من الفتنة التي تسحر شخصاً من الجنس الآخر حتى ولو كان ذلك الشخص في سنّ الخامسة والستين.. الشيء الوحيد الذي أدركته هو أنها بحاجة إلى صحبته في الساعات الآتية، وأن هذا يمنحها الرضا والسرور.

حلقة المستر ديفيد المفقودة معضلة سردية. عقدة عائمة في زمن الكتابة. انعطافات مباغتة أمام تيار اللغة، وسؤال معلّق.. أحاول ألاّ أفكِّر بها كما كان خليقاً بأغاثا كريستي أن تفعل، أو دان براون، أو حتى أمبرتو إيكو. وما يُقلقني بشأنها هذا الاضطراب الذي تُحدثه وتهدِّد به إيقاع النص وتماسكه المرّة تلو المرّة. وقطعاً لست أريدها حجر سنمار فيه، ذاك الذي إنْ سحبناه انهار البناء طولاً وعرضاً.

تعتقد هانا أنها من بنات أفكار أبيها الساخرة

"لا أظنه كان جاداً في ما قال سيد رمزي".

ويتهيأ لي أحياناً أن المستر ديفيد أرادني أن أمضي بحماس لا من أجل العثور عليها، لأنها ببساطة لا توجد، بل لأن الطريق إليها موعودة بمفاجآت استكشافية سارّة ومذهلة. لكن مؤسسة المستر واتسون الغامضة تفكِّر بها، كما يظهر لي، من زاوية أخرى أشد خطورة.

كان وقت ما بعد الظهيرة لّما أخذتني ليلي إلى تلك البناية ثانيةً مشياً على الأقدام.. اجتزنا أمكنة لم أرها من قبل، عمارات سكنية قديمة ومقاهي بواجهات رثة على الأرصفة. مررنا بوجوه بشر غير مألوفين على الرغم من أن لا أحد أعارنا ثمة أية أهمّية.. فقط حين تقدم منّا كهلٌ شاحب الوجه خمنت أنه ينتمي لبلدٍ شرق أوسطي طالباً ولاعة لإشعال سيجارته، وتركنا من غير كلمة شكر، وكذلك حين سألنا طفل متسخ إن كنّا رأينا حمامته الهاربة.. قالت ليلي؛ هذا درب مختصر.. وراحت طوال العشرين دقيقة التي استغرقتها رحلتنا تتحدث عن طليقها وابنتها التي تركتها مضطرة لتربّيها ابنة خالة لها لا تستطيع الإنجاب. ثرثرت بلا انقطاع عن أمها التي ماتت مبكرة في مصح بسبب الأنيميا، وأخوها التوأم الذي بات موظفاً شاطراً يتسلق سريعاً سلّم المناصب في وزارة الخارجية. وقبل أن ندخل البناية الغامضة التي

ليس على واجهتها لافتة تعرِّف بهويتها قالت إنها تسكن الآن في شقة مع صديقة لها لا لأنهما مثليتان فقط بل بسبب الاقتصاد في النفقات أيضاً.. حسبت أنها تخبرني عن بعض خصوصياتها، ولا أعلم كم درجة الصدق فيما تقول، لأشعر بأنني أتعامل مع بشر مثلي لهم مشكلاتهم في الحياة وليس مع كائنات هابطة من كوكبٍ بعيد.

أشاروا لي أن أجلس في غرفة غير تلك التي استجوبوني فيها في المرّة السابقة.. غرفة استقبال مؤثثة على وفق ذائقة عصرية، اللون الغالب فيها الأخضر والبني الفاتح.. جلست على أريكة مريحة منجدة بالقطيفة وقبالتي وراء منضدة من خشب الزان جلس رجل ضخم الهيئة في الأربعين بملامح أنكلوسكسونية لا تُخطئ، شعر أشقر مرسل إلى ما تحت أذنيه وعينان زرقاوان براقتان توحيان بالمرح والذكاء.

"أنا الدكتور رايت، درست علم الآثار في أكسفورد، في الصف نفسه الذي درست فيه أنت قبل أربعين سنة.. هذا يعني أننا زملاء، وأنك أستاذي بحكم خبرتك التي تفوق خبرتي بربع قرن".

"يبدو أنكم تعرفون عني أشياء أكثر مما حسبت".

"هذه ليست من الأسرار دكتور رمزي، وربما تكون معلومات السيدة هانا عنك أكثر من معلوماتنا بكثير".

ضحك وقال وكأنه سعى لتغيير مجرى الكلام: "أنت ثروة علمية مهمة للإنسانية في مجالك يا دكتور، كما كان الراحل الدكتور ديفيد ماير".

غير أنني شعرت بقرصة في معدتي وبصعود الأدرينالين في جسمي كله. ولم أعرف بم أعلق..

"أنت عملت مع الدكتور ماير، لكنني كنت تلميذه لسنتين، وقد تحسبني شاباً في الثلاثين، لا يا دكتور رمزي أنا في الخمسين لكنني مخادع أعرف كيف أراوغ قوانين البايولوجيا، ويمكنني أن أعلمك بعض الحيل. فالأوان لم يفت بعد". وغمز لي والابتسامة تتسع على شفتيه.. وبدا لي مازحاً لا متهكماً.

"لم أعرف بعد بم يمكن أن أفيدكم دكتور رايت".

"أوه، وكما أخبرك الدكتور واتسون نحن لسنا جهة مخابراتية. لمهتنا هذه صفة شبه رسمية. فقط نتداول كأصدقاء من أجل الحقيقة. وبطبيعة الحال تستطيع أن تمتنع عن الإجابة".

"نعم، أفهم هذا".

ولم أكن أفهم الأمر بوضوح كافٍ. كنت متوجساً، وأخشى أن تنقلب هذه الحفاوة إلى ما لا يسر.. قال:

"سأبدأ بسؤال لو سمحت: ما الافتراض الأخطر الذي اشتغل في ضوئه المستر ديفيد في موقع الحُنينة الأثري في العراق؟".

"الأخطر؟. ماذا تعني؟".

"كي لا نضيع وقت بعضنا أعني ما زعم عن وجود حلقة مفقودة في سلسلة التاريخ.. تحديداً في تاريخ الفكر الإنساني، ولنقل تاريخ الفكر الديني؟".

ضحكت.. حاولت أن أكون مرحاً مثله، ولا أدري إلى أي حد بدت ضحكتي خرقاء تفضح توتري الداخلي، وقلت:

"دكتور رايت، عزيزي.. المستر ديفيد لم يكن جاداً حول هذا. وحتى لو توهم واعتقد بوجودها فلم نعثر على شيء يثبت صحة زعمه".

"لا تكن واثقاً جداً مستر رمزي.. هناك إشارات بأنه أخفى وثائق في مكان ما، عند أحدهم".

"وتظنون أن هذا الأحد هو أنا".

"هذا احتمال واحد من مجموعة احتمالات.. نود أن تساعدنا في دراسة وتحليل كل واحد منها إذا أزحنا احتمال أن تكون تلك الوثائق معك".

"أراك أزحت احتمال أن تكون معي تلك الوثائق بسهولة".

"قلت إذا.. لم نبدأ بعد".

"إذاً لنبدأ".

"أنت على عجلة من أمرك.. أخشى أن لديك موعداً هاماً.. يمكننا أن نوصلك إلى حيث تسكن أو إلى المحطة إذا كنت تود زيارة السيدة هانا".

رمزي

في نفق المترو إعلان عن عرضٍ مسرحيٍّ لشكسبير، وثانٍ عن أدوات مترلية، وثالث عن سجائر دنهل. وعلى مقعد شاب وشابة من العرق الإفريقي يتبادلان القُبل. ولا أحد آخر، سوانا، هناك. على مقعد مجاور أفتح رواية (موسيقى المصادفة) لبول أوستر بطبعتها الورقية بحجم الجيب وأقرأ.. تتناهى إليّ ضحكات المرأة الفرحة بين ذراعيّ حبيبها. ابتسم ولا التفت لأنظر إليهما. يكفي أن أتخيل المشهد، واستشرف في داخلي تلوينات الأحاسيس الحلوة التي تتجاذبانها. تعبر بي كلمات أوستر إلى فحوى الحدث السعيد غير المتوقع المفضي إلى اضطرابات في الحياة. حين لا تكون مستعداً لتغيير كبير أو غير مؤهل فستعود من حيث ابتدأت. وفي لحظة أفاجأ بباب العربة المفتوح أمامي. أقفز قبل أن ينطلق قطار المترو. أجلس إلى جانب امرأة عجوز. همهم مخاطبة نفسها: "هؤلاء الزنوج". أرى من النافذة الشابين

الأسودين غير آبهين إلا لجمالهما الذي يتدفق ونشوتهما الفائضة في ليل العالم.

في لحظة تحرك القطار أفاجأ بليلي تتخذ مقعدها قبالتي وتشملني بابتسامة عريضة: "هاي". أتساءل عن شكل المصادفة التي جاءت بها في هذه الساعة التي تسبق فجر لندن. "هاي" ولا أضيف حرفاً آخر.. تقول إنها كانت مع صديق لها في بار ومرقص (THE AZURE WAVE). من حمرة خديها وشفتيها المبللتين أعرف أنها ثملة.. شياطين العالم كلها لن تستطيع أن تقنعني بأنها المصادفة.. تقول إنها تفهم شعوري بالاستغراب، ومثلي تماماً هي مستغربة كذلك.. وتسأل بنبرة مازحة إن لم أكن أنا من يتبعها لغاية في نفسي، وتضحك. وأهز رأسي، وعلى وجهي كما يتهيأ لي تعبير ساخر. تقول: "هناك طريقة واحدة كي لا نلتقي وهي أن نتبادل صباح كل يوم برنامجنا اليومي كي نتجنب اللقاء". أقول: "الحقيقة لا يسيئني أن ألتقيكِ في أي مكان، نحن في العالم الحر". تضحك بصوت عالٍ وتستاء العجوز الجالسة إلى جانبي مطلقة شتيمة خافتة بحق التفاهة التي تغزو حياتنا منذ زمن، ولا أظن ليلي سمعتها.

تقول ليلي: "لا يعجبني الرجوع إلى البيت.. لماذا ننام؟. لماذا نضيع وقتاً لا يعوّض؟".

أقول بشيء من الهزء: "وماذا يمكننا أن نفعل في هذه الساعة المخصصة للنوم؟".

"أشياء كثيرة رمزي.. الخيارات دائماً واسعة لو كنا نفكر بعقل صافٍ".

"مثل؟".

"مثل أن نترل في المحطة التالية، ونتسكع في الشوارع، ثم نجلس على ضفة النهر ونراقب خيوط الفجر الأولى.. لهذا تحتاج إلى الشجاعة".

"أحتاج إلى قوة البدن والصحة التي تجعلني أصمد في برد كانون الثاني".

"كما قلت لك هناك خيارات أخرى مثلاً نبحث عن مقهى دافئ.. نشرب القهوة أو الويسكي ونثرثر".

توقف القطار.. قامتْ وهي تضحك.. "هيا". قلتُ في سري: "لا هرب، اذهب أماماً وواجه.. لاشيء بعد الخامسة والستين يمكن للمرء أن يخسره". وما زلت جالساً.. جلستْ.. قمتُ أنا وقلت: "هيا".. خطوت خارجاً والمرأة العجوز لابد من أنها شيعتني بنظرة غاضبة.. نزلنا قبل أن يغلق باب العربة بثوانٍ.. لما تركنا محطة الأنفاق ألفينا المدينة ساجية في الضباب، باردة، تنبعث من جنباها هدير مكتوم غامض.. سألتها متوجساً: "هل تعرفين المكان؟". قالت: "وهل لمعرفتنا

بالمكان الذي نكون فيه أية أهمية؟". كانت خطواتها واسعة وسريعة، وأيقنت أن من العسير أن أجاريها.. طلبت منها أن تبطئ من سيرها وإلا سأرجع إلى المحطة.. رضخت واضعة ذراعها حول كتفي.. طولها يكافئ طولي.. معطفي الصوفي الأسود يحول دون شعوري بفخامة طرف نهدها على جهة صدري.. في هذا الهزيع الهادئ من الليل نبصر أضواء ملونة راعشة.. نتجه نحوها وما زالت تشدني إليها كأنها تخاف أن أهرب.. ندخل إلى دفء مكان مكلل بالدخان، نصف صاخب.. في زاوية تحت لوحة تجريدية نجد مائدة بمقعدين.. أقول: "كان عليّ أن أفرض عليكِ شرطاً قبل القبول باقتراحكِ المجنون". "ماذا؟". "أن لا تشربي الكحول". "يمكن أن أشرب قهوة بالحليب". "وأنا مثلكِ".

لا أدري إن كان أحدهم يجلس إلى بيانو ويغني أم أن الصوت الرقيق المبحوح قليلاً يصدر من جهاز ما..

"أحب انتهاز فرص كهذه كي أقضي على الرتابة".

"لماذا تتبعينني يا ليلي".

تضحك وتقول: "أوه، أنت لا تصدِّق.. القدر يسخر منا".

تقدم لي سيجارة.. ندخن وأسأل: "وماذا بعد؟".

تنفث حلقة كبيرة من الدخان وتقول: "أعلينا أن نسأل دائماً عن اللحظة التالية، ونهدر لحظتنا.. أليست هذه طريقة غبية لزيادة خساراتنا".

قرّبت وجهي منها وقلت بصوت خافت حاد:

"أتساءل لماذا أنا هنا الآن معكِ ولست في فراشي الدافئ المريح؟".

ردت بالنبرة الخافتة الحادة ذاتها وهي تقرِّب وجهها من وجهي أكثر حتى يمكن لأي ناظر في المكان أن يظننا وكأننا نوشك على الانغمار بقبلة حارة.

"لأنك من برج القوس، خُلقت للمغامرات وليس للبقاء بين أربعة جدران".

ارتدت بجذعي إلى الوراء وعيناي تتسعان:

"وكيف عرفتِ أنني من برج القوس؟".

"من الإنترنت يا ذكي.. يبدو أنك لم تستوعب بعد معجزات زمانك".

"وماذا يفعل الرجل من برج القوس مع امرأة ثملة في ساعة الصباح الأولى، وفي مكان غريب".

"قد يوشكان على إتمام صفقة من نوع ما تتغير على أثره حياتاهما.. قد يكون أحدهما بصدد إغواء الآخر.. قد يكونا مجنونين يسعيان لقضاء يوم لا ينسى.. قد وقد وقد".

وأطلقت ضحكة رنانة وأحاطت رقبتي بذراعها طابعة قبلة سريعة على شفتي.. اعتدلت في جلستي وأنا أفكر بحماقتي التي جلبتني إلى هذا المقهى معها، وكيف لي التخلص منها قبل أن تتسبب لي بفضيحة.. سألتها، ولا أعرف لماذا، فأنا الآخر لم أكن أسيطر على نزوات عقلي:

"ألكِ صديق حميم يا ليلي؟".

"نعم، وتعرفه".

اتجه تفكيري حالاً إلى الدكتور واتسون والبروفيسور رايت، فأنا لم التقِ بغيرهما من معارفها.. هزت سبابتها أمام عينيّ وقالت وكأنها تقرأ ما يدور في رأسي:

"ليس أياً منهما.. لا تتعدى علاقتي معهما نطاق العمل".

"لا أعرف شخصاً آخر نعرفه نحن الاثنين".

"لا يهم.. قل لي، ولطالما سألتني فمن حقي أن أسألك: أتضاجع تلك الشمطاء؟".

بجمع كفي ضربت على الطاولة التي أمامنا وقمت:

"تتجاوزين حدودكِ مسز ليلي.. أستأذنكِ".

وخرجت.. صاحت ورائي: "أنا آسفة.. كنت أمزح.. نحن هنا لنمرح قليلاً أيها العجوز".

رمزي

يخرق مسمعي، على حين فجأة، نواح الريح. والظلام يهبُّ نحوي عبر ستارة النافذة في موجات متعاقبة كحشدٍ من الأشباح. أجيل عينيّ في أرجاء الغرفة ولا أكاد أرى شيئاً بوضوح. كأنني في مكان غريب. أهو منتصف الليل أم آخره؟. لا يهم. لكني أتساءل إنْ كنت استيقظت الآن أو منذ بعض الوقت.. فما جرى في الدقائق الأخيرة لن أجزم إن كان جزءاً من حلم، أم محض اضطرابات حدثت عند حافات الوعي وهوامشه؟. تقلبتُ طويلاً على غيمة من معدن ليّن، موشكاً على السقوط، وليس تحتي سوى الفراغ.. أتراني ما زلت أحلم؟.

يتخاطفني حلم آخر..

أراني في زقاق شبه معتم، ضيّق، لا أتبين نهايته.. الدور التي على جانبيه لها شناشيل من خشب قديم مطعّمة بالفيروز وزجاجاتها كامدة، فيما الأبواب مغلقة كلها. ولست أبالي.. أطرق باباً.. تفتح لي فتاة، في السادسة من عمرها أو السابعة، حالاً، وتقول معاتبةً: جئت متأخراً جداً.. أين كنت؟".

أمسِّد على شعرها وأقول: "أنتِ لا تكبرين أبداً يا هانا".
يفاجئني اسم هانا الذي نطقت به، يُرعش كياني.. يخيفني أن تكون هذه الطفلة هانا، كأنني صحوت على حقيقة قاسية.. أفتح عينيَّ على ضوء شحيح، وصمت مطبق يجثم على فضاء الغرفة.. أجلس لاهثاً على فراشي وقد ازدادت نبضاتي وتنمّلت ساقاي.

لست خائفاً، غير أن شعوراً غير مريح يتولاني مع ثقل بغيض في الدماغ، وغثيان يصعد بخاره من معدتي وحتى البلعوم. فيما حلقي يابس وراغبٌ عن الماء. وهذا كله ينبئني أنني مريض. لعله بسبب البرد، إذ لم أقرب الخمر منذ أيام وتخليت عن وجبة العشاء أمس. وحتى ساعة خلودي إلى النوم عند منتصف الليل كنت على ما يرام. وإذاً أي الشياطين عبثت بجسمي بعد ذلك؟.

ليست لديّ أدنى رغبة بمبارحة الفراش، أو قل لا أمتلك ما يكفي من الطاقة لأفعل، غير أن رنين الموبايل على الكوميدينو المحاذي للسرير جعلني أنتفض كالملسوع.
"ألو".
وفي هذه اللحظة شعرت بحاجتي إلى التبول.
الصوت الأنثوي الرخيم الذي تناهى إليّ لم يقلل من حجم الألم في مثانتي.

"السيد رمزي، آسفة لأني أهاتفك في هذا الوقت غير المناسب".

"من أنتِ؟".

"طلبت مني صديقتي ليلي أن أتصل بك بخصوص هانا".

"ليلي؟ وما علاقتها بهانا؟. من تكونين؟".

"ليس مهماً من أكون، المهم، هانا بحاجة إليك".

"أهي مريضة؟. أين هي الآن؟".

"لست أدري.. أكرر أسفي.. عليّ أن أنهي الاتصال".

"ألو.. ألو.. أرجوكِ".

جالساً في الفراش والقلق يقرص في معدتي فيتفاقم الغثيان وما يزال جهاز الموبايل في يدي بينما تتناوشني مع حاجتي إلى التبول حاجتي إلى التقيؤ فأغادر فراشي بقفزة متخبطاً في الظلام أتلمس الحائط حتى أعثر على زر الإنارة وحين أفتح الباب يصبح الطريق إلى الحمام طويلاً جداً وقبل أن أجلس على مقعد المرحاض تطفر قطرتان أو ثلاث من البول مبّقِعةً ملابسي الداخلية وأكتشف أنني مصاب بالإسهال أيضاً فيعسر تنفسي وتملأ الحموضة بلعومي ولا أتقيأ وألعن الحظ أن أكون بهذا الحال وهانا تعاني ولما أعود ثانية إلى غرفتي بعد نصف ساعة منهكاً كسجين خارج من غرفة تعذيب أبصر الموبايل في مكانه على الكوميدينو ولا أتذكر كيف ومتى أعدته إلى هناك ولا أجد رقم من

قالت إنها صديقة ليلي في قائمة المتصلين فقد اختفى بطريقة ما ولا أبالي وأرى أن أتصل بكمارا فيرن هاتفها ولا تجيب وبعد دقيقة تتصل هي بي وتسأل ماذا دهاك فأقول ما بها هانا فتقول ما بها ومن قال إن بها خطباً ما

"هانا نائمة مستر رمزي.. أكنت تحلم؟".

رمزي

ما كان عليّ مغادرة غرفتي في هذا النهار الرمادي، غير أنني لمّا أزحت ستارة النافذة وجدتني كما لو أنني أطل على رعب الوجود.. خمّنت أن بقائي بين أربعة جدران طوال ساعات سيفاقم كآبتي، ولن أستطيع كتابة سطرين مقنعين. لذا قررت الذهاب إلى مكتبة المتحف البريطاني متلمساً خطى كارل ماركس وكولن ولسن. علّقتُ حقيبتي الصغيرة على كتفي وخرجتُ إلى الشارع.

الرذاذ البارد لا يكف.. أخفي كفيّ في جيبيّ سترتي الجلدية لينالا بعض الدفء، غير أن قدميّ، على الرغم من الجورب الصوفي الثخين والحذاء الجلدي ذو الرقبة، أحس بهما وكأنهما ملتصقتان بلوحي جليد.

أصعد الحافلة، وقبل أن أضع مؤخرتي على المقعد أُفاجأ بأن المرأة الجالسة قبالتي هي تلك الثملة إيميلي التي التقيتها في ضاحية ريتس قبل أسبوعين واستقلت معي القطار إلى لندن.. تظاهرت بأني لا أعرفها كي لا أحرجها بخصوص ورقة الخمسين يورو التي اقترضتها مني.. ورحت أتفرج من النافذة على سيل البشر وواجهات المباني والمتاجر.. قالت:

"أظنني أعرفك".

"لا أعتقد".

"أنت المستر رمزي، أليس كذلك؟".

ضحكتُ و لم أقل شيئاً، ابتسمتْ وفتحت حقيبتها.

"نعم، خمسون يورو.. موقفك كان نبيلاً".

"أرجوكِ، لا داعي لتردّيها".

"لا، لا.. تفضّل.. وآسفة لأني كنت ثملة ليلتها. وربما أزعجتك ببعض الهراء".

أخذت الورقة منها ودسستها في جيبي:

"بالعكس.. كنت لطيفة.. فقط في البداية كنتِ تشتمين أشخاصاً، وتحدثتِ عمّا تقول الصحف عن امرأة مختفية".

"للأسف عثرت الشرطة عليها مقتولة في الغابة.. لم يعرفوا القاتل بعد".

"هل حددوا دوافع الجريمة وطبيعتها؟".

"لا.. حدسي يخبرني أنها تتعلق بالعلاقات.. حب وخيانة وغيرة وتهديدات بفضيحة.. تعرف هذه الأشياء.. لا أظن أن هناك اغتصاب، أو شيء من هذا القبيل".

"اعذريني لسؤالي، ولكن لماذا أنتِ مهتمة بهذه القضية؟ ألكِ معرفة بالضحية؟".

"نعم، نوعاً ما.. زرت معرضها مرتين.. لي شغف بالفن التشكيلي.. نيكول كانت رسامة جيدة".

"هي ليست صديقتك".

"زوجها.. أقصد زوجها".

بدت وكأنها أفلتت شيئاً ما كان يجب أن تقوله.

"أنا حمقاء.. ما شأنك أنت بهذه القضية حتى أحكي لك".

"من حقكِ أن تحتفظي بأسراركِ.. لستُ طرفاً بالموضوع".

"سأعترف لك.. قبل أن يتزوجا، كان أرنست عشيقي.. تركني من أجلها، ومن ثم بدأ يخونها مع سكرتيرته في العمل".

"مارغريت، تلك التي كنتِ تشتمينها قرب المحطة في تلك الليلة".

"آه، ذاكرتك حادة مستر رمزي.. أسمعتني ليلتها أهذر بشيء آخر؟".

"لا.. شتائم فقط.. ثم حكيتِ لي عن نيكول المختفية".

"استجوبتني الشرطة".

"أيتهمونكِ أنتِ بـــ..".

"لا، بعض المعلومات، يعتقدون أنني أعرف أشياء يمكن أن تفيدهم بالتحقيق".

"آه".

صمتت. اكتست قسماتها بسحابة ثقيلة من الحزن فأشفقتُ عليها. ولم أرد أن أثير مواجعها ببضعة أسئلة اشتبكت في رأسي بصدد جريمة قتل المدعوة نيكول.. وأخيراً قالت إنها ترتاد نادياً اجتماعياً لحضور دروس خاصة يحضرها مدمنو الكحول. وأبدت رغبتها في أن تلتقي بي مرة أخرى لنتحدث، ولم تقتنع بترك الأمر للمصادفة كما اقترحت.. سألتني إن كنت ممن يمتلكون بطاقات تعريف تحوي أرقام هواتف وعناوين بريدية. ولم أرد أن أكذب فأعطيتها واحدة، مع يقيني بأني ربما سأندم بعد ذلك، فقد تسبب لي إزعاجات معينة وتقحمني في معمعات لا علاقة لي بها.. أزاحت خصلة من شعرها الأسود النافر عن عينها وابتسمت.. اكتشفت مع عذوبة ابتسامتها

بأنها جميلة. وأنا أنزل أخبرتني أنها لم تشرب منذ يومين، فقط كأس نبيذ واحدة كرعتها هذا الصباح.

تساءلت مع نفسي؛ ماذا يمكن أن تكون الوظيفة التي تحصل منها مدمنة كحول على رزقها؟. فما ترتدي من ملابس اعتيادية وكذلك ركوبها القطارات والحافلات لا يوحيان أنها تنتمي لعائلة ثرية. لعلها تعاني من ضائقة مالية مستديمة.. قد تكون طُردت من وظيفتها بسبب معاقرة الخمر وإلا لم تراها تحضر درساً في مثل هذه الساعة من النهار؟ من أين تأتي بالنقود؟. لعل هناك من يساعدها؛ أخ أو أم أو أي قريب بالنزر الكافي. لعلها ورثت مالاً يكفيها لبعض الوقت، أو ادخرت من أجور عمل سابق ما تلبي به حاجاتها الضرورية إلى أن تُقبل في وظيفة أخرى.

قاعة القراءة في المتحف أليفة دافئة.. ولحسن الحظ هناك متسع لجلوس شخصٍ مثلي يحلم بإنجاز أدبي وهو على أعتاب الشيخوخة. أختار كرسياً في ركن حيث لا أرى منه سوى رجلٍ وامرأة مستغرقين بالقراءة، لم يعيرا لوجودي أي اهتمام.. أخالهما أكبر مني سناً بعشر سنوات في الأقل، هذا لأن كليهما يرتدي نظارة بعدسات سميكة، وتملأ وجهه التجاعيد.

أفتح حقيبتي وأستل كراستي ذات الجلد البني والأوراق البيض غير المخططة.. في الصفحة الأولى أدون اسمي بالقلم السوفت الأزرق، وأفكر بعنوان ما.. لا بأس أن أقع على عنوان يمكن تغييره في ما بعد؛ [بالقطار العائد إلى مترل هانا.. القطار الخارج إلى ليل هانا.. القطار الأخير إلى ضاحية هانا].. هي نزوة أن أجعل كلمتي (قطار وهانا) في العنوان.. لا، عليّ إرجاء هذه المسألة الآن.. المهم من أين عليّ البدء؟. من أي مشهد، من أي نقطة في مسار الزمن؟. وهل ما سأكتبه يدخل في خانة السيرة الذاتية أم الرواية، أم الرواية السيرة كما يحلو لبعض النقاد أن يسموا صنفاً من الروايات تمزج بين الوقائع الحاصلة والتخييل؟.

المعضلة في الجملة الأولى، في الصفحة الأولى.. لو أمسكت جيداً بالفصل الافتتاحي ربما سار كل شيء بعد ذلك بسلاسة.. أنظر في البريق الهادئ لسطح المنضدة المصقول التي أجلس إليها.. ثمة تيار متعرج في عروق الخشب أترك ذهني ليسبح معه.. تخطر لي فكرة أن يكون مشهد الاستهلال مع حلقة المستر ديفيد المفقودة.. غير أنني لا أريده كتاب ألغاز بقالب بوليسي، وإنما كتاب حب.. ترنيمة شجية عن الحب.. كتاب عن هانا، وحسب. عن الهمامي العميق المجرد بهانا.

ماذا لو اقترحتُ جعل هانا حلقة النص المفقودة؟ الحلقة البديلة عن حلقة أبيها المبهمة والمثيرة لمشكلات لا أول لها ولا آخر، ومن المحتمل الموهومة أيضاً.. يتهيأ لي أنه صدع على جدار الحياة تركته تلك الهزة العجيبة التي حصلت في ذلك النهار من أيلولٍ بعيد. اليوم الذي تغيّر معه موقعي في نظام الكون.

تلك الفاصلة الموجوعة يمكن لهانا لا غيرها أن تملأها.. الفاصلة بين الحلم وقسوة الزمان، بين الحنين والخسارات، بين هوسي الذي لم يفتر بها وأحابيل السياسة، بين رغبتي في أن أحيلها إلى نص ساحر وتمنّع اللغة.. هذا النص المرجأ الذي أود أن يعيد صياغتي مع انهماكي في صياغته.. نصي لو يكون حلقتي التي تعيد انتظام السلسلة؛ وجودها الذي يُجسِّر السبيل إليها وإلى أقاصي النص في آنٍ معاً.

هانا والكتابة.. ذلك هو الحل.. هل أصرخ: وجدتها.

لا، ليس بعد..

بين زمنين

بين زمنين وأربعة جدران يهفو وما زال واقفاً.. يستردُّ مساءً أسمر من الحُنينة أمام جدار قديم.. ينقر المستر ديفيد بأصابعه على طابوقه من الآجر الرطب المتآكل.. يقول: "أصابعي على أثر أصابع رجل آخر،

أو ربما امرأة، وجد هنا قبل ألفين وخمسمائة سنة. وبعد ألفين وخمسمائة سنة أخرى ستقع أصابع رجل آخر، وأتمنى أن تكون امرأة، على أثر أصابعي.. هكذا هي دورة الفكاهة، فكاهة العدم.. فأروع وأفظع ما في الزمن أنه ساخر". وعلى مبعدة، على التراب الناعم لدربٍ يصعد إلى قريتها تسير نعيمة، بقامة مشدودة كغصنٍ رشيق.. لا تأبه للجدار، وليس في بالها، ربما في هذه الساعة أي أحد.

الجدار الذي خلف ظهره عالٍ عليه خط طويل من إعلانات ملونة، يحاذي شارعاً يزدحم بالمركبات.. سيؤجر تاكسياً إلى المحطة، ومنها سيستقل قطاراً إلى منزل هانا.. ومن هناك سيمضيان معاً إلى مقهى THE THREE BEANS CAFE لأن هانا راغبة بالفرجة على العالم.

نعيمة، سيأخذ منها زوجها راضي أجرتها وسيشتمها لأنها تأخرت قليلاً، فهو جائع.. ستفتح صرتها لتقدم له بقايا طعام أخذتها من مطبخ عائلة المستر ماير بموافقتهم.. سيأكل بأسارير عكرة، بنهمٍ، وتبدأ هي ساعات شغل أخرى لتنظيف البيت وترتيبه وغسل ملابس الزوج والأولاد وملابسها، وإعداد وجبة العشاء قبل أن تنحشر في الفراش وتغفو فيأتي راضي ويهزها بجلافة فتجفل.. وهي بين النوم واليقظة يرفع ثوبها إلى ما فوق سرتها، يتسلقها، يستلقي فوقها، يشرع ما بين

ساقيها بساقيه، يلجها، يوجعها، يريدها أن تتأوه بإذلال، أن تتصاغر تحته وتستسلم وتمتلئ بمرارة الهزيمة.. تعرف هذا.. تعرفه جيداً، فتبقي ملامحها جامدة وعينيها باردتين، لا أباليتين، كأنها ليست معه.. يصفعها، يسمعها بذاءات ليبقي على تأجج شهوته.. لا تريم.. وحين ينتهي منها ينسحب.. ينعتها بالقذارة، بأنها عاهرة، وتظل كما هي، في رقدتها بساقين مفتوحتين كأنها نائمة.. يخرج ويصفق الباب وراءه.. تضع فوطة ما بين فخذيها لتحول دون تساقط مائه المهين على فراشها.. تشعر بالقرف، بغثيان خفيف.. تنزل.. تتمنى أن تتقيأ، لا تستطيع.. تخلع ثوبها.

تسحب الطشت الكبير من تحت السرير.. تجلس فيه.. تسكب الماء البارد من إناء مملوء على جسمها.. كل ليلة تحرص أن يكون الإناء مملوءاً بالماء لهذا السبب.. ترتعش.. تنشف جسمها.. تلبس ثوبها.. تحمل الطشت خارجاً إلى الفناء لتسكب ما فيه.

شربا قهوة مخلوطة بدقيق البندق، وقرأ لها صفحات من رواية (الكبرياء والهوى) لجين أوستن.. وبعد ساعة طلبا كأسين كبيرين من الجعة.. وثرثرا حول موضوعات شتى في التاريخ والحب والطعام وأمراض الشيخوخة والبرد. وكان هدير القطارات المارة يصلهما كل ربع

ساعة. ولم يلتفتا للتلفاز الذي جعلاه خلف ظهريهما. وكانا يراقبان الطريق من خلال الزجاج العريض لواجهة المقهى.

"هذه المدينة بلا قلب يا هانا.. لم تعد كما ألفتها قبل أكثر من أربعين سنة.. اكتشفت أنني لا أعرفها، وأشعر أنني فيها غريب ومسلوب الإرادة" قال.. "لا شيء يبقى على حاله بعد هذه المدة.. وربما أنت الذي تغيّرت لا المدينة" قالت.. "ربما، فقط يمكن لصداقة حقيقية أن تضع حداً لهذا" قال.. "لأي شيء؟" قالت. "لما أنا فيه.. لا أدري كيف أفسِّر لكِ الأمر.. الصداقة في حالتي أمان" قال. "لن تفكِّر بالعودة" قالت.. "فكّرت كثيراً.. قلت يكفيني أن أدفن في أرض إلى جانب أحبائي.. هذا قبل أن أعرف الطريق إليكِ" قال. لم تعرف ماذا عيلها أن تقول.. قال هو: "لا أريد المواساة ولا الشفقة.. ما أرمي إليه هو أن أكون مع شخص يشاركني.. حس المشاركة إن كنتِ تفهمينني".

"لا أدري إن كنت أفهمك.. تعد صداقتي جزءاً من حل".

"الحل كله".

"وماذا عني أنا؟".

"اعتقدت أن كلا منا هو حل للآخر".

"أهذا مفهومك للصداقة؟".

"لا.. ليس هذا فقط.. اسمعي.. لست أعني المصلحة بمعناها السيئ.. وإنما القبول بالرفقة، الرضا".

"ليست لدي صديقات.. كانت واحدة وتوفيت بالسكتة الدماغية.. يتصورونني غريبة الأطوار".

"عشتِ في عزلة".

"استحوذ عليّ شعور باللاجدوى.. مات أبي وأمي.. زوجي هجرني.. لم أنجب.. ليس لديّ عمل يسليني.. لم أعد أمتلك الطاقة لأسافر بعيداً، ولا حتى الرغبة.. نعم، الرغبة.. فقدت الرغبة".

" لم تغادري لندن".

"منذ أكثر من عشر سنوات".

"ربما مع انتهاء موسم البرد سنسافر أنا وأنتِ".

"توقعاتك تتجاوز الحد.. فقدتُ الشغف بالسفر منذ زمن بعيد".

في ظل جدار غرفة جاكلين جلس بانتظار أن يخرج المستر ديفيد من منزله.. فرغ من شرب القهوة قلب الفنجان في صحنه الصغير على أمل أن تأتي جاكلين قبل زوجها لتقرأ له طالعه.. فكر بما يمكن أن يتشكل ثفل قهوته.. تقول له جاكلين: "عليك أن تفكِّر بأمر ما قبل قلب الفنجان".. في هذه المرة كان دماغه مشوشاً فلم يفكِّر بأي شيء.. جاءت نعيمة لتأخذ الفنجان، لم يعترض.

التقطت نعيمة الفنجان ونظرت إلى داخله.. أمعنت النظر بعينين مشدوهتين.. تهدل فكها..

"ماذا رأيتِ؟".

لم تجب.. أخذت الفنجان ومضت.. صاح وراءها: "ماذا؟".

"لا شيء".

لحق بها إلى المطبخ:

"قولي لي".

"لستُ فتاحة فال".

"شحب وجهك وكأنكِ رأيتِ جهنم".

" لم أر شيئاً".

"أرجوكِ".

ناداه المستر ديفيد.. خرج وركب سيارة الفولكس واكن إلى جانبه.. فطن إلى سخافة وضعه، أن يكون هو الخريج في جامعة أكسفورد مؤمناً بمثل هذه الخزعبلات.. من ثم نسي أمر الفنجان وانهمك في العمل.. وكان في المكان عينه، بعد يومين حين أحضرت له نعيمة قهوته.. لم يكن ينظر إليها.. قالت:

"طرقك مزدحمة، غير آمنة، لكنك ستنجو دائماً، ولن تعرف الراحة.. طويلاً ستعمِّر، غير راضٍ، وتنتظر ما لا يأتي".

في هذه اللحظة جاء المستر ديفيد، وابتعدت نعيمة:

"تصوّر يا رمزي، هذه المرأة تفعل كل شيء في أوانه بالرغم من أنها لا تعرف الساعة.. وحين قدمت لها جاكلين واحدة من ساعاتها رفضت أن تأخذها، قالت إنها لا تجيد قراءتها".

يرى هانا بقبعة اللباد وبنطال الكتان التبني اللون والكنزة الصوفية تسوي التربة بيدها وتقتلع الأعشاب الضارة، ولا تنتبه إليه وهو شبه مختبئ على مبعدة عشر خطوات تحت شجرة الحور.. تقبل كمارا بيدها مقص قطع الأغصان ولا تلمحه هي الأخرى.. يسمع هانا تقول: "تخلصي من الورود الذابلة وشذبي الشجيرات". تباشر كمارا بقص الأغصان النافرة بثقة وحنكة.. يلبث في وقفته مفتر الثغر مفعماً بالدهشة والحنان يتطلع إلى جسد هانا المنحني المتناسق الجميل الذي لم تفقده سنواته الستين رونقه.. يركز النظر، إذ تنحني على وردة راعشة في الهواء تشمها، في قوس الظهر الذي يرسم مع تموج الورك ويلتف بحميمية مع الخط البديع لساقها الطويلة، في الضوء المسرف للنهار، مشهداً أنثوياً باهراً.. تقول كمارا: "تأخر السيد رمزي".. تقول هانا: "قد يصل في أية لحظة". تقول كمارا: "لو تسمحي لي بعمل ذلك المقلب.. لن يزعل وسنضحك كثيراً".. يصيح رمزي من مكمنه تحت شجرة الحور قرب جدار المترل: "أي مقلب يا كمارا.. لا تنسي أنني

أعاني من خلل في القلب".. تسقط كمارا المقص وتضع يدها على فمها مبهوتة، ويستقيم جذع هانا وتقول: "أوه رمزي.. منذ متى أنت هنا؟".

يراها أمام تنور الطين وعصا السعف المسودة بيدها تخترق بنظرها عبر النار الفائرة، عبر الجدار الواطئ، الأفق الرملي الممتد، في صفاء ما قبل الظهيرة، بقدها المنتصب الذي له جلال المحاربين الآشوريين على تخوم المدن المحاصرة.. تدس عصاها في فوهة التنور وتحركها.. يطقطق حطب السعف اليابس وتفلت بعض أصابع السعف المرمدة هاربة من اللظى لتطير في الهواء.. تخمد النار.. تحني جذعها بزاوية 45 درجة.. تتقوس مؤخرتها الصغيرة بتكويرة مرفوعة أليفة تشي عن بقايا أنوثة لم يفها القدر والحظ حقها. وتلتفت نحوه فيبتسم لها.. تعود وتنظر في جوف التنور من غير أن يوحي وجهها بأي تعبير.. تأخذ كرة عجين تفرشها بين راحتيها بمهارة مصفقة بها وتنحني أكثر ملصقة العجين الذي استدار في شكل قرص على جدار التنور الداخلي.. كان يحب أن يراقبها وهي تخبز، لكنها لا تبالي.. تعمل بصمت الملائكة وهيبتها.

هانا

حين يأتي يحتد شعوري بالأشياء، بما حولي، بنفسي.. الجاذبية الناعمة لحضوره، لنبرة صوته الدافئة، لطريقة جلوسه المسترخية، تمنحني ساعات عصية على النسيان.. أسترق النظر إلى حافة كوب الشاي تلمس شفته السفلى، إلى العروق النافرة على ظاهر يده، إلى شعره المفضض المرسل على أذنيه، إلى فائض الضوء في عينيه همّجه، كما يعلمني حدسي، قوة كوننا معاً، في هذا الهزيع الأخير من الحياة، تاركةً ابتسامة خفيفة تطوف على فمي، بالرغم مني. لأحظى بما يسميه هو أنوثتي التي لا تشيخ.

هو ليس كاملاً، ليس ملاكاً، ليس وسيماً كما هو ألان ديلون، وأظنّهما في سنٍّ واحدة. ليس مثالياً، ليس عصرياً جداً، له مكامن ضعف مؤسفة، ولعل هذا، فضلاً عن منازعات روحه، ما يجعله محلّ اهتمامي وتفكيري.

هو هنا في منزلي لأنه حرّك راكداً فيّ.. لأنه انتشلني من الملل. لأنني أريده أن يأتي.

يثبت عينيه في عينيّ.. طريقة تقليدية في الإغواء غير أنها ما زالت منذ ملايين السنين فعالة. وحين أسأله، وابتسامتي تتسع، إن كان

يسعى من وراء نظرته هذه إلى شيء، يقول ضاحكاً وهو يحكّ ذقنه "كل شيء يا هانا، كل شيء".

"ماذا لو نلعب الورق".

"كل لعب معكِ ممتع وجميل عزيزتي".

"دعك من عباراتك الصبيانية فلن تؤثر فيّ".

"للأسف.. أين الورق؟".

لساعة ونصف الساعة نلعب البوكر فألحق به هزائم منكرة.. يضحك ويقول:

"أجعلك تفوزين لأرضي غرورك".

"هذا كلام العاجز يا رمزي".

أمسك يده، فيرفع يدي ويقبل أصابعي. أقوم كي لا أجعله يتمادى.. أعرف أن هذا يغيظه فأقترح عليه أن نخرج إلى الشمس وهواء الحديقة.

رمزي

لم يحدث منذ شهرين، هكذا، أن تناولنا، نحن الثلاثة، فطورنا معاً.. فيروز تغني والعاصفة تدوّم وتتوالى انفلاقات الرعد.. تقترح رحاب أن يشترك نزار في دورة متقدمة لتعلم اللغة الإنكليزية تمتد لثلاثة شهور في

مؤسسة جديدة اسمها (UNLIMITED LANGUAGE).. تقول إن عروضها مغرية، وقد لا تتكرر مستقبلاً بعد أن تثبت المؤسسة أقدامها في السوق. يرد نزار "كما ترون" وهو يمضغ طعامه وينقر بأصابعه الدقيقة السريعة على سطح شاشة موبايله.

أثني أنا على الاقتراح مشجعاً إياه لعله يكسر هذا الطوق الإلكتروني عنه ويجري مع تيار الحياة. يرن جرس هاتفي.. أضع كوب الشاي على طرف المائدة وأنظر في شاشة جهازي.. أعرف من نظرة رحاب الخائفة إليّ أن ملامحي امتقعت.. أضغط على العلامة الخضراء وأقول: "نعم".. ليلي هي من تكلِّمني في صباح الأحد المكفهر هذا.. تعتذر عن اقتحامها الاضطراري لخلوتي وتسأل إن كنت سمعت عن ألواح طينية سومرية وجدها الأمريكان في منطقة أور مؤخراً.. أقول: "منذ 2005 لا أدري ماذا يجري هناك.. لماذا لا تسألوهم". تضحك، فأقول وقد تولاني الفضول: "ما طبيعة تلك الألواح.. ماذا تحوي". تقول: "لسنا متأكدين بعد، شكرا". وتغلق الخط.

"ماذا هنالك بابا؟. حين عرفتَ من يكلمك شحب وجهك".

"لا.. هم جهة بريطانية مهتمة بالآثار سألوني عن شيء يتعلق بالتنقيبات في العراق".

"أهناك ما يقلق في الأمر؟".

"لا طبعاً".

"أيضايقونك هنا؟ هل هم جهة رسمية؟".

يبدو أني أجبتها بنبرة حادة.. سكتت لكن الشكوك بدأت تراودها قطعاً.. إنها ذكية إلى الحد الذي يثير غضبي.. أشعلت سيجارة وخطوت باتجاه النافذة.. سحبت الستارة قليلاً.. أمامي الغيوم تتصادم وتأتلق البروق، وتحت على رصيف الشارع تجلد العاصفة الأشجار فتترنح.. ولا أبصر أي شخص يمر. والسيارات القليلة تسير ببطء.. أتملى هذا الجمال الشرس الكئيب المرصع بصوت فيروز.. أشعل سيجارة ثانية.. أشعر بيد رحاب على كتفي.. لا ألتفت.

"بابا.. قل لي.. من الواضح أن هناك شيئاً تخفيه عنا".

"هو شيء مزعج فقط، لا خطر منه، ولا تأثير له على وضعنا هنا إن كنتِ تشيرين لهذا".

"أنت تشوِّشني أكثر.. خوفي عليك.. تعرف كيف هي المخاطر التي تواجه الكفاءات العراقية".

"هم فقط يريدونني مستشاراً وأنا أرفض".

"من هم؟".

"لا أدري.. حقاً، لا أدري".

أستدير وأواجهها.. ألقي ذراعيّ على كتفيها، وأهمس:

"لا تقلقي.. ما أنا واثق منه أنه لا خطر من النوع الذي تفترضين".

"ما تقوله لا يهدئ بالي".

ما كان يجب أن أثرثر أكثر بشأن هذه المكالمة.. استدرجتني فتكلمت على نحوٍ أخرق مما زاد من توجساتها.. وفيروز تغني (وحدن).. نظرت إلى نزار.. هو الآخر استشعر ذبذبات القلق التي تشحن الفضاء بيني وبين رحاب.. لم ينطق سوى بعبارة "أكو شي؟". قالت رحاب مصطنعة ابتسامة بدت مقنعة: "ماكو شي". فقام ودخل غرفته.

رنّ هاتفي ثانية.. الرقم غريب.. قررت ألا أرد.. جاءتني رسالة من كمارا تخبرني فيها أنها اتصلت من موبايل زوجها لأن رصيد موبايلها نفد.. رن الجرس ورحاب تزداد قلقاً.. هذه المرة فتحت الخط..

"نعم كمارا، ماذا هنالك؟".

"طفلتي مريضة، ومسز هانا تقول إنها تتحرج من مخابرتك، فهلا ذهبت إلى هناك، أعرف أن هذا يسرك".

ضحكتُ بصوت عال وقلت: "يا لك من خبيثة.. سأذهب".

جلست رحاب على أقرب كرسي ومدت ساقيها بقصد الاسترخاء:

"بابا، أصدقني القول.. ما طبيعة علاقتك بتلك العجوز الإنكليزية؟".

أثارتني كلمة العجوز و لم أميّز من نبرة صوتها في ما إذا كانت تمزح أو هي مستاءة من علاقتي بهانا.. فقلت وأنا ابتسم كي أكسر ما خلفته مكالمة ليلي من توتر.

"تجيدين دور المحققة يا رحاب.. كان من الأفضل أن تمتهني المحاماة أو القضاء.. ثم هي ليست عجوزاً كما تتخيلين".

"أخشى...".

"لا تخشي شيئاً.. وفكّري فقط بأنني بحاجة إلى هذه الرفقة".

"أهي قصة حب؟".

أردت أن أبدو ساخراً جداً:

"كلانا اجتاز سن الستين حبيبتي، لذا لن ننجب لكِ أخاً صغيراً يزاحمكِ على الإرث".

لم أنطق قط في أي حديث لي من قبل مع ابنتي بعبارة لها دلالة جنسية وإن كانت بعيدة، ولا أدري كيف أفلت مني ما قلته.

ضحكت وقالت: "افعل ما يسعدك بابا".

ولست متأكداً من أنها قصدت في كلامها هذا فحوى جنسياً. فحاولت أن أقطع سجالنا عند هذا الحد، كي لا يصل بنا إلى ما لا أرجوه.

دخلت غرفتي وقبل أن أجلس اتصلت بهانا: "عزيزتي، سأكون عندك بعد الظهر حتى وإن حدث الطوفان".

هدأت العاصفة قليلاً بعد الظهر. والغيوم كتل قاتمة تطوف بين البنايات العالية، وخيوط المطر ترشق الأشجار التي تتلوى على رسلها إلى جانب الشارع.. المدينة مبللة، شبه معتمة، والسيارات أشعلت أضواءها وكذلك المتاجر.. أوصلتني رحاب إلى المحطة بسيارتها الفولكس واكن.. دلفت إلى الصالة.. فوجئت بإيميلي تجلس على مقعد تقرأ في كتاب جيب.. فكّرت أن أتجاهلها غير أنها رفعت نظرها ولمحتني.. صاحت: "مستر رمزي".. "أوه".. "تعال اجلس.. خمس دقائق إن لم تكن مستعجلاً.. أرجوك".. لديّ نصف ساعة و لم أكن في مزاج يسمح لي بالإصغاء لثرثرتها.. قلت: "لا بأس، كيف حالكِ". دست كتابها في حقيبتها وسألت: "إذا قال رجل لامرأة إنه يراها ألطف وأرق امرأة في العالم فهل هذا يعني أنه يحبها". خمنت أن رجلاً، ربما يكون من الذين يحضرون معها جلسات محاربة الإدمان، قد قال لها مثل هذا الكلام.. قلت: "قد يكون الأمر كذلك".. "قد".. "قد يكون مجرد إعجاب عابر.. تعبير مجاملة.. محاولة إغواء.. أو تمهيداً للتورط في قصة حب".. "تورط". "تورط لذيذ".. "آه.. وكيف للمرأة أن تعرف الاحتمال الأكثر ترجيحا؟".. "بالتجربة.. بما ستؤول

إليه الأمور في ما بعد". "هو في الخمسين، ربما أصغر ببضع سنين".
"أليس فارق السن بينكما كبيراً؟". "إذا توافرت الشروط الأخرى فلا مشكلة في فارق السن".. "أنتِ على حق؟".
"أنت شخص لطيف مستر رمزي".
"وماذا أفهم من هذا؟".
أطلقت قهقهة جعلت بعضاً ممن سمعها يبتسم..
"لطيف ومرح".
شكرتها وهممت بالقيام لأودعها فسألت: "ترى ما السر في أنني أثق بك".
"لأني صديق جيد".
قهقهت ثانية.. كان عليّ أن الحق بقطار الثانية والنصف.. استأذنت لأذهب فقالت:
"الكلام معك يريحني.. أتسمح أن تعطيني رقم هاتفك".
وقفت متردداً،
"لا بأس إن كنت لا تود أن نتواصل.. أفهم موقفك".
"لا مشكلة.. خذي، هذه بطاقتي".
حكيت لهانا عن مصادفات لقاءاتي بإميلي ونحن نشرب الشاي ونأكل قليلاً من الكعك

"أنت هنا منذ شهور فقط وصرت بطلاً لقصص غامضة".

"لا غموض في المسألة.. إيميلي تحتاج إلى صديق لتستعيد عافيتها النفسية".

"تقول إنها مدمنة كحول، أو ربما فرد في عصابة، وأعطيتها بطاقتك".

لعلها على حق في توجساتها.. خطوتي هذه كانت حمقاء.. كان يمكن أن أعطي إيميلي رقم هاتفي فقط، أو أن أعتذر وأمضي في حال سبيلي.

"لديّ ألف سبب كي أقلق، ولا أريد سبباً آخر.. لا أريد أن أقلق بشأن أمر لم يحصل".

"لنقل إنها امرأة مستوحدة بحاجة إلى صديق مثلك، ولا علاقة لها بالعصابات والمافيات.. ماذا لو طرقت بابك ذات ليلة وهي سكرانة تصرخ".

"أنتِ تتخيلين أشياء يا هانا، لا أظنها مجنونة إلى هذا الحد".

يسطو على محيّاي الغم.. هذا ما أشعر به، وتشعر به هانا.. تشفق عليّ.. تمسك يدي وتربت عليها وتقول: "الوحدة الطويلة.. هذا هو السبب.. نتوقع الجانب السيئ".

" كيف سنقضي ليلتنا؟".

"أنت لا تشاهدين التلفزيون أبداً".

"أحياناً إذا كان هناك فيلم قديم جيد سبق وأن شاهدته".

أضحك وأقول: "هانا.. حمداً لله منحتني كمارا عذراً لأجيء، وإلا أنا أختنق في تلك الشقة".

"هل من جديد بخصوص ليليان وزمرتها اللعينة؟".

"اتصلت صباح اليوم.. يظهر أنني ارتبكت فشعرت رحاب أن هناك شيئاً مريباً في الأمر".

"ماذا أرادت؟".

"سألت إن كانت لدي معلومات عن تنقيبات الأميركان في أور".

"كتب أبي في مذكراته أن مصدر كل شيء في تلك البقعة المهملة من الصحراء".

"مذكراته؟!".

"أقصد بعض أوراقه.. لا شيء مهم فيها".

اجتاح تيار بارد عمودي الفقري.. قلت مع نفسي: "أهمية ما كتبه لا تستطيع واحدة حمقاء مثلكِ معرفتها".. من الوقاحة أن أطلب منها الآن الاطلاع على تلك الأوراق، ولكن يجب أن أجد طريقة.. ولكن لو كانت عند المستر ديفيد معلومات حاسمة تخص ماضي حضارتنا فلا أظنه سيخفيها إلا إذا...

"أين اتجه تفكيرك، لن تجعلني أتناقش في هذه الساعات الكئيبة عن التنقيبات الآثارية".

"في مثل هذا الجو، هناك، كنت مع أصدقائي نتبارى بتداول النكات البذيئة".

"يا له من حل.. أتعرف أي واحدة؟".

"لن تجعليني أُسمعك كلمات فاحشة".

"أرجوك، واحدة فقط".

ينبغي أن أحترس في الكلام مع هانا حتى لا أقع في مثل هذه الورطة.. تلح كأنها طفلة نزقة حرون.. حاولت ثنيها عن طلبها واقترحت أن نلعب الورق أو أقرأ لها من قصائد إليوت أو أي شاعر آخر، وبقيت تقول وهي تضحك: "أرجوك رمزي.. واحدة تجعلني أضحك بقوة".

"في هذه الحالة أحتاج كأسين من الشراب".

شربنا أكثر من كأسين وحكيت لها أول نكتة.. كادت تنقلب من كرسيها وهي تضحك.. بعد انتهائي من النكتة الثانية تمددت على أرضية الصالة قرب المدفأة مثل كمارا وراحت تضرب السجاد برجليها وضحكها يتعالى وأنا أضحك معها.. من ثم فقدنا وقارنا تماماً بعدما حكيت لها كل ما تذكرته من ذلك النمط من النكات التي تقطر فحشاً حتى آلمها صدرها.. كان هذا كافياً ليزيل عنّا كآبة المساء..

حين قدتها إلى فراشها لتنام كانت نصف سكرانة، ومنتشية للآخر.. انحنيت وقبلتها من جبينها وقبلتني من وجنتي.
في فراشي بقيت يقظاً حتى ساعة متأخرة، على الرغم من كؤوس النبيذ التي كرعتها.. كنت أفكر بمذكرات المستر ديفيد، وماذا يمكن أن يكون قد دوّن فيها. وكانت العاصفة تهدأ في الخارج، والمطر يتوقف.

رمزي

أغيّر رأيي بوحي من مزاج مضطرب.. أغادر مقهى Green Star قبل أن أطلب شيئاً.. أخترق ضباباً رمادياً مقبضاً.. يمكن للقلب أن يتوقف عن الخفقان في أية لحظة بسبب البرد.. هذا شتاء لا يريد أن ينتهي.. أشتري قهوة بقدح كرتوني من متجر صغير.. أشربها وأنا أمشي.. أحظى ببعض الدفء.. أصعد الحافلة قاصداً مكتبة المتحف البريطاني.. لا أخلع معطفي وقبعتي الفرائية حين أجلس.. ما تزال قدماي مثلجتين.. أرفع نظري.. تلتقي عينيّ بعينيّ إيميلي العسليتين الصافيتين.. مقعدها أمامي، على بعد طاولتين من مقعدي.. تبتسم.. لا تبدو متفاجئة.. بيد أنني متفاجئ قليلاً.. أرفع يديّ لأحييها.. أحسب أنها هنا بسببي.. من لقائنا السابق في الحافلة عرفتْ أنني أرتاد

هذا المكان.. تبغي الصحبة.. لا صديق لها، وربما لا صديقة أيضاً.. وإذاً لماذا لا تصادق شيخاً في السادسة والستين مستعداً للإصغاء لثرثرتها.. أعترف أن حضورها لا يزعجني.. ما زلت أرتدي قفازاتي.. أنتزعها وأحشرها في جيب حقيبتي.. أفتح كراستي على ورقة بيضاء.. ليست لديّ فكرة جاهزة لأدونها.. لماذا لا أكتب أي شيء يخطر على بالي حتى أمسك بشيء جيد في النهاية.. لأجرب هذه الطريقة التي كان يتبعها هنري ميللر.. لعلها تفيد.. تسقط إيميلي من رأس قلمي السوفت.. أكتب جملة عن شعرها الأسود، وجملة عن امتلاء جسمها.. تصادف وجودنا في الحافلة عينها قبل أسبوعين.. ربما جاءت، في الأيام الفائتة، إلى هنا، أكثر من مرة.. لا أتوهم أنها تكنُّ لشخصي ذلك النوع من الإعجاب.. لست لقية جذابة جنسياً للفتيات.. ربما كان يمكن لو كنت في الثلاثين، في الأربعين.. أدير زاوية ذهني نحو هانا.. ماذا يمكن أن أحكي عن هانا.. الحضور الكثيف لإيميلي القريبة مني يعيقني.. أرفع بصري فأراها مستغرقة في قراءة كتاب.. لا أطيل النظر إليها خشية أن ترفع بصرها هي الأخرى وتضبطني متلبساً بالتلصص عليها. يخطر لي أن عقلها لا يستوعب ما تقرأ، بل يفكر بي.. أدخل رهاناً مع نفسي.. لا أظنها ستترك المكان قبلي.. هي هنا لأجلي.. سأبقى حتى ساعة الغداء.. إن بقيت،

ولحقت بي عند مغادرتي فسأدعوها لوجبة في مطعم.. إن لم تفعل فلن أبالي.. تساءلت إن كنت أود أن تمضي معي بعض الوقت أو لا.. لا أمتلك إجابة حاسمة.. لو لم تكن هنا فلربما كنت سأكتب بضع صفحات جيدة.. يتراح تفكيري إلى حلقة المستر ديفيد المفقودة.. (THE LOST RING) سيكون عنواناً جد سخيف لو اخترته لكتابي المرتقب.. أكتب جملتين وأشطبهما مع الجملتين السابقتين عن شعر إيميلي وجسمها.. بعد لحظات تتلاحق جمل أخرىأكثر تماسكاً في النصف الأسفل من الورقة:

(يحكون عن حلقة مفقودة، حتى أنهم ليسوا على يقين من أنها حلقة واحدة فقط. شيء يشبه الخاتم، بافتراض أنه واحد، مدفون في مكان ما من الجبل الهائل وأنتَ عليك أن تفتته، أقصد الجبل، بأصابعك وتبدأ البحث.. وإن فعلت ونجحت في العثور على الخاتم كيف تتأكد من أنه ليس زائفاً.. قد تحتاج البشرية إلى جيلين، خمسة أجيال، قرون، لا أدري حتى نفك اللغز.. اللعنة إن لم يكن الخاتم في الجبل.. يا لمضيعة الوقت إنْ لم يكن هناك لغز).

أبصر رجلاً في نهاية القاعة، خلف موضع جلوس إيميلي. يبحث في رفوف الكتب. أخاله البروفيسور رايت.. أرى جانب وجهه.. يبعد عني أربعين متراً.. ليس من الهين لرجل في سنّي أن يميز شخصاً عبر

هذه المسافة.. يملؤني كدر خفيف.. ما همّني إن كان البروفيسور رايت هنا.. إن كان يبغي مراقبتي فيمكن أن يرسل أي شخص لا أعرفه.. رجل بمكانته لا يليق به أن يؤدي مثل هذا الدور الحقير.. إن كان هو فوجوده مصادفة ليس إلا.. ولكن ماذا لو كانت إيميلي هي الأخرى في ضمن فريقه.. هذا الاحتمال المخيف يجعلني أقدِّر أن المسألة أعقد مما أتصوّر.. أفكِّر أن أهرب، غير أنني سرعان ما أعدل عن قراري هذا.. لأواجه ما يحصل.. فراري الآن لن يدعني في سلام.. سأمضي الأيام التالية في مرمى الهواجس والتوقعات السيئة.. أنزع نظارتي وأنظفها بمنديل ورقي.. أفرك عينيّ بمنديل آخر.. لن أستطيع أن أكتب شيئاً اليوم، طالما هنا إيميلي ومن أخاله البروفيسور رايت.. أقوم تاركاً حقيبتي على كرسيِّ.. سأذهب لأتأكد من أن الرجل الباحث في الرفوف هو المستر رايت حقاً.. مع أولى خطواتي يتحرك هو الآخر خارجاً.. أواصل سيري.. في الخارج لا أجده.. لعله دخل من أي باب من هذه التي أمامي.. أمضي إلى الكافتريا لأشرب الشاي.. مع أول رشفة وأنا أجلس تجلس إيميلي قبالتي إلى طاولتي وبيدها كوب قهوة.. تحييني وتقول:

" أنت تتساءل إن جئت مصادفة أو من أجل أن ألتقيك.. الجواب هو الشيء الثاني".

ضحكت وضحكت، وكنت جزعاً بسبب البروفيسور رايت، أو من أعتقدته هو.. سألتها إن كانت تعرف شخصاً اسمه البروفيسور رايت؟.. أردت أن أقيس درجة ارتباكها إن كان في الأمر ما هو مبطن ومخطط له..

"من يكون.. أهو زميل لك في مجال الآثار؟".

"وكيف عرفتِ أن تخصصي هو الآثار؟".

"أنت قلت لي.. سألتك عن عملك في الحافلة لمّا التقينا".

لست أجزم إن كنت أخبرتها عن مهنتي السابقة أو لا.. ولكن رد فعلها على سؤالي عن البروفيسور كان طبيعياً.. أعلم أن المشتغلين في المؤسسات الاستخبارية يكونون متدربين من مستوى عالٍ لمواجهة المفاجآت.. قلت:

"إذاً أنتِ هنا لأجلي".

"نعم.. جئتُ قبل يومين أيضاً لكنك لم تأتِ.. أنا محظوظة لأنك جئت اليوم".

"لماذا؟. ماذا تريدين مني تحديداً؟".

تعمدتُ أن أكون فظاً.. لابد من أن أخضعها لاختبار لأقع على حقيقة ما تبغي.. ابتسمت بارتباك:

"لست من ذلك الصنف.. أريد الرفقة.. فقط".

"لِمَ أنا؟".

"لأنك تصغي جيداً.. أتطلب مني أن أغادر طاولتك؟".

ضحكتُ وربت على يدها:

"لا.. يريحني بقاؤكِ".

"يسعدني هذا".

"كنتِ مندمجة بالقراءة".

"رواية جين آير".

"قرأتها قبل سنوات بعيدة".

"من هو البروفيسور الذي سألتني عنه.. أعني أن سؤالك كان غريباً".

"لا عليكِ.. لمحته من بعيد وتصوّرت أنكِ ربما تعرفينه".

"أشعر أنك غير مرتاح بشأنه.. طريقة سؤالك عنه".

"لا أدري.. أظنه يلاحقني، يتلصص عليّ".

"لم؟ ما الذي يريده منك؟. أيهددك؟. لماذا لا تبلغ الشرطة؟".

"لا، لا.. ليس مثلما تتخيلين.. المسألة معقدة نوعاً ما".

كانت متنبهة ومهتمّة، وفي عينيها بريق فزع.. لماذا أخبرها بهذا كله؟.

"وأنت اعتقدت بأني أعمل معه.. عميلته".

"انسي الأمر.. الوحدة، بعدي عن بلدي، ومشكلات عائلية، كل هذا يجعلني أتخيل أشياء".

"كيف بدأت الحكاية.؟. آسفة، أنا أتجاوز حدّي.. ليس عليك أن تحكي لي".

"ربما في يوم ما سأحكي لكِ.. والآن دعينا ننسى هذا البروفيسور واحكي لي أنتِ".

"هو غريب الأطوار.. لا أدري.. ليس مؤذياً.. ربما أثرت الكحول على قواه العقلية.. أحياناً يقول أشياء لا أفهمها"ز

"هل خرجتما في موعد"ز

"لا، ليس بعد".

"وكيف اكتشفت هذا الذي تقولينه عنه".

"نتكلم بعد الجلسة.. نتمشى مسافة وثم أهرب منه.. لم يجبرني على شيء، ولكن طريقة كلامه.. أشاهدت فيلم رجل المطر.. أوه، ليس هكذا.. أقصد، لا أدري.. سألني إن كان لديّ صديق، قلت نعم، وكنت أقصدك أنت".

"أنا؟!".

"أفهمته أنك كبير في السن وتستمع لي.. مثل أب".

"آه".

"أيغضبك هذا.. يبدو أنني تماديت".

أضحك.

"لا، أبداً.. يسرني أن أكون في مقام والدكِ".

"شكرا".

لم يكن قد غفا بعد لكنه لم ينتبه إليها وهي تتسلل على أطراف أصابع قدميها إلى غرفته.. حسبته للوهلة الأولى نائماً، فأجفانه مغلقة، وتنفسه آخذ بالانتظام.. كان عند تلك الحافة الضبابية من الوعي حيث العالم على وشك الغياب.. فكرت أن تنسحب وتدعه يرتاح، غير أنه، في هذه اللحظة، فتح أجفانه كمن يستيقظ من حالة خدر.. جفل وحاول أن يجلس في الفراش ولم تطاوعه أعضاؤه.. كانت واقفة في العتمة تنظر إليه.

"هانا؟".

"اترك لي فسحة".

انزاح عن موضعه رافعاً غطاءه فتمددت إلى جانبه على السرير.. زفر بارتياح أما هي فأدارت جذعها قبل أن تتوسد كتفه.. دسّ أنفه بين خصلات شعرها وتلاحقت أنفاسه على فروة رأسها وقال:

"رائحة رأسكِ طيبة".

وانقلب بجسمه واحتضنها.. شمّ رقبتها وقبّلها.. قالت:

"لن أبقى أكثر من خمس دقائق".

"أعرف.. أنتِ بحاجة إلى قليل من الدفء".

"من الشعور بالأمان".

"الأمان؟".

"لستُ خائفة من شيء. أرغب فقط باستعادة النكهة".

"الحياة".

"بالضبط.. أنت دائماً تمتلك الكلمة الصحيحة".

صمتا.. ودَّ أن يقول لها: أشعر وكأني أحتضن الحياة كلها. ظنَّ أنها عبارة مبتذلة.. قال:

"هل أنتِ على ما يرام؟".

"لستُ أشكو من شيء، لاسيما في هذه اللحظة".

"الاكتفاء، التكامل.. أي شيء؟".

"نعم".

ودّت أن تكرِّر القول:

"أنت تعرف الكلمات الصحيحة".

سكتت.. استغرقتها صور وأفكار لا ضابط لها.. مرّ وقت طويل.. صدر منها شخير خفيف.. عاد وحشر أنفه في كرة شعرها.. لا يدري متى نام هو الآخر.

لّما استيقظا كان ضوء شاحب يملأ الغرفة.. كان نهاراً مشمساً.

"لماذا أنا هنا في فراشك؟".

كانت ما تزال بين ذراعيه.. قهقه وقال:

"حملكِ إليّ الملاك الأزرق".

"لا تقل لي أننا...".

"أبداً يا هانا.. كنتِ بردانة وبحاجة إلى الدفء ليس إلا".

"ألن تدعني أغادر".

رفع ذراعه عنها.

لم تتحرك.

"ألن أُصاب بالبرد لو تركت الفراش الآن؟".

"ماذا تقترحين؟".

دفنت رأسها في صدره المشعر.. حكته بأنفها.. شعر بإثارة عالية، وكاد أن يشدها إليه ويقبِّل شفتيها.. قامت ونزلت من الفراش.. قالت:

"رائحتكَ طيبة أيضاً".

"أوه، هانا.. هانا".

غرفة ديفيد

عليّ أن أحذر جداً إذا ما كلمتها عمّا ترك أبوها من وثائق وأوراق.. في هذه الحالة أنا بحاجة إلى أن أحافظ على عفويتي في الكلام ونبرة

صوتي التي تعرفها، وأن أستدرجها خطوة بعد خطوة وبصبر سلحفاة. في مقابل أن أجنبها أي سوءٍ محتمل..

هانا حساسة وذكية، وأي خطأ من هذا القبيل سيؤذيها، وربما سينسف كل ما حققته في العلاقة معها طوال الأشهر الماضية.

أعترف أن مؤسسة البروفيسور رايت أوقدت فيّ فضول المعرفة مجدداً، ولكن ليس من أجلها أقدم على ما أقدم عليه، بل من أجلي أنا في هذه المرّة.. وإذا ما وجدت أي شيء مفيد على وفق معايير العلم والأخلاق فلن أتردد في نشره، حتى وإنْ سعت تلك المؤسسة أو غيرها لاحتكاره وإخفائه لسببٍ ما.

قلت لهانا: "لو تدرين كم أحنُّ إلى أيام الرفقة مع المستر ديفيد".

"للماضي إغراؤه دائماً.. أظنّك تحنُّ لمواسم شبابك".

"ليس هذا فقط.. كان المستر ديفيد يعني لي الكثير".

"كما تعلم بدد حياته بين الحجارة".

"قدّم خدمات جليلة للبشرية.. تضحياته في محلها".

"خدمات جليلة.. هه.. جليلة".

"ألستِ فخورة به؟".

"افتقدت إلى الحب دوماً.. كان بعيداً عنا حتى بعد تقاعده ومكوثه في البيت".

"كان يحبك؟".

"على طريقته.. بصمت.. كأنه يتأمل إيقونة من العصر البرونزي.. عاش في الماضي دوماً".

"تعرفين مكانته في الأوساط الآثارية والأكاديمية.. بفضله نحن نعرف اليوم أكثر عن ماضينا".

"اللعنة.. ما الفائدة؟ أليس سبب مصائبنا اليوم هو أننا نعرف أكثر عن الماضي.. ألسنا نتكاره ونتقاتل لأن أجدادنا كانوا يفتكون ببعضهم بعضاً.. الشيطان يختبئ هناك في المتاحف وبين طيات الكتب القديمة".

"أنتِ تبسطين الأمر.. تنظرين إليه من زاوية واحدة، ضيقة".

"دوماً هناك مسوغات للحمق".

"قدرنا أن تكون لنا ذاكرة".

"أن يعيش بيننا الموتى بألمهم وعُقدهم وحقدهم".

"لولا معرفتنا بالماضي لما تراكمت المعارف ولما وصلنا إلى وصلنا إليه".

"أجل.. إلى ما وصلنا إليه.. أتعتقد أن ما وصلنا إليه يمنحنا السلام والسعادة".

"نحن نسير بذلك الاتجاه.

ضحكت.. ضحكة مبللة بالتهكم.

"أتدري.. أنت مثله.. تفكِّر مثله وتتكلم مثله".

ضحكتُ بانشراح، وقلت:

"لا تنسي أنني تلميذه".

"بالمناسبة، ألم تكن في وصيته أية إشارة إلى مخطوطات أو وثائق يقترح نشرها؟".

"لا، ترك أوراقاً لم نقرها، ما زالت هناك في الأعلى، في غرفة مكتبه".

"تعرفين، كان فريداً في اختصاصه.. أظنه افترض أشياء ودوّن ملاحظات أولية.. رجل مثله لبد من أن له مشروعه الذي عمل عليه حتى اللحظة الأخيرة.. أنا شخصياً لم أعد مهتماً كثيراً لاسيما بعد نهب المتحف العراقي.. أصبت بالإحباط وببعض اليأس.. لم تقرئي ما كتب".

"قرأت أوراقاً قليلة، لم أتحمس.. أشياء لا تعنيني.. ماذا لو نتفقد المكتب؟".

"أخشى أن أبكي".

"أوه، لا تكن عاطفياً يا صاح".

جاءت هانا بالمفتاح من غرفتها وقالت: "هيا".. صعدنا الدرج الرخامي إلى الطابق الأعلى.. كانت غرفة المستر ديفيد في نهاية ممر ضيّق.. لم يكن طلاء الباب القديم قد تقشّر بعد.. باب اعتيادي من خشب الصنوبر من غير زخارف وبأكرة نحاسية معقوفة.. لمّا دخلنا وأشعلت هانا الضوء فوجئتُ بترتيب الغرفة ونظافتها.. كل شيء في مكانه وكأن المستر ديفيد كان هنا قبل ساعات.. كنت أتوقع رائحة ثقيلة، وفوضى، وغباراً يعلو الأثاث والكتب والصور المعلّقة على الحائط.. كانت هناك صورة مؤطرة بالعاج من زمن الحُنينة.. المستر والمسز ماير واقفان أمام منحوتة صخرية لرأس امرأة آشورية بعينين لوزيتين وفم دقيق، وشعر مرسل.. أذكر فرح المستر ديفيد بذلك الاكتشاف.. كان يوماً من أواخر الخريف ولم أكن قد عرفت هانا بعد.. جلسنا نحن الثلاثة في الهواء الطلق، في فناء المترل، تحت شجرة توت وفتح المستر ديفيد زجاجة شمبانيا، واستمعنا إلى موسيقى جاز، ورقصنا أنا والمستر ديفيد مع جاكلين..

قالت هانا: "أنت ترتجف، أتشعر بالبرد".

قلت وأنا أشير إلى الصورة: "كانت ليلة جميلة، باردة.. أقصد مساء ذلك اليوم.. رقصنا في العراء".

وسقطت دمعة من عيني.. كان ثمة كرسي من الجلد البني أمام منضدة المكتب العريضة، ارتميت عليه وقلت:

"دعيني هانا أتذوق نكهة تلك الأيام".

ضحكتْ وجلستْ على الكرسي الآخر، قبالتي.

"ألن تقلِّب أوراقه؟".

"ليس الآن.. أكاد أفقد صوابي".

كانت هناك صور منحوتات، وأماكن أثرية من الحُنينة ونمرود وأور وكلها بالأسود والأبيض، فضلاً عن صورة كبيرة للمستر ديفيد التقطها له حازم باك في الأستوديو الخاص به في شارع السعدون ببغداد.. بقي رمزي يجيل بنظره بينها حتى قالت هانا:

"حين أطلب من كمارا تنظيف هذه الغرفة أبقى معها".

"نعم، أفهم".

"هؤلاء الذين يلاحقونك من أجل هراء الحلقة المفقودة اتصلوا بي قبل سنتين.. لست متأكدة إن كانوا هم أو آخرين على شاكلتهم.. شممت رائحة فاسدة ورفضت إطلاعهم على أي شيء يتعلق بأبي".

"لم تخبريني حين حدثتكِ عنهم".

"لم أخبرك، أجل، وأخشى ما أخشاه أنك هنا بسببهم، لا بسببي".

وضحكت كأنها كانت تقصد المزاح. لكنني شعرت بغصة في حلقي.

"ماذا؟ كيف لكِ أن تفكري بهذه الطريقة هانا".

"لا أتهمك يا رمزي.. لو كنت أشك حتى بمقدار ذرة لما كنت الآن في هذه الغرفة، ولا في منزلي".

"هم اتصلوا بس بعدما صرتُ أتردد على منزلكِ".

"قلت لك".

"ولو كنت أبيت شيئاً مغرضاً لما أفصحت لكِ عنهم".

"لست غبية.. أتود أن تبقى بعض الوقت وحدك، هنا؟".

"لا، على الأقل ليس اليوم".

"ما فكرتك؟".

"أن نخرج".

رمزي

تلمّست هاتفي في جيبي.. يسكنني، على الدوام، وسواس فقدانه.. لم يرن منذ ساعات.. اخترت نغمةً له موسيقى حلاق أشبيلية لروسيني، تلك المقطوعة التي رافقت مقدمة برنامج (الرياضة في أسبوع) لمؤيد البدري سنوات عديدة.. وضعها لي نزار، وأخبرني أنه يمكنه تغييرها متى ما شئت.. أحبُّ موسيقى شوبان وموزارت، لكنني أستمع إلى آخرين كثيرين أيضاً.. تعجبني نجاة الصغيرة، وفائزة أحمد.. تعجبني

فيروز وأم كلثوم.. يعجبني محمد عبد الوهاب وحسين نعمة، واستمع للمقام العراقي.. أغرمت جاكلين بموسيقى الجاز، بـــ CHET BAKER تحديداً، وكذلك المستر ديفيد كانت موسيقى الجاز تستهويه فضلاً عن شوبان الذي جعلني أعشقه.. كان يقول لي: "الموسيقى تكافئ السوائل من منظورٍ ما، قل ما يُشرب، ما يُحتسى.. هناك موسيقى هي عصير فواكه، هناك موسيقى هي نبيذ أو ويسكي أو شمبانيا.. هناك موسيقى هي ماء، والماء أنواع كما تعلم كما العصائر والكحول، فماء النبع غير ماء البحر، وماء المطر غير ماء النهر.. الموسيقى حياة يا رمزي.. هؤلاء المحرومون من الموسيقى لم يعيشوا، لن يعيشوا". وفي مرة قال، وقد تعتعنا السكر وكان الغرامفون يدور صادحاً بكونشورتات مايكوفسكي:

"عزيزي رمزي هذه فودكا بالليمون.. بيتهوفن ويسكي لاذع، شوبان نبيذ معتق منذ نصف قرن، موزارت شمبانيا، الجاز شيء آخر، إنه كثير من البيرة في مساء دافئ".

أقول لهانا: "أما أنتِ فكنتِ مجنونة بفرقة THE BEATLESS لما قدمتِ إلينا في الحُنينة.. كنت ترددين أسماء جون لينون وبول مكارتني ورينغو ستار وجورج هاريسون وكأنهم شفعائك.. كنت تترنمين طوال الوقت بكلمات أغنية Yesterday".

"يا لذاكرتك يا رمزي.. أوه، لابد أن يكون المرء مجنوناً حقاً لكي يتذكر هذه التفاصيل طوال أربعين سنة".

وراحت تنقر على مسند الكرسي الخشبي الذي تجلس عليه، وتغني بصوت خافت وناعم:

Yesterday
all my troubles seemed so far away
Now it looks as though they're here to stay
Oh, I believe in yesterday
Suddenly

واستغرقت بالضحك.

"صوتكِ ما يزال جميلاً هانا".

"لا تتملقني.. أعرف كيف هو صوتي".

لف الحزن محياها وتعكرت نظرتها.. تركتها لتتقصى بعض ذكرياتها البعيدة.. نحتاج أن نحزن أحياناً، وأن نشعر بالحنين، وحتى أن نذرف قطرات دمع.. رن هاتفها.. سألتها كمارا إن كنا سنتناول عشاءنا في الخارج.. حوّلت السؤال إليّ.. قلت: أجل..

"أتعرفين مكاناً هادئاً يمكن أن نتعشى فيه ونشرب نبيذاً ونستمع إلى الموسيقى.. لا تخافي، الدعوة على حسابي".

"هذه الأماكن غالية يا رمزي.. يمكن أن نأكل في مطعم رخيص وفي المنزل نشرب ونستمع إلى ما نرغب".

"دعينا نحظى ببعض المتعة بين الوقت والآخر.. بعد هذا العمر نستحق".

الإضاءة خافتة يغلب عليها اللون الأحمر الخفيف المشرّب بالوردي، وعلى الموائد شمعدانات، وشموع مشتعلة.. الشاب الجالس إلى البيانو يغني برقة أنثوية عذبة.. غنى لسيلين ديون وكريستوفر كروس.. والنبيذ الفرنسي الأحمر الذي بدأنا باحتسائه مخمّر منذ اثنتي عشرة سنة.. "أكلات بحرية" اقترحت هانا.. لم لا، وقلت لن آكل سلطعوناً، ضحكنا.. طلبتْ الاستكوزا مع سلطة خضار مقلية، وطلبت سمك الرنجة، مع سلطة المعكرونة.. كل ما آكله وأشربه، وهانا معي، لذيذ.. حين انتهينا ضبطتني متلبساً بالتفرس في وجهها.. قالت من غير أن تطلق صوتاً: "شكراً".. قلت، من غير أن أطلق صوتاً: "أرغب أن أقبلكِ".. قالت بصوت بدا مرتفعاً بالقياس إلى جو المطعم: "WHAT?".. ضحكنا معاً..

طوال الطريق إلى منزل هانا بالقطار لم نتبادل الكلام.. أوصلتها حتى باب حديقتها:

"إلى اللقاء هانا".

"ألن تدخل؟".

"لا، شكرا.. لابد من الرجوع لأعمل على كتابي".

"نعم.. ألن تقبلني؟".

قليل من التردد والارتباك لم يمنعني من ضمها إلى صدري.. قبلتها في فمها.. حكت أنفها بأنفي وقالت:

"SEE YOU".

رمزي

أضع ملعقة الدواء في فمها.. أمسح شفتيها بمنديل ورقي.. أقبِّل جبينها، وأعدِّل وضع رأسها على المخدّة.. أرتِّب أطراف الغطاء على سريرها.. وأطلب من كمارا أن تطبخ حساء الخضار بالدجاج لوجبة الغداء لأن جسم هانا الواهن بحاجة إلى ما يعيد له العافية. وأجلس على الكرسيِّ ذي المسند الخشبي، أشرب قهوتي وأقرأ فصلاً من رواية (البحر البحر) لأليس مردوك بصوت واطئ النبرة وهانا تصغي بعينين مغمضتين وفم يكاد يفتر عن ابتسامة ربما لتحاكي الموناليزا من غير أن تقصد.. وحين أنتهي تكون قد غفت فأمد رجليّ على الطاولة الأبنوسية الصغيرة لأقرأ فصلاً آخر من الرواية لنفسي. وبين الصفحة والأخرى أرمق وجه هانا الشاحب الذي ازداد شيخوخة في ثلاثة أيام.. أمتلئ بالشفقة، ليس عليها فحسب وإنما على نفسي أولاً.. وأقول في سرّي: لم أجئ يا بنت الناس بعد أربعين سنة لأراكِ كيف

تموتين. فتنفلت من عينيّ دمعتين، وأسرع لأمسحهما خشية من أن تفتح عينيها. وحينها بم أسوِّغ هذا الضعف الموروث، هذه العاطفة الفاضحة التي ستنبئها بأن الأمر لم يعد على ما يرام. وقد همس الطبيب في أذني بما يقلق ويخيف.. هو يشك، ولابد من الخضوع لفحوصات دقيقة تكشف عن احتمال توغل الوحش الذي نخشى أن نسمّيه في الأحشاء.

أخرج إلى الحديقة لأدخن.. يأتيني صدى هدير قطار، ولا أرى قطاراً، لكن سكك الحديد تلصف في الشمس.. من شرخ ينسل الكائن الممسوس الذي كنته يوقظه الهدير البعيد للقطار النازل من الموصل.. يخمن الوقت بين الثانية والثانية والنصف.. الفصل صيف، وهو نائم تحت السماء العريضة في الفناء الصغير لمترله، بعينيه الناعستين يريد أن يحدد موقع نجمة الشمال.. تستغرقه زحمة النجوم المتلامعة، ويعود يغفو ثانية، وفي لحظة تدهمه رؤيا طفل خائف، ضائع في الفلاة، ويستيقظ مدركاً أنه كان ذلك الطفل. لا يستطيع أن يجزم ماذا كان يرتدي ومن أين جاء، غير أنه بالتأكيد كان يبحث عن أمه.

يستعيدني من رؤياي القديمة نداء كمارا وهي تأتيني بهاتفها الخلوي.

"المستر كيفن يريد التكلم معك".

أخبره بما قال الطبيب، فيسكت لحظات قبل أن يقول بصوت جاف حيادي: "حسناً، مساءً بعد انتهاء وقت العمل سأزورها ونتكلم بشأن ما علينا أن نفعله".

لم تخبرني هانا أن لكيفن شبه كبير بالمستر ديفيد في ملامح الوجه، وامتلاء الجسم والحركات، وحتى في نبرة الصوت.. جاء مع زوجته المسز سيلينا ليلاً.. دخلا إلى الغرفة فخرجت أنا إلى الصالة، وكمارا تريد أن تغادر إلى بيتها.. طلبت منه ألا يخبرها بما قاله الطبيب.. اكتفى بهز رأسه.. بقيا معها أكثر من ساعة وقرأت أنا في كتاب عن تاريخ الآشوريين المتأخرين، وشاهدت جزءاً من تقرير في التلفزيون عن الزرافات، وشربت كأس جن بالليمون.

سيلينا ذات قوام مثير، غير أنها ليست فائقة الجمال.. عيناها بنيتان صغيرتان، وفمها شهواني، ولا تبدو إنكليزية قحة.. أريحيتها تناقض الجانب المتحفظ في شخصية زوجها.. عرفت أنها تعمل مساعدة لمصممة أزياء شهيرة في لندن، أما المستر كيفن فيمتلك شركة إعلانات. وأولادهما التوأم، جيمس وإليكس، اللذان التقيناهما أنا وهانا قبل شهور في الشارع، طالبان دخلا لتوهما المرحلة المتوسطة.

"هانا تقول إنك سترافقها لأجل الفحوصات".

"بالتأكيد سأفعل".

"كنا أنا وسيلينا سنقوم بالأمر لولا ارتباطنا بالعمل.. يمكن أن أمنح نفسي إجازة إن لم يكن وقتك يسمح".

"وقتي حر.. أنا متقاعد وأقضي سحابة يومي بالبحث والكتابة، ويمكنهما أن ينتظرا.. حياة المسز ماير أهم".

قالت سيلينا: "شكرا للطفك.. نقدر اهتمامك بها".

"كنت مساعد المستر ديفيد في موقع الحُنينة للآثار في العراق".

صاح المستر كيفن: "آه، لم تخبرنا هانا.. اعتادت إخفاء الأخبار الجيدة".

ومد يده وصافحني. وصافحتني سيلينا التي قالت ضاحكةً:

"بل اعتادت أن تبقي الأشياء التي تخصها غامضة".

بعد نصف ساعة من مغادرتهما أعادت كمارا تعليماتها لي بشأن دواء هانا وطعامها وضرورة مرافقتها إلى الحمام وانتظارها حتى تنتهي من قضاء حاجتها في كل مرّة.. ومرّة أخرى أنا وحدي مع هانا خلف أبواب مغلقة.. لكن الحال مختلف الآن.. سألتها إن كانت بحاجة إلى أي شيء، قالت: "ساعدني لأجلس في فراشي".. وضعت مخدتين خلف ظهرها وأقمت جذعها وسحبته لتستقيم في قعدتها.. قلت: "لكِ أن تتدللي وتدعي المرض بين الحين والحين فهذا يسعدني.. كنت

أحاول أن أبدو مرحاً، ولم أقدر.. قالت وهي تبلل شفتيها بلسانها: "أصدقني القول عزيزي، هل الأمر خطير؟".

"هي وعكة عابرة يا هانا.. ويجب أن تعملي فحوصات.. هؤلاء الأطباء يبالغون كي يعيشوا في مستوى جيد".

"أشم رائحة غريبة".

"هي رائحة الأدوية.. سأفتح الباب قليلاً ليتبدل الهواء".

أتجنب النظر إليها مباشرة كي لا تقرأ الخيط العكر الذي أخاله يلوح في بؤبؤيّ.. لو نسمع بعض الموسيقى الهادئة.. كريشنا يفي بالغرض.. لكن لا، إنه صائغ جمال مذهل حزين وهذا ليس مما ينعش روح مريضة.. سنسمع أندريه ريو.. ألحان ملونة، مبهجة.. ورحت أنقر على طرف كرسييّ وأضحك..

"تعال واجلس لصقي على الفراش".

أدخل تحت لحافها الدافئ.. أحيط كتفها بذراعي وأشدها قليلاً إليّ، وأقول: "الكمان حنجرة ملاك يا ملاكي".

"أنا محظوظة لأنكَ هنا"

"أنا محظوظ لأنكِ في العالم".

لا سبيل لتفادي الشجن حتى مع كمان أندريه ريو.. وأسمع صوت تنفسها يتناغم مع سيل الموسيقى الذي ينقي هواء الغرفة.

بعد ساعة أدخل المطبخ.. أسخن حساءها.. أما أنا فسآكل شيئاً بارداً من الثلاجة بعد أن تنام.. تكفيني تفاحة خضراء..

أضع فوطة على صدرها.. أطعمها وهي في سريرها.. أمسح فمها.. أطبع قبلة على أنفها فتضحك.. لم أرها تضحك مذ جئت صباحاً بعد اتصال كمارا.. أود لو أقول لها: "بالضحك سنهزم المرض". غير أنني أطرد فكرة ترديد كلمة مرض على مسمعها ثانية ولأي سبب.

أحكي لها عن أشياء مضحكة.. لطرفتين أو ثلاث تضحك هانا من القلب.. أنا لا أستطيع أن أضحك من القلب.. وإن كنت أرفع عقيرتي بالضحك لأوهمها بأن لا شيء يستدعي أن نقلق من أجله.

لمّا تنام هانا أذهب إلى حيث تفاحتي الخضراء والنبيذ وموسيقى كريشنا وما تبقى من رواية أليس مردوك.

تشير لي بحركة احتجاج رادعة من يدها وهي تبتسم حين أتبعها في صباح اليوم التالي إلى الحمام.. تبدو أحسن حالاً قياساً لما كانت عليه البارحة.. نفطر في المطبخ قبل وصول كمارا.. أسحب ستارة النافذة فيتسلل ضوء الشمس غامرا نصف المكان حيث نجلس.. أقنعها ألا تقرب القهوة والسجائر والكحول لبضعة أيام في الأقل.. تشرب قليلاً من الحليب وتأكل بياض بيضة واحدة.. تقول:

"لأجل هذه الشمس أقترح أن نؤجل الفحوصات ونذهب إلى الريف بالقطار".

"لا يا هانا.. اقتراحكِ مرفوض.. الفحوصات أولاً، وأمامنا صيف طويل".

تسترق النظر إليّ بشيء من الحنان، وتقول هامسة: "في بالي سؤال أخشى من طرحه".. أحدس بما يجول في ذهنها فأقول: "سنعبر هذا الصيف معاً، فلا تدعي الأفكار السوداء تستغرقكِ".

أساعدها في ارتداء فستانها الصوفي ومعطفها الجلدي وجوربيها وحذائها.. تتجمل بقليل من الماكياج وترش عطرا خفيفاً من زجاجة ماركة ديور تحت أذنيها.. "لا تنسي قلنسوتكِ".. تأتي كمارا وهي تحمل مواد البقالة وصحيفة الأندبندت.. تقول: "أراك تتعافين مسز هانا".

نصل مختبرات المستشفى قبل ساعة الظهيرة.. نصعد طوابق ونمر بغرف عدة.. ترهقها الفحوصات الكثيرة تلك التي تقيس نبضها وضغط دمها ونسبة السكر في الدم، وتحلل فضلاً عن الدم ما يخرج منها، وتكشف عبر أجهزة الأشعة المختلفة عمّا في أحشائها.. ومن ثم علينا الانتظار بضعة أيام حتى تظهر حقيقة ما تعاني.

سأتناول قليلاً من المعكرونة والبطاطا المهروسة عند الغداء الذي سيتأخر حتى الرابعة عصراً، وستكتفي هي بثلاث أو أربع ملاعق من الحساء ونصف كوب من كوكتيل عصائر الفواكه.. وبعد أن تأوي إلى فراشها أغطيها لتتمتع بقسط من النوم وأرجع في قطار الخامسة والنصف إلى شقتي. فالليلة دور كمارا في رعايتها.

هانا

لا أقدر على الجزم بصدد من أوصل الغواية إلى تلك النقطة التي لا يمكن الرجوع عنها.. حاولت اللعب بأعصابه منذ مدة، وكنت أتسلى، وفقط لأنه لم يكن يبالي، وربما كان الأمر يمتّعه.. لعلنا نحن الاثنين رغبنا أن يتم كل شيء على هذا النحو الجنوني.. ومن ناحيتي لم أكن قد ضاجعت رجلاً منذ زمن مديد. منذ اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. وفي حالات سأم غالباً ما كانت تداهمني حاولت مداعبة نفسي وكنت انتهي إلى شعور مرير بالقرف. وهو أيضاً كما اعترف لي لاحقاً لم يذق طعم امرأة مذ ماتت زوجه. وما كان لي أن أسأله عمّا إذا كان يمارس العادة السرية بين الوقت والآخر، وهو في ستينياته.

في البدء كانت الموسيقى، ذلك المحفل المحرِّك لأعمق خلجات الروح، ومن ثم كانت نظراته وكلماته وضحكته.. التنغيم الحلو في صوته.. تلك اللكنة التي لا تشبه غيرها.. وماذا يمكن أن أفعل لمّا قبّل أنفي.. لم أألف مثل هذا الاهتزاز اللذيذ الذي يجتاح الخلايا كلها في ثانية واحدة.. قد لا يكون السبب في ما يبثه جسده فيّ، وإنما استعداد جسدي أنا لأن يُبعث، هكذا بطاقة شهوةٍ هائلة استجابة لأي مثير مناسب. لست أدري. وإذاً لم أفطن إلا وشفتاي تلتصقتان بشفتيه الممتلئتين. وفي اليوم الأول حين طرق بابي قلت في سري وأنا انظر إليه: "اللعنة، هذا الفم لابد من أنه يقبِّل جيداً جداً".

لايهم من فعل ذلك أولاً.. أظنني أنا.. لكنه إيقاع البيانو هو من صعّد إيقاعي وإيقاعه إلى ذروة نادرة.. كانت الموسيقى تنث مثل مطر صافٍ منعش، وشرشفي يرفرف كما لو أن هواءً عذباً يختلج في فضاء الغرفة.. كانت أنوثتي آخذة بالتوهج مجدداً.. ولم يفوِّت الفرصة.. وضع ذراعه تحت رأسي وجذبني إليه، احتواني. ولم أشعر إلا ولسانانا يمرحان بجذل مع بعضهما كطفلين نزقين، واللعاب العسلي يمتزج. وصدري ينسحق بضغطٍ من صدره الذي ما يزال قوياً.

تخلّص من قميص بيجامته.. وازددت خبلاً وأنا أشمُّ عطر رقبته.. فدفنت وجهي في شعر صدره الكثيف وشرعت بفك أزرار ياقة

ثوبي.. تخبطنا على الفراش متخلصين شيئاً فشيئاً من ملابسنا من غير أن يدع أي منا صاحبه يفلت من بين يديه.. وفي اللحظة التي انكشف فيها عرينا ساطعاً تحت أضواء النيون استمررنا عشر دقائق أو أكثر يجيل كل منا فمه على جلد الآخر طولاً وعرضاً، نمص ونعضعض ونلحس غير أنه لما اخترقني أخيراً اندلع فيّ على حين فجأة وجع كافر ولم أفلت سوى صرخة واحدة جفل على أثرها ولم توقفه.. عدَّ الأمر طبيعياً، وربما أرضى هذا غروره.. سألني وهو يتموج فوقي على مهل إن كنت بخير فقلت نعم، وما كنتُ كذلك.. كان الوجع يتفاقم أكثر وأكثر كلما تمادى.. وفي لحظة توقف.. انتزع نفسه من داخلي واستلقى إلى جانبي وهو يلهث، وكنت مثله ألهث.. قال: "أنتِ تتألمين هانا.. يا لي من أناني بغيض.. أنا آسف".

قمت وذهبت إلى الحمام وأنا أضع فوطة بين فخذيّ.. شعرت بالفزع وأنا أرى الفوطة منقوعة بالدم. فيما الوجع في تجويف حوضي لا يطاق.

حين سأخبر طبيبي في عيادته بهذا في مساء اليوم ذاته، سيراجع أوراقي بإمعان، قبل أن يرفع بصره نحوي ويسألني بنبرة خالية من التعبير:

"كيف مات أبواكِ".

"أبي بالجلطة الدماغية، وأمي بسرطان المبيض".

"آه".

"ماذا؟ أتعتقد أنني مصابة مثل أمي؟".

"لا.. لا.. لا يجري تشخيص المرض هكذا".

"قل لي.. ما توقّعك؟".

"للنزيف المهبلي أسباب كثيرة، ولا تنسي أنكِ مارستِ الجنس بعد انقطاع طويل، وهناك عمرك الذي تجاوز الستين".

قال رمزي وهو ينقل عينيه القلقتين بيني وبين الطبيب:

"لا يجب أن تدعي وساوس مثل هذه تستولي على ذهنكِ".

قلت: "أسأل فقط.. ألا يجب أن نفكِّر بالاحتمالات كلها؟".

قال الطبيب: "لابد من إجراء فحوص كثيرة.. بالأشعة والنواظير والرنين المغناطيسي.. تحاليل للدم والإدرار.. ونأمل أن يكون هذا تمزقاً صغيراً، أو عرضاً عابراً".

اتفقنا على إجراء الفحوصات والتحاليل المطلوبة غداً صباحاً في المستشفى.. كنت أعرف أن رمزي يشعر في قرارته بالذنب والخجل.. وكان يردد: "أنا آسف ما كان عليّ أن أذهب إلى هذا الحد".

أمسكت بأصابعه وقلت: "لا تلم نفسك رمزي.. لعلّ ما حصل كان من حسن حظنا، فلولاه لما فكرت بالخضوع لفحوصات.. اكتشاف مرض ما مبكراً لا سيما السرطان يجعل إمكانية الشفاء أكبر".

"لن أغفر لنفسي إن حصل لكِ مكروه".

تُزعجني في رمزي عاطفيته المفرطة، كما لو أنها تقبع كجرثومة بين أضلعه.. أزجره:

"هذا الكلام لا يفيدني بشيء.. سأحتاج دعمك إن حصل أسوأ توقعاتنا".

ردد كلاماً بالعربية.. كما لو أنه يطرد شبحاً بتعزيم سحري.. ضحكت وقلت: "أيها الساحر".. قال: "لا يا هانا.. لا أخاطب الشيطان.. هذه عبارة دينية نقولها راجين الله أن لا يفعلها".

ترقرق الدمع بعيني.. قلت: "أريد أن أتناول القهوة".. جلسنا في أول كافيه صادفناه.. قال: "الحياة غريبة، لها مشاكساتها وخططها.. وتصبح أحياناً بلا قلب لا تعبأ بمن يحبونها".

"أتحبها يا رمزي؟".

تطلع إلى وجهي.. وهمس:

"لأجلك أحببتها يا هانا وصمدت.. انتظرتُ أربعين سنة.. وفي النهاية لن أذعن.. إن كانت تريد أن تلعب بخبث فلتلعب.. أنا وأنتِ قادران أن نغلبها".

"أحقاً؟".

"فقط ثقي بنفسكِ وبي".

هانا
في اليوم التالي

أمقت رائحة المستشفيات كمقتي لأفلام الرعب والجرذان.. لم تعد في مستشفيات اليوم تلك الرائحة الحريفة الباعثة على الغثيان، غير أن جزءاً في ذاكرتي يستدعيها كلما ولجت إلى داخل بناية مستشفى، فيعاودني الغثيان ذاته، والشعور بالقرف ذاته،. والخوف ذاته.

هل أنا خائفة؟.

أعتقد في هذه المرة؛ نعم.. فلا شك أنهم يخفون عني حقيقة ما أعاني منه، أو ما يرتابون بشأنه. وإن كان هناك أمر خطير؛ سرطان على الأرجح فعليهم أن يكونوا صريحين معي لأعرف كم بقي لي من الوقت في هذه الدنيا؟.

فكرة الموت تصيبني أحياناً بالذعر، لكنني أرغب بموت سريع إذا كان لابد منه، من غير ألم أو إذلال.. لا أتحمل نظرات الشفقة التي يتجنبها رمزي وكمارا بصعوبة كما أخمن.. لا أريد ذلك التدهور البطيء الذي يجعل أقرب الناس إليك يتمنى انقطاع نفسك والرحيل عاجلاً بسلام.

أظن أن أكثر شخصين يتمنيان أن أعيش طويلاً هما كمارا ورمزي.

كمارا لأنني مصدر دخل لا بأس به لعائلتها، ورمزي لأني جزء من خيالاته الرومانسية التي تبقيه سعيداً وراضياً. ستبحث كمارا إذا ما رحلت عن عمل آخر وبيت آخر تخدم فيه، وفي الأغلب ستجدهما، لكن من العسير أن يعثر رمزي على بديل وعزاء. وهذا ما يجعلني أشفق عليه وأدعو الرب أن يؤجل موتي بضع سنوات من أجله.

أما كيفن فسيحزن مثلما تقتضي الطبيعة البشرية أن نحزن بسبب موت قريب تربطنا به بعض الذكريات، ولن يذرف دمعة واحدة. وستغمر الراحة جانباً من نفسه، لأن موتي، وهو الوريث الوحيد لي، سيزيده غنى.

يتركونني في غرفةٍ، كل ما فيها أبيض وأزرق، وحدي.. إنهم يتحدثون الآن بشأني.. رمزي وزمرة الأطباء الباردي الأعصاب.. يطول انتظاري.. ألتقط مجلة طبية من فوق مكتب حليبي اللون ذي سطح زجاجي.. أشياء قليلة اكسر حدة هذا البياض الممرض، كأنه لون الآخرة.. أقلب الصفحات الأولى للمجلة.. أقرأ قليلاً من بحث يخص أمراض القلب والشرايين.. أكره الكتابات المثقلة بالمصطلحات.. أركز على عبارة تافهة قديمة علموني إياها في مرحلة الثانوية؛ القلب مضخة عضلية. ما زالوا يقولون؛ القلب مضخة عضلية.. ذات يوم سألت رمزي عن القلب فقال شيئاً لكاتب يوناني اسمه نيكوس كازانتزاكي..

شاهدت فلم زوربا اليوناني المقتبس عن روايته و لم أقرأ الرواية.. يقول كازانتزاكي: "الله من الكبر بحيث لا تسعه السماوات والأرض، ولكن قلب الإنسان يسعه، فلا تجرح قلب الإنسان".. ليس القلب مضخة عضلية بل مترل الله. المترل الذي لا حدود له، لا أبواب ولا جدران، عامر بالرأفة والحب وملوّن بالموسيقى.

يدخل رمزي بصحبة الطبيب الدكتور ماهر؛ هو من أصول عربية، تدل قسمات وجهه إلى انتمائه العرقي لقاطني حوض البحر الأبيض المتوسط.. في عينيه البنيتين بريق ذكاء.. يجلس وراء مكتبة ويتهالك رمزي على المقعد الذي قبالة مقعدي. ويبدأ الكلام من غير انفعال:

"مسز هانا.. سأخبركِ بصدق عن كل ما أعرفه حتى هذه اللحظة.. المؤشرات الأولية لا تحسم شيئاً.. لا شيء خارج الرحم والمبيض وهذا شيء جيد.. نأمل أن تبقى المشكلة في حدود الاحتمالات السارة، لكن إن حدث العكس فلا ينبغي أن نقلق كثيراً..

"تقصد هو السرطان دكتور".

"هذا الكلام سابق لأوانه.. ولكن علينا أن نستعد للاحتمالات كلها وأسوأها نمتلك ما يمكننا من التصدي له وقهره.. قد يتطلب الأمر تدخلاً جراحياً، وإن اكتشفنا خلايا سرطانية فلا بد من علاج

كيمياوي.. ونصف العلاج هو إرادة الحياة والشجاعة.. أخبرني المستر رمزي أنكِ شجاعة حقاً وستعبرين الأزمة".

"دكتور ماهر، قل لي رجاءً ومن غير لف أو دوران، كم بقي لي في عالمنا التعيس هذا؟".

"أوه مسز هانا.. لا تهوّلي الأمر أكثر مما يلزم.. سأقول لكِ؛ بقي لديكِ الكثير. ومن يدري من سيغادر قبل الآخر.. لا ضمان".

مع أول دقيقة من وصولنا المترل تسأل كمارا إن كنا نحمل أخباراً طيبة..

يردّ رمزي: "كل شيء سيكون جيداً".

"لم أفهم.. أهناك ما يُقلق؟".

"لا.. نحن جائعان كمارا.. سنرتاح قليلاً ريثما تعدين المائدة".

أقول: "لا شهية لي للأكل.. سأنام قليلاً".

يرتسم القلق في نظرة كمارا المصوّبة نحوي.. يعترض رمزي:

"لابد من أن تأكلي شيئاً يا هانا.. تحتاجين الطاقة".

"سآكل بعد استيقاظي.. كُل أنت".

حين أندس في فراشي يخامرني شعور بالندم.. كان يجب أن آكل قليلاً، كي لا أجعل كمارا تقلق، وكي يشاركني رمزي على المائدة.. هو جائع، لكنه لن يتعدى.. أعرفه.. سيغادر.

مسرحية في مقهى بسوهو

ظنَّ أن الطبيب الشاب ذا الرقة الأنثوية، والعينين الذكيتين يخفي عنه شيئاً.. لمحه في ممر الطابق الثالث ماشياً يقلّب أوراقاً بين يديه.. لحق به وسأله:

"أتحتضر هانا؟".

وقف الطبيب وتطلع إلى رمزي وهو يعدِّل نظارته على أنفه.. هزّ رأسه نافياً، واستأنف سيره عائداً ليقرأ في أوراقه.

اصطحب هانا من المستشفى إلى منزلها قبل الغروب وهناك أخبرته كمارا أنها ستبقى مع السيدة حتى صباح بعد غد، ويمكنه أن يروح إلى بيته ليرتاح، فخرج تتناهبه الجزع والأسى.

أمضى الشطر الأول من ليله مسهداً.. قرأ واستمع إلى موسيقى بيانو لساعة ونصف الساعة، وشاهد نصف فيلم لم يعرف عنوانه.. وعند الثالثة جعله الإرهاق يغط في النوم.. رأى أحلاماً لم يتذكر منها لمّا استيقظ سوى نتف لا رابط بينها.. وهو يتناول فطوره جاءته رسالة من إميلي تطلب منه الخروج.. عرف أن من الصعب عليه البقاء في يوم كهذا بين جدران الشقة الصماء، وخمن أنها هي الأخرى لا تطيق البقاء في شقتها.. كتب لها:

"الساعة العاشرة والنصف.. مقهى Blue-tailed blackbird".

لم يلبثا في المقهى الذي يقع في منتصف المسافة تقريباً بين منزليهما أكثر من ثلاثة أرباع الساعة.. شربا قهوتيهما وخرجا إلى الشارع.. تسكعا طويلاً.. أعلمها أنه بحاجة إلى دقائق من الراحة فنَفَسه بدأ يضيق.. جلسا على مقعد خشبي تحت شجرة قيقب وارفة، وأرهفا السمع لّما صفر طائر ما لم يبصراه.. قال:

"لم أعد شاباً كما ترين".

سحبت رأسها إلى الوراء ونظرت إليه باسمة كأنها تريد أن تراه جيداً:

"لا أجدك طاعناً في الكهولة".

ضيّق ما بين عينيه وهو ينظر إليها متهكماً وقال:

"يا إميلي، يجب أن تدركي أن قوانين الحياة تتغير في أجسامنا تبعاً لمضي الزمن".

اعتدلت في جلستها وقالت:

"أفكر أحياناً بشكل حياتي حين أغدو في الستين، كيف تراه يكون؟".

"لا تشغلي نفسكِ بالبعيد.. يكفي أن تعيشي يومك.. هذا ما اكتشفته للأسف بعد فوات الأوان".

"أتقصد تلك العلاقة الوهمية؟. أوه، أقول أشياء حمقاء حين أغالي بالثرثرة".

"ليست حمقاء إميلي.. ربما أنتِ على حق.. هذه الأسئلة العصية التي ما زالت تقض مضاجع الأدباء والفلاسفة".

"أتعتقد أن البشر لم يصلوا بعد إلى إجابات".

"هناك إجابات لكنها ليست واحدة، ويشوبها النقص دائماً.. ليست هناك إجابة مفردة قاطعة لسؤال الحياة".

"ما أكثر شيء تفكر به؟".

"ليس الموت إن كان هذا ما ترمين إليه".

"ما هو إذن؟".

"الحب، ربما".

"الماضي".

"ليس الماضي دائماً.. الأمر لا يتعلق بالماضي كما تتخيلين".

"أيمكن أن يقع المرء في الحب وهو ....".

" لم لا؟.. لكني أتكلم عن قصة قديمة".

"ما زالت مستمرة، لم تنه".

"لست أدري".

"أهربت من قصتك هذه إلى لندن".

"أخشى أن أقول هربت إليها.. هربت إلى الأمام".

" لم أفهم".

"لا عليكِ.. أنا نفسي لست متأكداً من كل شيء".

انتصب أمامهما شاب أشقر طويل شعره مرسل على أذنيه وفتاة سمراء، يبرز هلالان يلمعان على نحوٍ مثير من بين الياقة المفتوحة لقميصها الزهري.. قالت الفتاة:

"اعذرانا.. هل لنا أن ندعوكما إلى مسرحية نعرضها الليلة".

قال الشاب: "الحضور مجاني، باستثناء ثمن ما تتناولان، وتستطيعان أن تتبرعا ولكن هذا ليس ملزماً".

يتلقف الرصيف خطواته المسرعة.. يترل إلى الشارع.. المطر يغسل قلب الليل.. خيوط الماء تتلألأ في مساقط الضوء قبل أن تذوب في سواد الإسفلت.. يفطن إلى أنه نسي مظلته في المقهى.. لا يعود.. يوقف تاكسياً.. يجلس في المقعد الخلفي.. ينفتح الباب الأمامي وتلقي إيميلي بجسمها على المقعد بجانب السائق وهي تلهث..

"كيف لك أن تتركني مع أولئك المجانين؟".

"أنا ذاهب إلى البيت".

"كاد يغمى عليّ.. أقسم أنها مكيدة".

"كيف لي أن أتأكد بأنكِ..".

"خراء رمزي، خراء.. لا تفكر بطريقة غبية.. اختر مكاناً على الطريق، مقهى أو باراً، أو حتى مقعداً في العراء.. نجلس ونتكلم".

"لن أدخل الساعة مكاناً لعيناً غير شقتي".

"لو جعلتني أذهب إلى مترلي فسأشرب لتر الجن الذي أخبئه، وربما قفزت من الشرفة بعد ذلك.. أسكن الطابق السابع".

ضحك السائق الذي بدا من أصول صينية أو يابانية وقال: "أعرف مكاناً جيداً، هل اتجه إليه سيدي".

"لا".

قالت إيميلي: "هذا ما سيحدث".

لم يفهم رمزي ماذا قصدت إيميلي بكلامها، ودار في خلده أن يكون سائق التاكسي هذا هو الآخر جزءاً من اللعبة، وأنه يغريه لأخذه إلى مكان يجري فيه الفصل التالي من العرض.. ظل ساكتاً، ولم تفه إيميلي بحرف هي الأخرى.. لم يكن رمزي واثقاً تماماً من أن هذا الطريق الذي تسلكه السيارة سينتهي عند العمارة التي يسكنها.. لماذا ترافقه إيميلي إلى هناك.. أتكون راغبة في الصعود معه إلى الشقة.. مستحيل، فهناك نزار ورحاب.. كيف يسوِّغ لهما اصطحابه لامرأة نصف ثملة في هذه الساعة المتأخرة من الليل.. وقد تحدث له فضيحة ليس مستعداً لتحمل عقابيلها.. أبصر نشرة ضوئية ملونة كبيرة لبار.. صاح: "قف، هنا". وقال لإيميلي: "اذهبي أنتِ إلى مترلكِ ونامي".. فتحت الباب وهبطت من السيارة قبله.. دفع الأجرة ونزل.

"أنت مضحك رمزي.. تتصرف كطفل".

دخلا بارا يضج بموسيقى صاخبة.. ثمة حلبة تزدحم بالراقصين.. تحاشيا بعض النظرات الفضولية التي صُوِّبت عليهما.. هذه من تلك الأمكنة التي لن تجد بين روادها واحداً قد تجاوز الثلاثين من عمره.. اختارا مقعدهما في أقصى زاوية وجلسا.. جاءتهما نادلة لا تخلو من بدانة بصدر عارم وحاجبين كثين.. قال رمزي: "نشرب عصائر فاكهة".

قالت إيميلي: "كأس شراب واحد ومن ثم نمضي الليل نشرب ما تقرره أنت".

قال رمزي برماً:

"قلتِ هذا أيضاً في ذلك المقهى اللعين".

قالت النادلة: "أترغبان بحل وسط.. لدينا خبرة جيدة في تحضير كوكتيل Tequila Sunrise يحوي عصير برتقال".

قالت إيميلي: "كأسان من Tequila Sunrise من فضلكِ".

قال رمزي: "لن أُفاجأ إذا ما جاء الدكتور واتسون والمسز ليلي وجلسا معنا".

قالت إيميلي: "وما الذي ستفعله حينئذٍ؟".

"سأجعلهما يسكران تماماً، وحين نخرج سأبحث عن بركة لمياه الأمطار لألقيهما فيها".

"أنا أؤيدك تماماً، ومستعدة مقابل هذا أن أتحمل الوقوع في بركتك".

ضحك رمزي بصوت عال ابتلعه هياج الموسيقى. وضحكت إيميلي.. جاءت النادلة بكأسي الـــ Tequila Sunrise.. رن هاتف رمزي الجوال.. كان البروفيسور رايت على الخط في الطرف الآخر.. قدم اعتذاره بسبب ما حصل الليلة من سوء فهم وطلب أن ينقل رمزي اعتذاره لرفيقته كذلك.. قال: "أطمئنك أن ما سرقه الوغدان كان نسخة زائفة.. لسنا حمقى حتى نقدم مذكرات الدكتور ديفيد في عرض للصبية"..

"ولكن أن أُستدرج بهذه الطريقة البائسة وأقحم بذلك العرض التافه تتحمل أنت والدكتور واتسون مسؤوليته".

"لم يكن عرضاً تافهاً بروفيسور.. كانت لدينا خطة أفسدها ذانك الولدان العاهران.. وفي الوقت المناسب سأُفهمك، وأنا على ثقة بأنك ستقتنع.. أكرر اعتذاري".

شربا كأسيهما.. ومن ثم كأسين آخرين.. تبادلا بعض النكات البذيئة وخرجا سكرانين.. قال رمزي:

"لن أذهب في هذه الساعة المتأخرة إلى المترل".

"تعال معي.. ستنام في فراشي، وأنا سأنام في الصالة على الأريكة".

كان رأسه مشوشاً ثقيلاً، ويحلم بفراش دافئ، وبالكاد يسيطر على حركة ساقيه، فلم يعترض.. اتصل بترار وأخبره أنه سينام في مترل صديق.. أوقف سيارة تاكسي وطلب من إيميلي أن تعلم السائق بالعنوان.

رمزي

"سأكون صريحاً معكِ سيدتي.. أنتِ مصابة بسرطان المبيض في مرحلته الثانية.. لحسن الحظ كشفنا المرض في وقت مبكر نسبياً".

التفتُّ إلى هانا، لكني سرعان ما أشحت بنظري عنها.. لم يكن من السهل أن أتواصل مع عينيها الذاهلتين اللتين اختنق فيهما الدمع.. حدّقت في فم الطبيب الزهري الرخو لأسمع منه بقية ما يجب أن يعلمنا به:

"وفي هذه الحالة نحتاج إلى تدخل جراحي، وبعده سنقرر بشأن العلاج الكيمياوي".

قاطعته هانا:

"كم بقي لي من الوقت؟".

احتفظ وجهه بتعبير حيادي وهو يرد بنبرته الباردة ذاتها:

"احتمال الشفاء أكثر من 70%، وهذه نسبة جيدة".

قلت، بصوت مبحوح:

"وماذا عن نسبة الـــ 30% الأخرى دكتور؟".

"كل شيء مرهون بظرفه"

ولم أفهم، ولعله نطق بعبارته الغامضة هذه لأنه لا يمتلك جواباً قاطعاً، لكنه أضاف بعد لحظات صمت ثقيلة:

"ولا تنسوا أن الطب تقدّم كثيراً في السنوات الأخيرة.. لا تدعي القلق يسطو عليكِ".

رحتُ أجيل بصري إلى أعالي أشجار التنوب والدردار والصنوبر الشعاعي وهي تتمايل في الريح، وفوقها تلوح غيوم عكرة متشظية هاربة عبر زجاج النافذة التي أزيحت عنها الستارة خلف ظهر الطبيب. نهضت هانا عن كرسيّها، ووجدت صعوبة في أن أترك كرسيي. كنت بحاجة إلى دقائق أُخر ريثما ألتقط أنفاسي.. كنت كمن ركض على مرتقى جبل مطارداً من قبل نمر.. قمت وأنا أسأل الطبيب:

"وماذا الآن؟".

"أنصح بالاستعجال.. نحن جاهزون لبدء الإجراءات خلال أيام كي لا تنتشر الخلايا السرطانية أكثر، فهي ما تزال تستوطن المبيضين ولم تخرج بعد".

"لن نتأخر بالاتصال بك دكتور".

وكنت أصافحه مودعا حين خرجت هانا من الباب وراحت تسير بخطوات سريعة في الممر الطويل.. ونزلتِ الدرج إلى الطابق الأرضي ولم ألحق بها إلا عند الباب الرئيس للمستشفى.. قالت:

"لا أريد الذهاب إلى البيت الآن".

"سنختار مطعماً ونتحدّث".

دخلنا مطعماً إيطالياً، وطلبنا بيتزا باللحمة المفرومة وجبنة الموتزاريلا مع زجاجة نبيذ.

"لن أبالي بعد اليوم.. سآكل كل شيء".

"اسمعي هانا.. هذا المرض الخبيث عدوّه التفاؤل.. أنْ تثقي بأنكِ ستشفين".

"لستُ خائفة من الموت".

"لا ترددي كلمة الموت".

أمعنت النظر في ملامحها المنكمشة وحاولت اغتصاب ابتسامة:

"في العراق الأشياء التي نخشاها لا نسمّيها.. نقول كي لا تسمعنا وتجيء.. وعبارة (ذلك المرض) شائعة لدينا ونعني بها السرطان.. أما الثعبان فنسمّيه (الشيء الطويل)".

صفنت في وجهي: "أحقاً؟. أنت تمزح".

"لست أمزح".

ابتسمت.. رددتْ: "الشيء الطويل، الشيء الطويل، ذلك الشيء الطويل". وأطلقت ضحكة عالية.. ضحكتُ أنا الآخر.. جارانا شاب وشابة يجلسان إلى المائدة المجاورة لنا بالضحك.. انتشرت عدوى الضحك في المكان.. زبائن آخرون بدأوا يضحكون، وضحك عمّال المطعم.. قلت:

"ستنتقل جرثومة الضحك إلى كامل تراب بريطانيا العظمى".

كنت أعرف في دخيلتي أنها بالضحك تداري الجزء الناشب فيها. وبعد أنْ راحت تمسح عينيها الدامعتين بمنديل ورقي كسا ملامحها شيء من الانشراح.. جاء النادل بزجاجة النبيذ، وأدار منها في كأسينا. "بصحتكَ". "بصحتكِ". وحالما أخذت الرشفة الأولى ابتسمت وقالت: "شكرا رمزي". ولم أعرف ما الذي يتوجب عليّ قوله.. تفرستُ في وجهها ولفظت كلماتي بما يشبه الهمس: "مرضكِ قضيتي حتى ننتهي منها".

لم تأكل كثيراً، وفي النهاية شربنا زجاجة النبيذ حتى آخر قطرة ولكن بقي نصف قرص البيتزا في الطبق.. كنا ثملين.. أصرت أن تدفع هي الحساب في هذه المرة ولم ألح في الاعتراض. وفي الشارع تشبثت بذراعي وبتنا نسير ملتصقين مثل أي زوجين عاشقين.. ألفيتها أقرب إليَّ من أي وقت مضى، وإلى الحد الذي صرت أستشعر بمرضها في بدني.. ليست، منذ هذه الساعة، وحدها المريضة. غير أن وجودنا معاً لابد من أن يجعلنا نقاوم بضراوة أكبر. وقررت ألا أتكلم معها إلا بحذر كي لا أنطق بعبارة غبية تحبطها أو تحزنها.. دلفنا من باب متنزه صغير كما لو أننا كنا على موعد مسبق لولوج هذا المكان.. كان بضعة أطفال يلعبون الكرة على العشب، وعائلاتهم جالسة على أرائك تزجي وقتها بالثرثرة.. مررنا بامرأة في أواسط العمر تركض مع كلب ضخم، وشاب يلصق ظهر شابة بجذع شجرة ويلتصق بها ليقبلها. وعجوز مستوحدة انهمكت بحياكة كنزة صوفية بلون الحناء.. وزوجان من العرق الأسود يستظلان بفروع شجرة دردار ويتحدثان بحميمية دافئة.

اتخذنا مقعدنا في مواجهة الشمس.. دخلت امرأة ذات ملامح شرق آسيوية تبيع الورد واتجهت حالاً نحونا.. اشتريت وردة حمراء وقدمتها لهانا.. ضحكنا.. قالت:

"لو لم تكن هنا، كنت سأستسلم".

رفعت أصابعها إلى فمي وقبلتها.

"أسوأ ما فيك أنك تدفعني دوماً للبكاء".

كان الهواء يبرد مع انقضاء ساعات النهار.. قمنا ومشينا نحو محطة القطار القريبة.. دخلنا دورة المياه.. تأخرتْ في الخروج فشعرتُ بالقلق.. ما كنت أريد أن أصادف إيميلي أو أي فرد من مؤسسة البروفيسور رايت، وهانا معي. ولما أقبلت أخيراً كانت تضحك.. قالت إنها التقت عند المغاسل بصديقة قديمة لم ترها منذ سنين وقفت تشكو من حموضة بالمعدة والإسهال. أعطتها هانا قرصي نوفاجيل من تلك التي تحملها في حقيبتها للحالات الطارئة وأوصتها بمراجعة طبيب. قطعنا تذكرتين. وفي العربة جلست هانا إلى النافذة وجلست إلى جانبها..

"سأوصلكِ إلى باب المنزل وأعود إلى شقتي".

"اليوم بالذات أحتاج أن تبقى معي.. أرجوك".

أُسقط في يدي.. ضغطت على أصابعها ولم أتكلم.. كانت الوردة الحمراء تستقر على فخذيها..

"أولادك، أهم بخير؟".

هززت رأسي وابتسمت.

"ما أخبار رحاب".

"إنها بخير".

"حسناً.. أما زالت معه؟".

"أعتقد.. نعم".

"لماذا تتوتر كلما كان الكلام عنها؟".

"لا.. لست متوتراً.. ربما بعض الشيء.. تعرفين هانا.. أظنها سعيدة".

"جيد.. شيء جيد أن تكون سعيدة.. وأن تعتقد أنت أنها سعيدة".

"ليست طفلة".

"لا.. امرأة مثلها تفهم ما عليها فعله".

"أنتِ على حق".

وانتبهت إلى أن الفتاة التي تجلس قبالتنا كنت قد التقيتها في القطار قبل شهور.. أخبرتني باسمها ونسيته.. كانت تنظر إلينا وفي أذنيها سماعتا هاتفها الخلوي.. ابتسمت وابتسمت. وكأنها خمنت أن اسمها محي من ذاكرتي.. قالت بعد أن نزعت السماعتين:

"أنا ماريا".

"أجل سبق وأن تحدثنا في القطار".

"نعم".

أعادت السماعتين إلى أذنيها.. همستْ هانا وهي تدني فمها من أذني حتى شعرت بلفح أنفاسها على رقبتي:

"يبدو أنك أوقعت في شراكك نصف النساء اللواتي يستقلن قطارات لندن".

ضحكتُ وضحكت هانا وكلانا ينظر إليها.. اتسعت عينا ماري وكأنها حدست بأننا نتحدث عنها.. انتزعت السماعتين ثانية وقالت:

"صديقتك جميلة".

قلنا أنا وهانا معاً: "شكراً". وضحكنا.. ضحكت ماري.. سألتني:

"أتعرفها منذ وقت طويل؟".

"منذ أربعين سنة".

"لا أرى خواتم في أيديكما".

قالت هانا بمرح:

"ما زال الوقت مبكرا للزواج".

ضحكتْ ماري، وبَهِتُ أنا.. كان القطار يتوقف.. نهضنا أنا وهانا، ولوّحنا لماري التي أعادت السماعتين إلى أذنيها ولوّحت لنا بأصابعها البيض الطويلة وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة عريضة صافية.

قطعنا المسافة بين المحطة ومنزل هانا مشياً على الأقدام.. كان المساء يوشح السماء بلون الرماد القاتم.. وبدأنا نشعر بالبرد.. ومنذ لحظة

تخطينا العتبة سألت كمارا عن حال السيدة.. قلت: "هي بخير". قالت هانا: "لست بخير يا كمارا.. إنه مرض أمي؛ سرطان المبيض". صاحت كمارا: "يا إلهي".

جلسنا في الصالة على مبعدة من الموقد المشتعل.. كان أحجار الطوب تتوهج فيه منقلبة من الوردي الفاتح إلى الأحمر البراق.. كنا نريد أن ننعم ببعض الدفء.. قالت كمارا: "لابد من أنهم وجدوا الآن علاجاً أفضل". قالت هانا: "نحتاج أن نشرب الشاي يا كمارا، ولا يدر في بالكِ أنني أخاف الموت". نهرتها: "لا تتصرفي مثل طفلة يا هانا. اتفقنا أن نتجنب ترديد هذه الكلمة". كانت كمارا تهم بمغادرة الصالة إلى المطبخ حين فاجأتها هانا بالسؤال: "كمارا، حزري فزري؛ ما هو ذلك الشيء الطويل؟".

وقفت كمارا واستدارت وقد نمت ملامحها عن حيرة.

"أتعنين القطار سيدتي؟".

انفجرنا كلانا بالضحك فيما بقيت كمارا تحدجنا بنظرات جامدة وقد انفرج ثغرها قليلاً:

"لا أظنكِ سيدتي تشيرين إلى أمرٍ بذيء".

هذه المرة فرقع ضحكنا نحن الثلاثة دفعة واحدة.. قالت هانا بعد أن هدأنا ورحنا نمسح عيوننا بمناديل ورقية:

"هذا يوم غريب رمزي.. يا له من يوم غريب لعين.. سرطان المبيض وذلك الشيء الطويل وهذا القدر الغليظ من الضحك، لا شك أنني ولدت تحت نجمة حظ تهتز".

عادت كمارا لتسأل: "لم تخبروني ما هو ذلك الشيء الطويل".

قلت: "نقصد الثعبان كمارا".

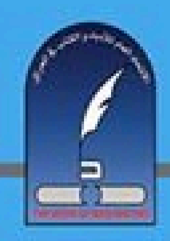
قالت وكأنها جُفلت من مرأى ثعبان الكوبرا:

"لا تنطق باسمه سيدي".

"هذا هو الأمر.. هو هذا.. لا تنطقوا باسمه ذلك الشيء الطويل كي لا ينط أمامنا".

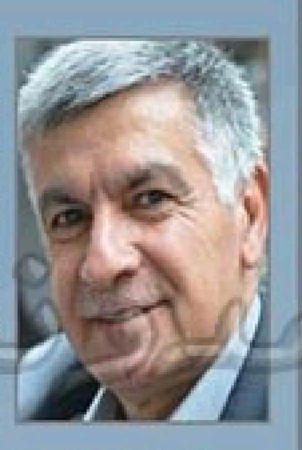
قالت هانا ورنَّ ضحكها مرة أخرى. وعدنا أنا وكمارا نقهقه معها.

****** انتهت ******



Publications of General Union of Iraqi Writers

سعد محمد رحيم



القطار .. الى منزل هانا

سعد محمد رحيم

ان رواية (القطار .. الى منزل هانا) هي رواية ممتلئة بالرموز والإحالات والمرجعيات والأزمنة والأمكنة، مما يجعلها قابلة لقراءات وتأويلات واستنطاقات لا نهاية لها خاصة وأنها تظل مفتوحة النهاية، حتى ليخامرني الشك في ان الرواية، بمعنى من المعاني، يمكن ان تكون ناقصة او غير مكتملة، وان المؤلف نفسه تمنى في السطور التي تصدرت الرواية والتي تعد بمثابة عتبة نصية دالة، ان تكتمل ذكرى هذه الارتحالات والحكايات الرممة بالخيال والتي يستدعيها عن طريق الكتابة كي يكتمل النص المجنون .. لعله يكتمل (ص 2)

ولقد تساءلت احيانا مع نفسي فيما اذا كانت هذه الرواية هي سيمفونية سعد محمد رحيم الناقصة التي لم يمهله الموت ليكملها.

فالرواية هذه كما نرى هنا، هي نص مفتوح النهاية، ذلك انها تحتمل تعدد القراءات، ولا تنغلق على قراءة واحدة او مدلول واحد، وهي بمعنى آخر بمصطلحات رولان بارت، نص كتابي قابل للتأويل اللامتناهي في مقابل النص القرائي الذي يغلق دائرة التأويل امام افق القارئ من خلال تحديد مدلول واحد ثابت لا يتغير.

هذه الرواية الحداثية كما نرى هي نص كتابي مفتوح اجناسيا استطاعت ان تلتهم بشهية مفتوحة الكثير من عناصر ومقومات اجناس ادبية وفنية مجاورة او متقاربة داخل معدتها وتمثلتها ابداعيا من خلال عملية تناص معقدة مع عشرات النصوص والشخصيات الروائية لتتحول الى نص مفتوح يحمل الكثير من المقومات التي اشرها الناقد والروائي الايطالي (امبرتو ايكو) عن النص المفتوح

رواية (القطار .. الى منزل هانا) تمثل اضافة مهمة للمتن الروائي الذي خلفه الراحل سعد محمد رحيم وللرواية العراقية.

فاضل ثامر

القطار .. الى منزل هانا



تصميم الغلاف : د. فرات العتابي

2018